دعوة الحق

مجلة شهرية
تعنى بالدراسات الإسلامية
وشؤون الثقافة والفكر

ملف العدد

الأبعاد الضريبية للصحوة الإسلامية
الصحوة الإسلامية واقع وآفاق

من السادة العلماء والدعاة الذين شاركوا في أعمال الجامعة الضريبية للصحوة الإسلامية

العدد 281 • ربيع I - ربيع II - جمادى I 1411 / أكتوبر - نونبر - دجنبر 1990 • ثمن العدد : 4 دراهم

تصدرها

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا

صدق الله العظيم

فلنبدأ بالله العلي
العظيم أن أبقى وفيا
لروح المسيرة الخضراء
مكافحا عن وحدة وطني من البوغاز
إلى الصحراء، أقسم بالله العلي العظيم
أن الفن هذا الفهم السري وعيتني
في سيري وعانيتي والله سبحانه
هو الرقيب على
طويتي وصدق
نيتي

لقد كان المسلمون سادة هذا العالم، يوم كانوا يُدركون حقيقة الإسلام ويتبعون سنة رسولهم المصطفى عليه السلام، وينهجون في حياتهم كلها نهج سيرته، فازدهرت دنياهم، وامتدّ سلطان دينهم إلى آفاق المعمور إشعاعاً وإرشاداً وتعميماً لمبادئ الخير والحق والسلام

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني

صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير الجليل سيدي محمد حفظه الله

مَغْرِبُ الإيمانِ، والعملُ البنّاءُ

تختص بعض شهور العام بما كرمها الله به من مكرمة إسلامية، وخصها بـه من مزية دينية، تجعل لها مكانة خاصة في الإسلام، وتبقى غرة مشرقة في جبينها، ومعلمة بارزة على تتابع الأيام والأزمان.

ومن بين تلك الشهور شهر ربيع الأول، الذي يخلد فيه المغرب والعـالم الإسـلامي ذكرى مولد سيد الكائنات ومنقذ البشرية من الظلمات، وداعيهـا إلى دين اللـه القـويم، وهاديها إلى الصراط المستقيم.

إنه مولد محمد بن عبد الله، صلوات الله وسلامه عليه، مولد جليل بجلال صاحبه وقَـدْرِهِ عند الله، جدير بكل ابتهـاج وتعظيم، واحتفـاء وتكـريم، إنـه مـولـد رسـول الإسلام، ودينه الحق، وشريعتـه السمحـة، رسـول البر والخير وهـدايـة الإنسـانيـة، وإنقاذها من مسالك الضلالة ومهاوي الجهالة، والانحرافات الاجتماعيـة والأخـلاقيـة، وتوجيهها نحو الجادة والاستقامة، مصداقا لقول الله تعالى في سورة الجمعة:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويـزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

كان مولد محمد بن عبد الله وما صاحبه من إرهاصات وظواهر خـارقـة للعـادة، إيذانا وتبشيرا بما سبق في علم الله وأزله أنه النبي الـذي بشّـرت بـه الكتب الإلاهيـة السابقة، وأكمل الله به الشرائع والديانات، وختم به النبوة والـرسـالات، وأخـذ العهـد والميثاق على الأنبياء والمرسلين السابقين أن يومنوا به ويصدقوا برسالته، فقـال تعـالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾.**

وقال سبحانه: **﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمـة ثم جاءكم رسول الله مصـدق لما معكم لتومنن به ولتنصرنه، قال: أقررتم وأخـذتم على ذلكم إصري (أي عهـدي)، قـالـوا أقـررنـا، قـال: فـاشهـدوا وأنـا معكم من الشاهدين..﴾.**

وقال سبحانه: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيئين وكان الله بكل شيء عليما**﴾.

إنه مولد الرسول الذي جمع الله له من الفضائل والمكارم، والمحامد والمحاسن ما تفرق في غيره من الأنبياء والأتقياء، فكان أصدق الناس حديثا وأوفاهم عهدا، وأرعاهم أمانة، وأكثرهم عفوا وصفحا، وحياء وصبرا، وشجاعة وتسامحا، وألطفهم معاشرة وتعاملا، وأحسنهم خلقا وخلقا، تكونت بما جاء به من دين وأخلاق أمة مؤمنة متدينة، ودولة اجتماعية متمدنة، تقوم على الإيمان بالله وتوحيده والخضوع له، وعلى الحق والعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والتعاون على البر والتقوى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي والفوضى، وتتبوأ بذلك مكانتها التي جعلها الله فيها حين وصفها بأنها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتومن بالله، فكان المولد النبوي وذكراه العظيمة في شهر ربيع الأول من كل عام، مولد من اصطفاه الله وبعثه إلى الناس كافة، وأرسله إلى العالمين رحمة، وجعله لأمته القدوة الحسنة عندما قال سبحانه: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ وقال جل علاه: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾، وقال عز من قائل: ﴿**يأيها النبيء إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا**﴾.

وما أروع قول الإمام البوصيري، في هذا المقام:

ليلة المولد الذي كان ... للدين سرور بيومه وازدهاء
وتوالت بشرى الهواتف أن قد ... ولد المصطفى وحق الهناء

* * *

ورأينا آياته فاهتدينا ... وإذا الحق جاء زال المراء

ويظل المولد النبوي، وبعثته المحمدية، ورسالته الإسلامية، ومعجزته القرآنية شعلة متوهجة من الإيمان، مضيئة في قلوب وبصائر المومنين والمومنات على مر العصور وتعاقب الأجيال، تبقى تلك الشعلة الدينية وهدايتها الإيمانية مبعث الوعي الديني وصحوته الإسلامية، القائمة على الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله، والتمسك بدينه وشريعته، تبقى نبراسا ينير الطريق للمسلم في مسالك هذه الحياة المتشعبة، ويهتدي به فيما يجب عليه من حقوق الله وحقوق العباد، ويحفظ له توازنه بين مطالب الحياة ومطالب الروح، حتى لاتجذبه الحياة المادية بمغرياتها، وتجمح به في مطالبها ورغباتها، وتسلبه الشعور بأصالته الدينية ومقوماته الوطنية والحضارية.

ومن هذا المنطلق الإسلامي السليم، الثابت في نفس كل مسلم ومسلمة، المتأصل والراسخ في كل فرد من أفراد الأمة المغربية، وبمبادرة كريمة، وتوجيه سام من أمير المومنين جلالة الحسن الثاني حفظه الله، وأدام له النصر والتمكين، نظمت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية في أواخر غشت المنصرم الندوة الأولى للجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية، واستدعت لحضورها شخصيات بارزة من في مجال العمل الإسلامي والدعوة الإسلامية ورجال الفكر من مختلف أنحاء العالم الإسلامي وغيره، وكانت مناسبة طيبة تم فيها تدارس موضوع الصحوة الإسلامية، واقعها وآفاقها، وألقيت في ذلك كلمات وبحوث، وتمت مناقشات ومداخلات، كانت متجاوبة مع ما يملأ قلوب الأمة الإسلامية، ويعمر قلوب قادتها المخلصين من إيمان بالله وعبادته وطاعته، وشعور بالمسؤولية الدينية والدنيوية، ورغبة صادقة وسعي حثيث، في العمل على كل ما من شأنه أن يحقق صلاح الأمة المسلمة وإصلاح مجتمعاتها، وينهض بها على أساس من ذلك الإيمان والشعور، والإدراك السليم، والوعي المتبصر العميق بمختلف الظروف والأحوال والملابسات التي يعيشها المسلمون في كل مكان، وبضرورة العمل على صيانة المسلم في خضم هذه الحياة من الذوبان في الحضارة المادية بكل مالها وما عليها، والأخذ بيده فيما يجعله متمسكا بالوسطية الإسلامية التي هي من مميزات وخصائص ديننا الإسلامي الحنيف، والتي تحول دون وقوع المسلم في الإفراط أو التفريط، أو التقصير أو التشديد، عملا بقول الله تعالى: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾**.

ولعل ما تضمنه هذا العدد من هذه المجلة من ملف عن أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية، وما ألقي في الجلستين: الافتتاحية والختامية من كلمات في الموضوع، وما سيطبع بحول الله من كتاب خاص وجامع لأشغال هذه الجامعة في كلماتها وبحوثها ومناقشاتها، سيبرز تلك الحقيقة الناصعة التي يصونها المغرب ويحافظ عليها ملكا وحكومة وشعبا، إنها حقيقة الاعتصام والتمسك بالإيمان، والتشبث والتعلق بالإسلام والحفاظ على مبادئه وأخلاقه، وشريعته وأحكامه في ظل القيادة المومنة الصالحة، للعرش العلوي المجيد، وفي شخص واسطة عقده، وعاهله المفدى أمير المومنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله وأدام نصره وعلاه،

اقتناعا بأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بـه أولها، من الاعتصـام بـالإيمان، والعمل الصالح البنّاء.

ومن حسن المناسبة أن يتزامن صدور هذا العدد مع شهر نونبر، وهو شهر يتميز بالنسبة للمغرب والمغاربة بذكرى حدثين عظيمين وأمرين بارزين هامين في حياة الأمـة المغـربيـة وتـاريخهـا المعـاصر، هما ذكـرى انطـلاق المسيرة الخضراء، وذكـرى عيـد الاستقلال.

ففي اليوم السادس من شهر نونبر من كل سنة، ومنذ سنة 1975، يعيش المغرب باعتزاز وافتخار، عيدا وطنيا مجيـدا يتمثل في ذلك الحدث الكبير الهام الـذي أعلن فيـه صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله عن انطلاق المسيرة الخضراء نحـو الصحـراء المغربية المسترجعة، بعدما أعلن جلالته في خطابه الملكي السـامي يـوم 16 اكتوبر من نفس السنة عن تنظيمها بروح سلمية مسالمة، تلك المسيرة القرآنيـة المظفـرة التي كـان شعارها الإسـلام والسـلام بما يـردده المشـاركـون من شعـار كلمـة: الله أكبر، وبما يحملون في أيديهم من أجزاء القرآن الكريم، والرايات المغربية، والتي استمدت جوهرهـا وروحهـا السلميـة من السيرة النبـويـة في مسيرة وصلح الحديبيـة، تلك المسيرة التي انطلقت من الإيمان بالله والتوكل عليه، ومن اليقين والقناعة بالحق، والعمل الحازم على تثبيت المشروعية، وتفويت الفرصة على من يريدون المساس بالمغرب والنيل من وحدته الترابية، وقامت ضمن ما قامت عليه على ما يجمع بين العرش العلوي المجيد والسكـان الأصلاء في الصحراء المغربية، وأبنائها الأوفياء البررة من العلاقة الشرعيـة بين الـراعي والرعية، القائمة في الإسلام على روابط الـولاء والبيعـة، وهي عـلاقـة وروابط أقـرتها وأيدتها وأكدتها محكمة العدل الدوليـة، فكـانت المسيرة الخضراء فتحـا مبينـا، ونصرا عزيز للمغرب والمغاربة قاطبة، تمكن بها بلدنا العزيز من استرجاع صحرائه المغربيـة، وظلت ذلك الحدث الهام البارز في القرن العشرين، الذي أدهش العـالم وبهره، وجعلـه ينظر إلى المغرب بمنظار الإعجاب والتقـديـر، والـذي يـرجع الفضل الكبير في إبـداعـه وتنظيمه إلى رائد الأمـة الملهم وقـائدهـا الموفق، الحارس الأمين لهذا البلـد الكـريم على مصالح الدنيا والدين، أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظـه اللـه، وكيف لا، وقديما قال المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائـم وتأتي علـى قـدر الكـرام المكـارم
وتعظم في عين الصغير صغارهـا وتصغـر في عين العظيـم العظـائـم

وهاهي خمس عشرة سنة مرت على هذا الحدث التاريخي العظيم، ولا تزيده الأعوام والسنون إلا رسوخا وثباتا، وتقديرا وإعجابا، ولا يزداد معه المغرب إلا عزا وصمودا، ولا يزداد معها سكان الصحراء المغربية وأبناؤها الأوفياء البررة إلا ولاء وتعلقا بالعرش العلوي المجيد، وتشبثا بمغربيتهم، وانتمائهم لمغربهم العزيز، واستمرارا على الولاء والبيعة والوفاء بالعهد والطاعة، ولا تزداد معها صحراؤنا إلا نموا وحركة في كل ميدان، وإلا استقرارا واطمئنانا، وتقدما وازدهارا في كل مجال، في ظل عاهلها المفدى جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله. **﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾.**

وفي يوم 18 نونبر من كل سنة، ومنذ سنة 1955 يخلد المغرب باعتزاز وابتهاج عيدا وطنيا مجيدا، ويعيش ذكرى من أعز وأعظم ذكرياته الوطنية، إنها ذكرى عيد الاستقلال، الذي يذكر الاحتفال به بتاريخ الجهاد الطويل، والنضال المستميت، الذي قاده ضد الاستعمار جلالة المغفور له محمد الخامس رضوان الله عليه، وبمعيته ورفقته ولي عهده آنذاك جلالة الحسن الثاني حفظه الله، ومن ورائه شعبه المومن الوفي بكل فئاته وشرائحه، بكل ممكناته المادية والمعنوية، جهاد ونضال استمر سنوات، وقوي في الثلاثينات، واشتد في الأربعينات، وبلغ أوجه في الخمسينات، حين ضحى بعرشه وأسرته، وتحمل النفي والغربة عن وطنه، وظل صامدا مقاوما بما آتاه الله من إيمان ويقين وصبر وثبات، وثقه في وعد الله ونصره الحق على الباطل، حق العيش في الحرية والكرامة وهي أعز ما يملك المسلم بعد الإيمان بالله.

إنها ذكرى مجيدة يفخر بها المغرب والمغاربة، ويستعيدون من خلال الاحتفال بها كل سنة ما قدمه العرش العلوي المجيد، وما زال يقدمه لهذا البلد من أجل الحياة الكريمة في الهناء والرخاء والعيش الرغيد، وما بذله سلفهم الصالح من آبائهم وأجدادهم، وقدموه من تضحيات بالغالي والنفيس في ظل التفافهم حول العرش العلوي العتيد، وفي سبيل أن يعيش أبناؤهم وأحفادهم أحرارا كرماء، والمغرب حرا كريما، إنه مغرب الإيمان والعزم على العمل البناء، والحزم الجاد الذي يجعل المغرب بلد الأعياد الوطنية والذكريات المجيدة وبلد التحديات والمعجزات، في ظل عاهلها المفدى أمير المومنين جلالة الحسن الثاني أدام الله له النصر والتمكين.

دعوة الحق

الكلمة السامية لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله

في الجلسة الختامية لاجتماع لجنة القدس

في دورتها الثالثة عشرة بالقصر الملكي العامر بالرباط

ترأس صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، عشية يوم الإثنين 24 ربيع الأول 1411هـ موافق 15 أكتوبر 1990م، بالقصر الملكي العامر بالرباط، الجلسة الختامية للدورة الثالثة عشرة للجنة القدس.

وألقى حفظه الله ـ خلال هذه الجلسة ـ كلمة سامية، هذا نصها :

الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

سيادة الرئيس الأخ أبو عمار

صاحب السمو الملكي

أصحاب السعادة الوزراء والمعالي السفراء

إن كلمتي سوف تكون وجيزة، ذلك لأنه كلما عظم الحدث إلا والإطناب والحشو يكونان عدوا لأهمية ذلك الحدث.

لقد ارتأيت بعد نداء الأخ السيد ياسر عرفات، والاستشارة معكم أعضاء لجنة القدس، أن نجتمع في هذه الفترة الحيوية الدقيقة بالنسبة للعالم الإسلامي والعالم العربي. أقول: العالم الإسلامي، لأن القدس هي ثالث الحرمين، بحيث تهم كل مسلم مسلم، والعالم العربي، لأن القدس موجودة على أرض عربية، وفي وطن عربي.

وهكذا ولله، الحمد رأينا أنه رغم ما يجري، ورغم الجفاء ورغم سوء التفاهم، ورغم الخصومات التي تكون شيئا ضروريا بين أعضاء كل أسرة سياسية كانت أو دينية أو سلالية، فإنه حينما يحتدم الصراع، وحينما يدق نفير الجهاد للدفاع عن كرامة المسلمين على أرض عربية، يترك الكل منا حزازاته، وينسى حساسياته، ويهب ملبيا نداء الضمير، ونداء الشرف.

إن قضية القدس أصبحت اليوم غنية عن التعريف، بل أصبحت اليوم تشكل ـ وذلك من بركات ذلك المسجد المعظم المكرم ـ منعطفا في تاريخ هيئة الأمم المتحدة، وفي تاريخ القضية العربية الأولى، وذلك أن هذه الإدانة التي تعرضت لها إسرائيل، تكتسي في نظري أهمية قصوى لسببين:

السبب الأول : هو أن الإدانة جاءت بالإجماع.

والسبب الثاني : هو أن هذا الإجماع لم يأت عبثا ولا جزافا. بالطبع، لقد تأخر هذا الإجماع، ولكن وقوعه في هذه الظروف وفي هذا الزمان، وما يحيط بهذا الزمان من أحداث وتغيرات في الشرق وفي الغرب، وفي الإيديولوجيات، وفي الأحلاف، منها ما خلق ومنها ما مات، وفي ظل هذا التطور العالمي، وفي هذا المخاض العالمي الذي ننتظر منه مولودا مباركا لتآخي البشر، ولتآخي بني الإنسان، وللرفاهية والسلم لجميع الشعوب، ولإحقاق الحق وإبطال الباطل، أن يقع هذا الإجماع في هذا الظرف نفسه،

شيء يغنينا عن جميع التحليلات، ويوجب علينا الحمد والشكر لله.

وفضلا عن ذلك، فإن هذا الإجماع في الإدانة، يكون سابقة مهمة جدا في هذه القضية وفي هذا الملف.

فعلينا إذن إخواني الأعزاء، أعضاء لجنة القدس، أن نتحرك نحن بحكمة وأناة، وأن نفتح للأمل المعقول والمتعقل أذهاننا، وقلوبنا، وأن نسير على بركة الله، معتمدين على أنفسنا، ومعتمدين قبل كل شيء على إخواننا الذين يسقطون يوميا ضحايا وشهداء، داعين لهم ـ مع أنهم ليسوا في حاجة إلى دعائنا ـ بالجنة والرضوان، والقرب من النبي ﷺ، محتضنين بين ذراعينا، وعلى قلبنا، أطفال الحجارة، أولئك الذين كتبوا سجلا وصفحة من أروع سجلات وصفحات التاريخ العربي والإسلامي، ولم يبق لنا الآن، إلا أن نسير في عملنا، وندعو من الله سبحانه وتعالى التوفيق، بآيته في الذكر الحكيم.

﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشدا﴾.

صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

البيان الختامي والتوصيات

الصادرة عن اجتماع لجنة القدس في دورتها الثالثة عشرة بالرباط

عشية يوم الإثنين 24 ربيع الأول 1411هـ

موافق 15 أكتوبر 1990م

على إثر المذبحة الرهيبة التي أقدمت سلطات الاحتلال الإسرائيلي على اقترافها، والتي راح ضحيتها عشرات الشهداء ومئات الجرحى من أبناء الشعب الفلسطيني الأعزل، في ساحة المسجد الأقصى المبارك والمنطقة المحيطة به، في القدس الشريف، يوم الإثنين 17 من ربيع الأول 1411هـ الموافق 8 أكتوبر 1990م.

عقدت لجنة القدس التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، دورتها الثالثة عشرة بالرباط، عاصمة المملكة المغربية، يوم 24 من شهر ربيع الأول 1411هـ الموافق 15 أكتوبر 1990م، تلبية لدعوة كريمة، وجهها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ملك المملكة المغربية، ورئيس لجنة القدس، لدراسة الوضع الخطير الناجم عن تلك المذبحة، وللتشاور في كيفية التصدي للجرائم الإسرائيلية، وللنظر في السوائل والسبل الكفيلة بتوفير الحماية اللازمة لأبناء الشعب الفلسطيني، وللأماكن المقدسة في القدس الشريف.

وحضر اجتماع اللجنة، المجاهد السيد ياسر عرفات رئيس دولة فلسطين، رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ومعالي الدكتور حامد الغابد، الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي، ووفود الدول الأعضاء في اللجنة.

وقد استهل صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أعمال اللجنة بخطاب شامل، ثم تحدث فخامة السيد ياسر عرفات رئيس دولة فلسطين رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية إلى اللجنة.

وألقى معالي الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي الدكتور حامد الغابد، كلمة أمام اللجنة.

وبحثت اللجنة بعد ذلك، الوضع الخطير الناجم عن تلك المذبحة المروعة، وسجلت أن إسرائيل ترمي من وراء هذه المذبحة الجديدة، إلى الاستمرار في تنفيذ مخططاتها الإستيطانية، وهدم المسجد الأقصى، تنفيذا لنيتها المبيتة بتهويد المدينة المقدسة.

وترى اللجنة، أن الحكومة الإسرائيلية ما كانت لتمضي قدما في سياستها القمعية والإرهابية المتطرفة، لولا الدعم الذي تتلقاه من بعض الدول.

ولذا فإن مجلس الأمن، مدعو إلى الاستمرار في التعامل مع القضايا الدولية بمعيار واحد، يرتكز على الشرعية الدولية، ويتمشى مع ميثاق الأمم المتحدة، ويعزز المصداقية والفعالية التي بدأت تكتسيها الأمم المتحدة مؤخرا، في عهد الانفراج والتعاون الدولي.

ولجنة القدس، إذ تتابع بانشغال كبير تطورات الأوضاع المأساوية في الأراضي المحتلة، بما فيها القدس الشريف، فإنها:

أولا : تدين إسرائيل للمذبحة التي اقترفتها ضد الشعب الفلسطيني الأعزل، في حرم القدس الشريف، يوم الإثنين 17 ربيع الأول 1411هـ الموافق 8 أكتوبر 1990م، مستهترة بقدسية هذه الأماكن، وبمشاعر ما يزيد على مليار مسلم في العالم.

ثانيا : تدين إسرائيل لاستمرارها في ممارساتها العنصرية والوحشية ضد الشعب الفلسطيني الأعزل، وفي تنفيذ مخططها الاستيطاني في القدس، وفي سائر الأراضي الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك إقامة مستوطنات جديدة لإسكان اليهود السوفييت المهاجرين إلى إسرائيل.

ثالثا : تتوجه بالتحية والتقدير إلى الشعب الفلسطيني المجاهد، لاستمراره في التضحية، دفاعا عن أرضه ومقدساته. وتدعو الدول الإسلامية إلى المزيد من مساندة نضال الشعب الفلسطيني، ودعم انتفاضته المباركة، تعزيزا لقدرته على الصمود، ومقاومة الاحتلال، وحماية المقدسات الإسلامية.

رابعا : تعرب عن تقديرها الفائق لكل الدول التي أدانت المذبحة التي اقترفتها إسرائيل في الحرم الشريف، كما تنوه بموقف قداسة البابا لإدانته تلك المذبحة، واستنكاره لوضعية الحيف والظلم المأساوية التي تعيشها مدينة القدس، التي تحظى بإجلال أتباع الديانات السماوية الثلاث.

خامسا : تؤكد أن القدس جزء لا يتجزأ من الأراضي الفلسطينية المحتلة، وأنها عاصمة دولة فلسطين. وتذكر بقرارات مجلس الأمن، وعلى الخصوص، القرارات : 476 و478 (1980) اللذان يؤكدان أن القانون الأساسي لإسرائيل الذي يعتبر القدس عاصمة موحدة لإسرائيل، باطل ولاغ، وأن كل التدابير والإجراءات التشريعية والإدارية التي غيرت أو ترمي إلى تغيير هوية مدينة القدس الشريف ووضعها القانوني، هي إجراءات لاغية وباطلة، ويجب العمل على إنهائها فورا.

سادسا : تؤكد أن اتفاقية جنيف الرابعة المتعلقة بحماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب المؤرخة في 12 غشت 1949م، تسري على الأراضي العربية التي تحتلها إسرائيل منذ 1967، بما في ذلك القدس.

سابعا : تناشد المجتمع الدولي مساندة الشعب الفلسطيني من أجل استعادة حقوقه الوطنية الثابتة، بما فيها حقه في العودة إلى وطنه، وحقه في تقرير مصيره، وفي إقامة دولته المستقلة على أرضه وعاصمتها القدس، بقيادة ممثله الشرعي الوحيد: منظمة التحرير الفلسطينية.

ثامنا : تدين بقوة تحدي إسرائيل السافر لمجلس الأمن وللمجتمع الدولي، برفضها القرار 672 الذي اتخذه المجلس بالإجماع يوم 12 أكتوبر 1990م، والقاضي بإيفاد لجنة من طرف الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة، لاستقصاء الأوضاع في القدس الشريف، على إثر مذبحة 8 أكتوبر 1990م. وتدعو مجلس الأمن إلى فرض عقوبات على إسرائيل، طبقا لمقتضيات الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة.

تاسعا : تدعو الدول الإسلامية إلى بذل الجهود، لحث مجلس الأمن على اتخاذ التدابير الكفيلة بإيقاف الممارسات الإسرائيلية، وبتوفير الحماية الضرورية للشعب الفلسطيني، والأماكن المقدسة في القدس الشريف، وباقي الأراضي المحتلة، بما في ذلك إرسال مراقبين دوليين.

عاشرا : تدعو الدول الأعضاء في مجلس الأمن إلى التعجيل باتخاذ الإجراءات العملية لعقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط برعاية الأمم المتحدة، تشارك فيه كل أطراف النزاع العربي الإسرائيلي، بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية، والدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن.

حادي عاشر: تؤكد أن السلام لن يستتب في منطقة الشرق الأوسط، ما لم يتم انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة بما فيها القدس الشريف، وحل قضية فلسطين، باعتبارها القضية المركزية في الصراع العربي الإسرائيلي، وذلك في إطار تسوية شاملة وعادلة ودائمة، تضمن الأمن والسلام لجميع دول المنطقة، بما فيها الدولة الفلسطينية المستقلة.

ثاني عشر : تلتمس من رئيسها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، التفضل بالاتصال بالدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن، وبقداسة البابا، قصد توفير الدعم الدولي اللازم لوضع حد للممارسات الإسرائيلية، ولدفع عملية السلام في منطقة الشرق الأوسط.

ثالث عشر : تكلف الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي بالاتصال بمنظمة اليونيسكو للعمل على تنفيذ قراراتها المتعلقة بالحفاظ على التراث الإسلامي في القدس.

رابع عشر : تؤكد أهمية العمل على عقد لقاء إسلامي مسيحي، بمشاركة الفاتيكان، والكنائس الشرقية، وغيرها من الكنائس الأخرى، من أجل الحفاظ على هوية المدينة المقدسة، وطابعها الديني والتاريخي، ووضعها الديمغرافي.

وقد أعربت اللجنة في ختام أعمالها، عن بالغ تقديرها وعظيم امتنانها، لرئيسها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، على ما يقوم به جلالته من عمل دؤوب من أجل تحرير القدس الشريف وباقي الأراضي العربية المحتلة، وما يبذله من جهود متواصلة على الصعيد الدولي، من أجل توفير الدعم والمساندة لكفاح الشعب الفلسطيني وصموده. كما أعرب أعضاء اللجنة عن شكرهم وتقديرهم للمغرب، ملكا وحكومة وشعبا، على ما أحيطت به الوفود المشاركة، من جميل الرعاية، وكريم الضيافة.

أبحاث

و

دراسات

و

قصائد

توثيق حديث

"السلطان ظل الله في الأرض"

لفضيلة الأستاذ محمد الأزرق
من كبار علماء القرويين

من المعلوم انه ورد بالجامع الصغير سبعة أحاديث. ستة منها مصدرة بـ«السلطان ظل الله في الأرض» الحديث... وفي أحدها «ظل الرحمان» وهي كلها موحدة المضمون والهدف، وإن اختلفت ألفاظها، وتفاوتت زيادة ونقصا.

والمَعْنِيُّ هنا، هو حديث أبي هريرة الذي ذكره في الجامع الصغير برواية ابن النجار عن شيخه عبد الله ابن المبارك البغدادي، رامزا له بالحسن.

والكلام على هذا الحديث، ينبغي التعرض له بالنظر لوصفه بالحسن متنا وسندا. ويؤخر السند لطول الكلام فيه. ذلك أنه بعدما رمز له بالحسن، قيده شارحه العزيزي بأنه حسن لغيره، وكذلك الزرقاني في المقاصد الحسنة. أما الشارح المناوي فإنه لم يتعقب رمزه بذلك.

فبالنظر للمتن، فإن ممن تعرض له المفسر المحدث العجلوني - ت 1162 - في كشف الخفاء[1] معلقا بقوله : رواه ابن النجار عن أبي هريرة، ورواه البيهقي والحاكم عن ابن عمر رفعه بلفظ «.... يأوي اليه كل مظلوم.... إلى أذيل العدو». وقد ورد الحديث بألفاظ أخر. منها ما رواه ابن أبي شيبة عن أبي بكر الصديق باللفظ المتقدم، وهو «السلطان العادل المتواضع ظل الله ورمحه في الأرض» الحديث. ثم زاد قائلا : قال النجم : وجمع السيوطي في ذلك جزءا، وأقول : وكذلك السخاوي جمعها في جزء وسماه : رفع الشكوك في مفاخر الملوك.

وبالنظر للسَّنَد، فقد نقل الأستاذ عبد العزيز ابن الصديق ما قاله الحافظ ابن النجار - 643 - في شيخه المذكور عند ما ترجم له بذيل تاريخ بغداد -

---

1) ج : 456/1 - ط : دار إحياء التراث العربي - بيروت.

105/2 ـ 106 ـ من أنه ذكر ما يدل على جرح شيخه وأنه غير ثقة، واشتغل بما لا يليق بأهل الدين. قال : وكان سيء الطريقة في شهادته، يشهد بالزور بحطام يسير يتناوله، ولم يكن محمود الطريقة في الحديث ولا مامونا. ثم يقول الأستاذ ابن الصديق من عنده : وهذا جرح قادح لا يجوز لمن قيل فيه رواية حديثه كما هو معلوم، ثم استدل بما نقل ابن حجر في لسان الميزان ـ 111/4 ـ من كلام ابن النجار هذا في شيخه المذكور، ولم يتعقبه، مما يدل على أن الرجل لا تحل الرواية عنه ولا العمل بحديثه، ثم يزيد قائلا من عنده : ولا أستبعد أن يكون الحديث من وضعه وصنعه وعمل يده، وضعه ليتقرب به إلى حاكم وقته لنيل غرضه المادي، كما يدل على ذلك ما ذكره ابن النجار من أحواله كدفعه المال لينال وظيفة الشهادة عند قاضي القضاة، وشهادته بالزور بحطام يسير يتناوله، وحديثه هذا فيه نفس التزلف لأجل الدنيا. (انتهى).

ويقال عليه تمهيدا : إن مما تقتضيه الأمانة العلمية ـ ولا سيما عند تمحيص رواية الحديث سندا ومتنا ـ ألا يتسرع الباحث في طريق بحثه عن درجة الحديث للتعرف على صحته أو حسنه أو ضعفه، أو أنه خارج عن نطاقه بالمرة، حيث يثبت وصفه بما تقتضيه معايير النقد الحديثي، ومسايرة قواعد اصطلاحه التي قعدها أيمة الحديث وأعلام السنة في سائر أطوارها، مستفرغين وسعهم في تنقيتها مما وضعه الوضاعون ونسبوه إليها وهي منه براء، وكذبوا على النبي ﷺ وافتروا عليه متعمدين ذلك، وإن تبوءوا بذلك مقعدهم من النار. كما ورد في صحيح السنة. وذلك بدافع أحد الأسباب المعلومة.

وسلوكا مع هذه الجادة يقال : إن نص لسان الميزان الحافظ ابن حجر ـ 852 ـ وهي من الزوائد على [illegible]، هو ما ياتي :

عبد الله بن المبارك بن إبراهيم بن المختار بن السّيبيّ سَمِعَ ابن السّقطي ومن بعده. قال ابن النجار : وطلب واجتهد مع قلة فهم، ثم ترك ذلك وزهد فيه وباع أصوله، ثم سمع ورجع إلى سماع الحديث في علو سنه، وبذل ما له حتى قبل ابن الدامغاني عبد الله بن الحسين القاضي شهادته. وكان سيء الطريقة في الحديث. توفي سنة ـ 619.

فها هو الحافظ يتجنب في اللسان ما قذف به ابن النجار شيخه من شهادة الزور، وما تحامل به عليه من كونه غير ثقة ولا مامون. وذلك بعد قرنين. مما يشعر بأن عدم تعقيبه كان لتوقفه في هذا الشيخ المختلف فيه لا لتسليمه كما سيتضح بعد الإمعان فيما قيل فيه.

ومنه ما قال فيه الحافظ المنذري، وناهيك به، فهو الذي ممّا قال فيه تلميذه الشريف عز الدين الحافظ : عديم النظير في علم الحديث على اختلاف فنونه، وقد كان معاصرا للجارح والمجروح حيث توفي سنة ـ 656 ـ نقول : قد قال فيه هذا الحافظ في كتاب التكملة له ـ المجلد 3، م 5، ص 80 ـ الشيخ الأجل أبو القاسم عبد الله بن الشيخ أبي محمد المبارك بن إبراهيم ابن مختار بن تغلب البغدادي الأزجي الدقاق العدل المعروف بابن السّيبيّ. توفي ببغداد ودفن من الغد بباب حرب.

سمع من أبي الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد وعبد الله بن منصور ابن الموصلي إلخ. وسمع الكثير في صباه وبنفسه وقرأ على الشيوخ وكتب بخطه وحدث، ولنا ـ يقول الحافظ المنذري ـ إجازة كتب بها إلينا من بغداد.

فإذا قارنا بين ما قاله فيه هذا الحافظ ـ وهو العالم بصحيح الحديث وسقيمه، ومعلوله وطرقه، وبين ما قاله ابن النجار، تبين لنا تحامله عليه وتهجمه. وقد تأكد ذلك بعد البحث فيما تيسر من كتب التراجم، حيث ألفي أن ابن النجار انفرد بما بالغ به في تجريح شيخه إلى حد قدفه بشهادة الزور، والاشتغال بما لا يليق بأهل الدين. الأمر الذي يعتبر معه هذا الشيخ مختلفا فيه. كما سياتي مزيد بيان له. وهذا ما ننصف به الشيخ، ما دمنا لم نقف في غير ذيله على ما بالغ به في جانبه، مما يجعله غير مقبول الرواية.

ومما قيل في هذا الشيخ، ما ذكره ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ 551/2 ـ عند تعليقه على حديث «اتقوا الله في الصلاة وما ملكت أيمانكم» وتعرضه لرجال سنده، ومن بينهم عبيد الله بن المبارك المَغْنِيُّ. وذلك برواية عمر بن حفص السدوسي عنه بطريق التحديث، من أن سائر رواته ثقات الخ.

فالمستخلص مما تقدم، أن المطعون فيه من قبل ابن النجار، وهو مختلف فيه، حيث أن البعض ضعفه والبعض وثقه. وعليه فإنه بمقتضى ذلك يعتبر مضعفا لا ضعيفا، فضلا عن كونه واضحا للحديث.

ولا يقال : إن التجريح يرجح على التعديل عند التعارض مرعاة للاحتياط، لأن هذا وإن كان مقررا في الاصطلاح، إلا أنه ليس على إطلاقه، بل مقيد بما ياتي :

1) عدم رواية الحديث من طريق غير الطريق الذي وجد فيه المضعف، وإلا فالطرق يقوي بعضها بعضا، وحديث أبي هريرة المعنيّ هو من هذا القبيل.

2) إن الجرح إذا كان بما هو فظيع، فلابد فيه من الإثبات، والأستاذ ابن الصديق مما ركز عليه نقلا عن الحافظ ابن النجار، أن شيخه بذل مالا لنيل موافقة القاضي الدامغاني على تلقيه الشهادة، بل كان يرتكب ما هو أفظع من ذلك، حيث كان يشهد الزور بقليل من المال. وهذه تهمة عظيمة لا يكفي فيها مجرد الادعاء، بل تحتاج إلى إثبات، وإلا فيمكن أن تكون إشاعة قام بترويجها من بينه وبين الشيخ المذكور عداوة، إذ لو لم يكن لهذا الاحتمال وجود، لما اختلفوا فيه ولاتفقوا على تجريحه، ولم يبق محل لتعديل من عدله. ومعلوم ما يحدثه عامل المعاصرة في مجال التعديل والتجريح حتى قيل عنها : المعاصرة حجاب، وما يسببه دافع التعصب والمنافرة في مضارهما.

وكشاهد على هذا، ما نجد أيمة هذا الشأن قد صرحوا به، كما بكتاب الرفع والتكميل للشيخ محمد عبد الحي اللكنوي الهندي ـ ص 200 ـ من أن كلمات المعاصر في حق المعاصر غير مقبولة، وهو

كما أشرنا إليه ـ يقول المؤلف المذكور ـ مقيد بما إذا كانت بغير برهان وحجة، وكانت مبنية على التعصب والمنافرة. فإن لم يكن هذا ولا هذا، فهي مقبولة بلا شبهة هـ.

وكمثال له، طعن الإمام النسائي في أحد الأيمة الأعلام، أحمد بن صالح المصري بأنه غير ثقة، ولا مامون مع أنه الطود الشامخ. وناهيك بمن كان مع جبل السنة أحمد بن حنبل كفرسي رهان. وأحد الأربعة الذين قال فيهم الحافظ ابن وارة : إنهم أركان الدين. كما نقل السبكي بطبقات الشافعية عندما ترجم لأحمد بن صالح المذكور.

ومما ينبغي أن يستدرك على المعترض، أنه لم يهتم بما يهم الباحث في سند الحديث، وهو الطريق الذي روي منه. ذلك أن حديث أبي هريرة الذي رواه ابن النجار عن ابن المبارك المَعْنِي، هو من طريق أبي محمد بن يوسف عن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ـ 264 ـ الذي ألفي ـ أي هذا الأخير ـ بعد البحث في ترجمته أنه تكلم فيه بما يعتبر معه مختلفا فيه كذلك، فقد قال عنه الخزرجي في الخلاصة ـ ص 8 : وثقه محمد بن عبد الله بن الحكم وعبد الملك بن شعيب، وقال ابن يونس : لا تقوم به حجة، والألباني بعدما ذكر فيه كلاما كثيرا، وأن الذهبي أورده، في الضعفاء، وأنه نقل عن ابن عدي قوله فيه : رأيت شيوخ مصر مجمعين على ضعفه، حدث بما لا أصل له.. الخ. ساق قول الحافظ فيه وهو : صدوق تغيّر بآخرة.

ومعلوم من الاصطلاح، أن من تغير تقبل الرواية عنه بالنسبة لما قبل التَّغيّر ولا تقبل بعده. ثم إنه على إصابته بالتغير ـ في نقل الألباني عن الحافظ ابن حجر ـ يحمل قول ابن يونس فيه ـ كما تقدم ـ لا تقوم به حجة.

وعليه فيصطلح عنه ـ على التحقيق ـ بالمضعف لا بالضعيف كما كانت نتيجة البحث عن ابن المبارك.

وانظر، ما السر في كون المعترض اقتصر على ابن المبارك البغدادي، ولم يلتفت لأحمد بن عبد الرحمن بن وهب، الذي روى ابن النجار حديث أبي هريرة عن شيخه من طريق أبي محمد بن يوسف عنه، وإن كانا مجتمعين في اختلاف أيمة النقد فيهما.

وأخيرا، ينجلي لنا شديد اهتمام أيمة الحديث بدرجته، والذي من نتائجه بالنسبة لحديث أبي هريرة أنه ـ بعدما رمز له الجلال السيوطي بالحسن ـ قيده بثاني قسميه، وهو الحسن لمغيره كل من علي بن أحمد العزيزي من علماء الحديث بمصر ـ ت 1070 ـ، وأبي عبد الله محمد بن عبد الباقي الزرقاني المعروف بالتحقيق، وبأنه آخر المحدثين بمصر ـ ت 1122 ـ، كما يتضح لنا اتخاذهم ـ رحمهم الله ـ كامل الحيطة عند نقد الرجال حتى يكون ذلك بروح الإخلاص ودون تسرع ولا مجازفة، فضلا عن الانسياق للهوى، واتخاذ ذلك ذريعة لإشباع نهم نفسي قد يكون أحيانا بدافع الانتقام، وأخرى بوازع التعصب الأعمى.

هدانا الله ـ بمنه وكرمه ـ إلى سواء السبيل، وفتح بصائرنا حتى نعرف الرجال بالحق ولا نعرف الحق بالرجال، ووفقنا ـ جل وعلا ـ جميعا لما يحبه ويرضاه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الرباط ـ محمد الأزرق

الرّبَاط

عَاصِمَة مِعْمَارِيَّة

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

والأغالبة هم أول من أدخل الفن الشرقي إلى إفريقية أيام الفاطميين، وقد وضعوا أسس الفن الجديد في القيروان حيث جددوا مسجد عقبة بن نافع على نمط مساجد دمشق والقاهرة، ثم جاء الخوارج فأقاموا في تاهرت وسجلماسة مآثر عفى عليها الزمان، ثم اتخذ الفن مظاهر جديدة أيام بني زِيرِي في أشير وقلعة بني حماد وبجاية حيث يتبلور التأثير الشرقي في مزيج من الهندسة البربرية العربية. وفي القرن الثاني الهجري بنى المولى إدريس مدينة فاس التي يقول عنها كزيل بأنها آية في الاقتباس من الفن الشرقي.

ولكن عندما جاء المرابطون لم يجدوا في مُتناوَلهم سوى نُتف من بقايا الفن البربري، ولم تكن لهم صلة مباشرة بالشرق وفنونه التي لم يلمسوها إلا عن طريق الأندلس، فاتسمت الهندسة المعمارية بميسم جديد، ثم اتجه الموحدون في هذا الأسلوب الإسباني المغربي. ولعل أول بوتقة انصهرت فيها مع الأيام مظاهر الفن المعماري الشرقي المغربي هي مدينة فاس التي أقامها المولى إدريس عام 192هـ(1) بالموضع المعروف بجراوة. وقد أحاط عُدْوة الأندلس بسور فتح في جوانبه عدة أبواب وجهز المدينة بجامع للخطبة وهو جامع الأشياخ، ثم بنيت عُدْوة القرويين عام 193 بدار القيطون بسورها ومسجدها (مسجد الشرفاء).

وقد اتجه المرابطون خاصة نحو هندسة المساجد التي لم يعد يخلو منها ربض ولا زقاق لاسيما في فاس، كما اهتموا ببناء القلاع على غرار الحصون

(1) راجع الطبعة المطولة لمظاهر الحضارة وكذلك كتابنا تاريخ الفن المغربي للتعرف إلى مختلف الروايات حول تاريخ بناء مدينة فاس.

الأصلية مع الاقتباس في آن واحد من الأندلس. وأول ما تجلى هذا الاقتباس في فاس حيث استقدم يوسف بن تاشفين من قرطبة جملة من صناع طوروا مساجد المدينة وسقاياتها وحماماتها وخاناتها كما استقدم علي بن يوسف المهندسين الأندلسيين لبناء قنطرة تانسيفت.

ثم جاء الموحدون فاستطاعوا ـ بفضل ما أبدعوه من روائع ـ تبوّء المقام السامي في تاريخ الفن الإسلامي، لاسيما في عهد يوسف الذي عاش في اشبيلية حيث زينها بأروع البنايات والمؤسسات العمومية. ثم جاء ولده يعقوب المنصور فكان أبدع بناء في تاريخ المغرب الفني. وقد تجلت هذه البدائع خاصة في اشبيلية والرباط ومراكش ومناراتها خيرالدا وحسان والكتبية. وأصبحت مراكش ببناياتها وقصورها وحدائقها أشبه ببغداد في الشرق، كما أشبهت مدينة فاس دمشق في روائها الفني وطبيعتها الخلابة. وقد ظل للصناع المجلوبين من الأندلس اليد الطولى في عهد الموحدين الذين أنشأوا الفن الأندلسي في جميع ربوع إفريقية حيث تجدد الاتصال بين الفن المغربي والفنين المصري والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس الخضراء.

وقد خلف بنو مرين الموحدين في الربوع الإفريقية فكان للفن المريني مَيْسم خاص إذا قورن بالفن عند بني عبد الْواد في تلمسان والحفْصيين في تونس، في حين واصل بنو نصر في غرناطة تقاليد الفن الأندلسي.

غير أن الطابع العام لم يتغير، وكذلك الاتجاه الفني الذي انصرف عنه بنو الأحمر إلى زخرفة القصور، في حين تجلى عند المرينيين في إقامة المدن المحصنة والمساجد والمدارس.

وقد استعادت فاس دورها كعاصمة، غير أن أبا يوسف المنصور أقام مدينة فاس الجديدة أو مدينة البيضاء بقصرها الملكي ومساكن الضباط ومعسكرات الجند والمرتزقة وأحيط فاس البالي بأسوار جديدة.

ويتجلى نشاط المرينيين المعماري في شعورهم بالحاجة إلى إقامة المدن الجديدة، على أن أبا يوسف صنع المارستانات وبنى المدارس بفاس ومراكش والزوايا في الفلوات، ولم يفُتْه في كل ذلك الزُّخرف الفني الرائق الذي يطبع المؤسسات الجديدة.

وقد لاحظ ابن مرزوق في مسنده «إن إنشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى أنشئت مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس (مدرسة الصفارين) عام 760هـ ثم مدرسة العطارين، ومدرسة المدينة البيضاء ثم مدرسة الصهريج، ثم مدرسة الوادي، ثم مدرسة مصباح... ثم أنشأ أبو الحسن في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة» فقامت عند ذاك مدارس لإيواء الطلبة في تازة ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وآنفا وأزمور وآسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير والعباد (تلمسان) والجزائر. وقد أقام بنو مرين كذلك «من آسفي إلى جزائر بني مزغانة وأول إفريقية محارس ووفاظر إذا ظهرت النيران في أعلاها تتصل المراسلات بينها في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة».

ولعل أروع مثال يبرز البراعة التي بلغها المهندسون والصناع هو ذلك القصر الذي بناه أبو الحسن في ظرف أسبوع، وقد اشتمل على أربع قباب

(2) هسبريس مجلد 6 عام 1926، ص: 169.

مختلفة ودويرتين تتصلان منقوشتي الجدر.

ولكن ما هي ميزات الفن المريني؟ إن الجامع الكبير في تازة وكذلك مسجد أبي يعقوب المريني في وجدة يحتفظان أحيانا بتلك الفخامة التي يتسم بها الفن الموحدي، ولكنهما يضيفان رقة الأشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقربصات والزليجات، ويلاحظ في المدرسة العنانية بفاس تشابه واضح في الهندسة والترخيم مع مدارس الشرق.

وهذه المدرسة هي مدرسة ومسجد في آن واحد، مجهزة بمنارة ومنبر للجمعة وصنجانة ذات ثلاثة عشرة من الطسوس «شعار كل ساعة فيها أن تسقط صنجة في طاس وتتفتح طاقات».

ومن خواص الفن المريني النقش على الخشب والجبس والأدهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات بالزليج.

أما في عهد السعديين الذي بدأ الفن المعماري يتحجر فيه نسبيا فإنه يمتاز (بقصر البديع) الذي وصفه الأفراني بأنه يفوق بغداد روعة وجمالا. ورغم هذا التحجر لا يمكن أن يُعتبر هذا الفن سوى امتداد للفن المغربي الأندلسي مع مميزات جديدة، حيث إن المنصور الذهبي استقدم الصناع والمهندسين من مختلف البلاد وحتى من أوربا. وقد هدم المولى إسماعيل قصر البديع الذي انتشرت نتف من أنقاضه في مختلف المدن.

ومن المآثر السعدية الباقية بعض مساجد مراكش (المواسين والقصبة وباب دكالة) وقبور السعديين الرائعة وجناحات في جامع القرويين.

وقد كفل العلويون امتداد هذه التقاليد الفنية فجهز مولاي رشيد مدينة فاس بالحصون على غرار بني مرين وأقام مدرسة الشراطين، ولكن المولى إسماعيل الذي نشر أول الأمر الحصون والقلاع الجديدة في جميع أنحاء المغرب انصرف بكليته بعد ذلك إلى بناء قصر الرياض بمكناس، وتنسيق حدائقه على نسق قصر فرساي حيث كان ينافس لويس الرابع عشر ملك فرنسا. وقد استعان المولى إسماعيل بالخمسة والعشرين ألف أسير مسيحي على إنجاز مشاريعه الضخمة التي وافاه الأجل دون إتمامها، فأكمل المولى عبد الله أسوار القصبة وباب منصور العنج.

وقد أراد المولى إسماعيل أن تكون مدينة الرياض شبيهة بفرساي والبديع ولكن تمتاز بشوارعها الواسعة وأحيائها المسورة.

واستمرت إقامة القصور على النسق التقليدي كدار المخزن قرب أنقاض قصر البديع بمراكش وكقصر الباهية والقصور الخاصة التي تنتشر هنا وهناك في حواضر المغرب.

أما هندسة المساجد فقد كانت مزيجا من هندسة الدول السالفة.

وتبدو الهندسة المعمارية الموحدية في أجلى وأجل معالمها في مساجد مراكش وحسان (بالرباط) (ومرصد الخيرالدة باشبيلية).

وقد تعرض ميليي في كتابه عن الموحدين (ص128) إلى المنارات الثلاث، فذكر أن قيمتها لا ترتكز على ضخامتها وتوازنها فحسب بل أيضا على فخامة هندامها ونسبها الوافية بمقتضيات الأناقة مع بساطة في الزخرف والنقش وأصالة في الذوق الذي يحدق بها ويحويها، دون مساس بوحدة هذه

المجموعة التي تسري في معالمها آثار السلطان المؤسس لها محي الملة والدين وحامي التقاليد، بل مدعم الإسلام في ربوع المغرب.

وفي أيام الموحدين أصبح العمل جاريا بإقامة الأسوار لحماية المراكز الكبرى، ونحن لا نساند ما زعمه الأستاذ جورج مارسي(3) من أن الموحدين اختاروا منهجا مغايرا لأسلوب سلفهم في هذا النوع من البناء والتعمير، فإذا كان بنو عبد المومن قد هدموا أسوار بعض كبريات الحواضر المغربية كفاس وسبتة وسلا(4) فإن هذا الأمر لا يعدو - في نظري - مجرد وسيلة حربية استغلها المرابطون أنفسهم - كما رأينا - بهدم أسوار مدينة فاس، على أن هذه الأسوار أعيد بناؤها بمجرد قضاء الدولة الجديدة على أعشاش المقاومة التي لجأ إليها خصومها، وقد اضطر عبد المومن نفسه إلى تجديد بناء ما هدم، فالأستاذ جورج مارسي الذي أغفل هذا العنصر الهام في الستراتيجية الحربية عند المرابطين، وكذلك الموحدين يظن أن هؤلاء رجعوا إلى أسلوب سلفهم.

وقد بنى الموحدون مدينتين اثنتين هما تازة والرباط على يد المنصور الذي اهتم خاصة بالقلاع والحصون. والمنصور الموحدي أساء اختيار موقع مدينة الرباط حسب بعض المؤرخين الذين يزعمون أنه ندم على ذلك، إلا أن هذا الزعم لم يتأكد، وقد عقب مارسي على ذلك ملاحظا أن بناء رباط الفتح بما فيه من باب الرواح وباب القصبة الرائعة يعتبر إنتاجا قيما نادر المثال لا مجال للشك في جدواه، وقد سبق، لأن تاشفين قد أقام أول رباط للجهاد في هذا الموقع. وقد تجاوز طول أسوار مدينة المنصور خمسة كيلومترات، وعدد أبراجها 74، واندرست أعلام ما كان يسمى بقصر عبد المومن في الحروب التي نشبت بين الموحدين وبني مرين.(5)

وقد اقتبس بنو عبد المومن من الأساليب الأندلسية لا سيما بناء السواقي وجلب المياه فقد أسست قنوات نقلت مياه عين غبولة إلى سلا ورباط الفتح(6) حيث وضعت أنابيب ثانوية لا يصال الماء إلى الجامع الكبير والزاوية التجانية بعد ذلك، ومتابعة تبليط هذه القناة لا تقل عن قوة الأسوار الموحدية بالرباط(7) وهنالك قنوات أخرى ترجع لهذا العصر في مراكش وفاس وباقي مدن المغرب.

وقد عجلت المجموعات الفنية الموحدية بمراكش واشبيلية والرباط بانبثاق الأساليب الكلاسيكية للفن الإسباني المغربي، بحيث لن يتأتى بعد ذلك للفنان الأندلسي أن يتصور أو يحقق عملا يمتاز بمثل هذه السعة والفخامة. وقد تبلورت في هذا العصر في مجموع أنحاء المملكة حضارة يانعة مؤتلقة المعالم، انعكست أشعتها الخلابة على الحياة المدنية وحتى في بعض مظاهر حياة البادية، فاجتمعت في الهندسة المعمارية رغبة في ضمان جودة الكيف مع حاسة العظمة، واستعملت أساليب آلية مقتبسة من علم

(3) الهندسة المعمارية الإسلامية ص: 220.

(4) الاستقصا للناصري طبعة القاهرة ج. 2 ص: 11. وزهرة الآس ص: 78.

(5) بنيت أسوار بادس والحسيمة ومليلية عام 601 وعلى يد يعيش عامل الناصر الموحدي (الدخيرة السنية ص: 33).

(6) راجع التاريخ الصغير للرباط للأستاذ كايي.

(7) القرطاس - طبعة سلا: ص: 146. وكتابا حول القنطرة الموحدية لنقل الماء بالرباط، هنري باسي. المجلة الإفريقية.

الحيل لإنجاز التصميمات الهندسية(8). وقد لاحظ الأستاذ أندري جوليان أن الحضارة الأندلسية اتسمت إذ ذاك بطابع رائع، صادف ازدهار النظام الذي حققه الموحدون، وبذلك أخذ كل واحد حظه من الإشعاع الحضاري، وامتد ذلك طوال القرون التالية حيث تغلغلت مدنية حق كثمرة للمبادئ وثقافة فكرية أخاذة في أعماق الجبال المغربية(9). وقد أكد الأستاذ روبير مونطاني هذه الانطباعة عندما وصف المعالم التي تشهد بمدى إسهام الانتصارات الموحدية في نشر الحضارة بالنواحي الأطلنتية التي لم يسبق للعناصر الأجنبية أن تسربت إلى حواجزها المنيعة.(10)

وقد استنتج الأستاذ ميلي أن ملوك بني عبد المومن لم يكونوا مجردين عن أحقية اعتلاء الأرائك التي خَلَّفهم فيها في الصعيد العالمي ملوك غربيون أمثال فريد ريك الثاني، وسان لوي فرديناند.(11)

قصبة الأوداية

ولنضرب مثالا حيا بقصبة الأوداية برباط الفتح. فهذه القصبة الموحدية محاطة بسور، سواء على طول نهر أبي رقراق أم تجاه البحر ونحو السهل البري، ولم يعد هنالك من جهة الوادي سوى قطعة جدار قرب ما يسمى بصقالة طولها نيف وثلاثون مترا، وارتفاعها نحو ثمانية أمتار، وبجانبها ما يُدْعَى بمستودع مولاي اليزيد (أي العلوي نجل السلطان محمد بن عبد الله). والكل مقام فوق الصخر بحجر غير منحوت، وهنالك بقايا أسوار أكثر أهمية تقع بين مقهى الأوداية والبناية الدائرية المسماة المدورة التي تغمرها مياه الوادي عند المد، أما من ناحية البحر والبر فإن السور الممتد مازال قائما، ويبلغ معدل عرض هذه الأسوار مترين اثنين ونصف متر بينما يصل على مقربة من برج سوق الغزل إلى أزيد من ثلاثة أمتار قد طلي ظاهرها بدهن سميك، وكان الحرس مبثوثا فوق نهج سوي قد مد على هذه الأسوار يذهب ويجيئ لحفر الجوانب المشرفة على المدينة والبحر في معزل عن الأنظار، بفضل حاجز منيع قد فتحت فيه ثغرات تنفذ منها البندقيات. وليست كل هذه الأجزاء من صنع الموحدين لأن بعضها قد تجدد بناؤه منذ نحو القرنين بفضل ما أولاه الملوك العلويون من عناية فائقة لهذه التحصينات. أما الأبراج التي تعلو الأسوار فبعضها مازال ماثلا للعيان في روعته المهولة مصوبا ثغراته نحو المحيط أو اتجه المدينة.

ويظهر في خصوص مادة البناء في سور قصبة الرباط أنها وسط بين النهج المعماري المرابطي وبين المعطيات الموحدية التي برز فيها مزيج من الملاط المقوى بالرمل والماء، فالأسوار التي يرجع تاريخها إلى عهد يوسف بن تاشفين وخلفائه قد بنيت - كالقسم المشرف على سوق الغزل - من الحجارة غير

---

(8) ذلك ما حكاه صاحب زهرة الآس ص: 69 من أن خصة من المرمر الأبيض وزنها 143 قنطارا نقلها أبو الحسن من المرية إلى العرائش ثم إلى فاس على ظهر عربات خشبية.

(9) المغرب المجهول - موليراس ج.ام 28.

(10) البرابرة والمخزن ص: 77.

(11) الموحدون ص: 159.

المنحوتة والآجر أو من الحجارتين المبسوطة وغير المنحوتة، وقد استخدم الموحدون غالبا الحجارة وحدها دون تحميل أنفسهم عناء نحتها كما هو الحال في أبراج موحدية أخرى غلب عليها الطابع القرطبي، وقد تأثروا هنا ببدائية سلفهم اللمتونيين، ومع ذلك فإن القصبة لم تكن تخلو من روعة وجلال.

وينفذ الزائر إلى قصبة الأوداية من ثلاثة أبواب أكبرها الباب الأثري المؤدي إلى سوق الغزل، والثاني هو الباب الواقع بين الباب الأول وبين البرج، ويظهر أنه حديث العهد يرجع تاريخه إلى العصر العلوي، بينما يقوم الباب الثالث العتيق قبالة الجهة الشمالية الشرقية للمتحف. أما الباب الكبير فإنه في منتهى الروعة يبلغ طوله 38,60م وعرضه 16م، ويتراوح علوه بين 12 و 13م وتحتوي طبقته الأرضية على ثلاث قاعات متداخلة وعلى طبقة أولى تحوي خمسة ممرات فوقها سطح يطل على مجموع القصبة، وتبلغ مساحة القاعة الأولى نيفا وسبعة أمتار، في مثلها تعلوها قبة سامقة مع حنايا جانبية، تليها قاعة ثانية في نفس الأحجام مقببة ومحلاة بمناجد شبيهة بالجواهر المنظومة. أما الغرفة الثالثة فإنها أعرض، ويزدان الوجه الباطني للباب بعضادات أو أعمدة مربعة تحمل مساند ناتئة تعرف اليوم بطاولات الجدار، ولا تزال المنعرجة بتخطيطات أبواب السور الموحدي لرباط الفتح، إلا أن ترتيب الغرف يختلف فيهما. وقد لا يبدو جليا العامل الداعي إلى تحلية غرف ذات هدف يتسم ظاهرها بطابع عسكري، إلا أن هنالك عناصر تدل على أن السمة العسكرية لم تكن هي البارزة في هذا التصميم لأن ضخامة مصراعي الباب مثلا لم تكن لتعين على الصمود أمام ضربات الأكباش (وهي آلات حربية تتألف من عمود خشبي أو من حديد تدك بها الأسوار والأبواب)، كما أن الممرات العلوية لم تكن تشكل غرفا حصينة للدفاع ولا توجد أية فائدة عسكرية في وفرة القاعات.

وهكذا يمكن القول - مع كايبي - بأن باب قصبة الأوداية ليست في مجموعها جهازا قويا للحماية والاستحصان بل هي لا تعدو كونها مدخلا عاديا لقصر من القصور تحيط به أسوار، زيادة في الدعم، ويرابط الجند في إحدى القاعات بينما يتخذ الخليفة من الغرفتين الأخريين قاعتين لاستقبال رعاياه أثناء مقامه على ضفاف أبي رقراق.(12)

ويلاحظ أن انعدام الملاط المقوى قد يثير الدهشة بالنسبة للعصر الموحدي الذي امتازت فيه الهندسة العسكرية بالاستعاضة عن الحجارة بهذا الملاط، لاسيما وأن الأبواب الأخرى لمدينة الرباط تغايرها تماما من حيث مادة البناء.

وقد قيل من جهة أخرى بأن وفرة القباب في إفريقيا الشمالية ترجع لقلة الأخشاب الفنية الرقيقة، وقد فند كايبي هذا الرأي خاصة باعتبار عصر الموحدين. ويظهر أن اللجوء إلى القباب يهدف إلى تفادي هلهلة الأقواس المعروضة المستطيلة. وقد أظهر النحاتون براعة في نقش بابي القصبة وهو نحت ثري منوع في صلب الحجر على مستويات عديدة تتخلله خطوط هندسية تحدد مختلف

الأقسام، وتحيط كتابات الخط الكوفي بالمشتبكات وبأفاريز الزخرف السعفي إلا أنها غير واضحة، ويعلو الجميع إفريز من الحنايا المرضومة (أي المدودة)، وتقضي التقاليد بأن يكون الوجه الباطني للأبواب أقل تنسيقا من الوجه الخارجي، إلا أن باب قصبة الأوداية تشذ عن هذه القاعدة فتبرز فيها كل العناصر الفنية التقليدية من خطوط هندسية وحنايا متفتحة وأفاريز وأشرطة كتابية وأقواس مقصصة (أي ذات قويسات طبقا للفن الأندلسي المغربي) وأقواس حدوية (أي شبيهة بحدوة الفرس أو نعله). وتتجلى التخطيطات الكوفية في أروع مظاهرها وهي أجمل أنواع الخطوط وأوفقها للنقوش المعمارية، ولذلك كانت تشكل أحد المجالي البارزة في الفن الأندلسي، أما الرسوم النورية أو الزهرية فإنها تشغل أيضا في هذه النقوش حيزا واسعا كما يوجد رسم في شكل حية قائمة على ذنبها، انطلاقا من الأقواس المفصعة في الوجهين معا. ويتوافر هذا النوع من الرسم في الأبواب الموحدية الكبرى كباب كَنَاوة (مراكش) وباب الرواح (الرباط)، وستحل بها أبواب شالة في العهد المريني.

والملاحظ أيضا أن الرسوم اللهفية أي التي تتخذ أشكال سعف النخل) تعتبر من العناصر الكلاسيكية في الترخيمات الموحدية وهي موجودة في جميع الأبواب المومنية، إلا أنها أبرز وأوسع في باب القصبة، خاصة في الوجه الخارجي للباب، وهي من المقتبسات الراجعة إلى الفن القوطي قبل الإسلام.

وبالرغم عن ثراء النقوش من حيث الأشكال والتقاسيم فإنها تظل واضحة المظهر حفيفة المس دون أي غلو ولا تشعيب، بخلاف ما سيمتاز به الفن في عهد بني مرين من تكثف ووفرة. وهناك تناسب بين الترخيم في مختلف أجزاء الهيكل العام يتسم بالقوة والرشاقة معا بحيث لم يتخلف الموحدون في ذلك عن تقاليد الفن الإسلامي شرقا وغربا.

ومسجد القصبة أقدم جامع في مدينة رباط الفتح، وهو يقوم في قمة القصبة وينحرف محرابه نحو الشمال على نظرية الموحدين في فهم الحديث الشريف «ما بين المشرق والمغرب قبلة»(13). وقد طبق بنو عبد المومن فكرتهم هذه فيه، لأنه ثالث مسجد موحدي بعد جامعي تازا والكتبية، وقد ظل إلى أوائل القرن العشرين مهبط الملوك يؤدون فيه صلاة الجمعة كلما امتد مقامهم بالرباط وهو من بناء عبد المومن بن علي(14). وقد أدخلت عليه تعديلات، خاصة في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله(15) الذي جدد بناءه على يد أحد الاعلاج السلمانيين(16) أحمد الأنجليزي. ويحتوي المسجد على سبعة صحون مع صحن حرد (أي بعضه أطول من بعض وغير متلاو في الطول)، تحيط به أبهاء في جهاته الأربع، وتنبري المنارة على بضعة أمتار جنوبي شرق جدار القبلة

(13) نظرية لا تتفق وموقع المغرب من الوجهة الجغرافية لأنها خاصة بالمدينة المنورة ولذلك قابلها الكثير من علماء المغرب بأن القبلة بالنسبة إلينا هي ما بين الشمال والجنوب.

(14) محمد بوجندار في كتابه حول تاريخ القصبة (مخطوط المكتبة العامة بالرباط عدد 1047).

(15) تاريخ محمد الضعيف (مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط عدد 660.

(16) هكذا يسمي صاحب العقد الفريد (ج. 3 ص: 296 وابن سعيد (ص: 137) الحديثي العهد بالإسلام ويسميهم ابن حجر بالإسلمين (الدرر الكامنة) ج. 1 ص : 313.

بجانب ملحقات مختلفة على طول هذا الجدار كمسجد الجنائز ومقصورة الإمام والكتاب القرآني (أو مسيد وهو تحريف مسجد) والمراحيض. وتكاد مساحة الجامع تكون مربعة الشكل (25م في 25,6م) ويغلب استعمال الحجر غير المنحوت مع حنايا وأساطين فن الآجر وتغطي «البرشلة» صحون الصلاة مزدوجة الانحدار في شكل ما يسمى في الشرق بجبهة الجملون عدا سقف مسطح فوق الصحن الأخير والأبهاء، وقد تجدد التسطيح أواخر القرن الماضي حيث كانت مياه المطر تنصب في ميازيب إلى صهاريج أو مصانع تحت الصحون عطلت الآن، وأصبحت المياه تجري على طول الجدار الخارجي.

وللجامع أربعة أبواب تعلوها أقواس مكسورة حدوية الشكل وتسندها عضادات، ويمتاز بابان اثنان كلاهما بساريتين يتصل تاجاهما بواسطة طنف، وكانت الصومعة معزولة عن المسجد ولكنها أصبحت منذ عام 1940 موصولة بالمرمر المكشوف المحاذي لجدار القبلة. وإذا لاحظنا أن جوامع الموحدين تتسم بالتناسق في أجزائها فإننا نستغرب فقدان هذا الانسجام في جامع القصبة الذي يظهر أن التعديلات المدخلة عليه قد غيرت معالمه تغييرا عميقا، ولم يجد المهندسون مجالا واسعا لحفظ هذا التوازن الفني، نظرا لتكاثف الأبنية حول المسجد، وليس هنالك ما يؤكد أن المنارة من بناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله كما يظن كايبي.

أما السور الموحدي الذي أسسه يعقوب المنصور بالرباط فقد تم بناؤه - على ما يلوح - حوالي عام 593هـ-1197م وهو يمتد على طول 5263 مترا غربي وجنوبي المدينة التي تحميها من الجهتين الشمالية والشرقية قصبة الأوداية ونهر أبي رقراق والمحيط الأطلنتي، وتبلغ المساحة الداخلية المحاطة بالأسوار 418 هكتار ينفذ الناس إليها من أربعة أبواب هي غربا باب العلو وباب الرواح، وأخرى داخل الثكنة العسكرية المحاذية للقصر الملكي، وجنوبا باب زعير المؤدية إلى شالة.

ومازال السور - رغم مرور نحو من ثمانية قرون على تأسيسه - قوي الدعائم عدا قمته التي تفتتت عناصرها وهو مبني من الملاط المقوى الذي يحوي الثلث من الكلس، بينما لا تتعدى نسبة الجير عادة السدس أو الثمن. ومعلوم أن الملاط الموحدي هو أقوى الملاطات، إذ يشتمل في بعض المواضع على آجر مدكوك في شكل «طابية» وعلى حصيات صغيرة قد لف بعضها ببعض فأصبحت كالحجارة في صلابتها لا ينال منها المعدل إلا قليلا. وقد غالبت أسافل السور جوارف المطر، أما عرض السور فيبلغ أحيانا مترين اثنين ونصف متر، قد عبدت فوقها طريق مشرفة للحراسة يدعمها حاجز منيع يقل ارتفاعه عن المتر الواحد، في حين يصل علو السور إلى أزيد من عشرة أمتار، ويمكن أن نلاحظ اليوم وجود أربعة وسبعين برجا: سبعة منها تمتد من برج الصراط في الطرف الغربي إلى باب العلو، وتسعة إلى باب الحد، وخمسة وعشرون إلى باب الرواح وسبعة على طول ثكنة الحرس الملكي، وأربعة وعشرون إلى الجهة المارة من باب زعير والمطلة على أبي رقراق قرب ما كان يسمى بالمنزه (وهو مقر السفارة الفرنسية الآن)، وقد يطول أحيانا الحيز الواقع بين برجين ربما لانهيار بعضها خلال هذا الفاصل.

وقد ظلت مدينة رباط الفتح في حدودها الموحدية

غير آهلة طوال عدة قرون، وكانت حدودها الجنوبية الشرقية هي السور الأندلسي الممتد من سيدي مخلوف إلى باب الحد (مارا بباب البيوبية وباب شالة وباب التين). ويقول الأستاذ كايبي (ص131) بأن الرباط كان يعرف في هذه الفترة بسلا الحديثة. والذي يظهر أن هذا الاسم قد أطلق على سلا منذ عهد الشريف الإدريسي(17) أي قبل بناء رباط الفتح، وربما كان ذلك في نظرنا للتمييز بينها وبين شالة الرومانية لحملها نفس الاسم تقريبا.

وقد ذكرنا أن أبواب السور الموحدي خمسة، بإدراج الباب الواقعة داخل ثكنة الحرس الملكي وهي تحمل الأسماء الآتية: باب العلو، وباب الحد، وباب الرواح، وباب زعير.

وباب العلو هو أقرب إلى المحيط، وهو يبعد عن البحر بمسافة 544م، ويشكل هيكلا ضخما طوله 19,2م وعمقه 20,92م وعلوه 10,85م كما يشتمل على غرفتين متوازيتين: إحداهما مكشوفة. وتعلو الكل أبراج ناتئة مع وجود حجارة منحوتة جميلة في الزوايا وقلب الواجهتين الشرقية والغربية. وتوجد قاعة صغيرة مربعة داخل الغرفة الأولى كانت مستودعا للسلاح وتؤدي الغرفة الثانية إلى السطح الذي يغطي مجموع البناية تحيط بها حواجز غير منحوتة يبلغ ارتفاعها 2,26م غربا. وأقل من متر من جهة المدينة. وقد فتحت فيها ثغرات ثمان ويتصل السطح بالطريق المعلقة فوق عرض السور، وينزل درج في الغرفة المكشوفة إلى بطن الأرض ليؤدي إلى ممر مستطيل لعله كان مخبأ لجند الخفر.

وقد نقشت على الجدران كتابات في صلب الحجارة المنحوتة مع صور سيف وخناجر، بعضها معقوف للطرف وصورة قوس يحمل سهما مصوبا نحو الأعلى في روعة خلابة. أما باب الحد فهو لا يختلف كثيرا عن الباب السابق ويقع على بعد 505 أمتار منه، وقد تجدد بناؤه عام 229(18) في عهد السلطان مولاي سليمان.

ويمتاز هذا الباب بثلاث غرف متوازية إحداها مكشوفة كما تمتاز بوجود ثلاثة أقواس تدعمها روافد متينة تحمل عقد القبة قد انغمست عضاداتها شمالا داخل الجدار، وقد وصف الأستاذ كايبي ص: 137) هذه الميزة بأنها استثنائية في الهندسة المعمارية المغربية نظرا لانعدام مثل هذه الأقواس في مآثر أخرى، وأشار إلى احتمال نسبتها إلى أحد الأعلاج أو الأسرى الأوربيين، وتتفتح باب الرواح(19) اليوم أمام شارع النصر (الذي هو أعظم شارع في العاصمة تقام فيه المهرجانات والاستعراضات الرسمية) على مسافة 1021م جنوبي باب الحد، وهي أعظم أبواب السور الموحدي وأكثرها تنسيقا، يبلغ عرضها 28م وعمقها 26,93م وارتفاعها 12م وتحتوي على أربع قاعات: إحداها مكشوفة، كلها مربعة الشكل (5,65م في مثلها)، وعلى مترين (مساحتهما 4,20م في 2,20م)، وتعلو القاعة الأولى قبة ذات أضلاع مشعة (على الطراز القوطي)(20) عقودها الركنية من الآجر، لها ستة عشر أخدودا تتجمع في قبيبة ذات ثمانية

(17) نزهة المشتاق، طبعة 1957، (ص: 48).

(18) أكد الضعيف ذلك في تاريخ الرباط ص: 506.

(19) ترجم كايبي باب الرواح بباب الريح وهو واهم في ذلك لأن الرواح معناه الروحة أي الذهاب صباحا.

(20) الزخرف المشع أصله إغريقي يمتاز بتشكيلات زخرفية كثيرة وورقات متفتحة متعددة الفصوص.

فصوص (أي قويسات أو أقواس صغرى). ونعثر على هذا النموذج من القباب في عدة غرف بمنارتي الكتبية وحسان، إلا أن قبة باب الرواح أضخم وإن كانت أقل جمالا ورواء، في حين تمتاز بسمة خاصة، وهي أن قاعدة كل عقد ركني تدعمها سويرية متوجة ومحلاة بما يسمى بالاقنثا أو شوكة اليودي وهي نبتة اتخذت أوراقها مثالا للزينة في الأبنية القديمة واختص بها تقريبا الطراز الكورنثي اليوناني، وتصطبغ هذه المجموعة الرائعة بالرشاقة والخفة ضمن الهيكل الضخم المتشكل في الحنايا والأقواس، ولاشك أن بعض القاعات كانت مخازن أو مخابئ لاستخدام الحرس العسكري.

وقد جدد السلطان سيدي محمد ابن عبد الله العلوي كثيرا من المظاهر الأثرية في هذا الباب(21) بل أضاف عناصر طريفة كقوس الانفتاح المكسورة والمشرعة (وهذه هي عبارة عن حنية أو عقد قبة يعلو سهمها أو مفتاحها إلى نصف مستوى الانفتاح)، ويحيط شريط من الخط الكوفي باللوحة المركزية المأطورة للباب في وضوح وروعة وتجانس بين المجموع والجزئيات (وهو شبيه بمثليه في باب القصبة وباب كناوة بمراكش)، وتقل الرسوم الزهرية في النقوش حيث لا تعدو بعض الأشكال السعفية، كما تقل التنميقات في الوجه الباطني للباب طبقا للتقاليد المعمارية المتبعة التي تأبى إلا أن تحلي الجدران بكتابات منحوتة على الحجر وصور سيوف دقيقة وقاذوف (أي آلة لرمي السهام إلى مسافات بعيدة كالتي توجد في باب العلو) وحسام قصير ذي نصل معقوف.

أما الباب الكائنة داخل القصر الملكي فهي تقع على بعد 880م جنوبي «باب الرواح» وعلى مسافة 465م شمالي برج الزاوية وهي تبلغ 21,21م عرضا و 22,80م عمقا، وتشتمل على ثلاث قاعات مثل باب الحد مع وجود تعديلات ترجع لا محالة إلى العهد العلوي ولا تختلف في مجموعها غربا في الأبواب الموحدية.

وتتفتح باب زعير ـ كما يدل عليه اسمها ـ على الطريق المؤدية إلى الإقليم الذي تشغله الآن قبيلة زعير، وتصل أحجامها إلى 18,24م عمقا و 9,71م علوا و 12,59م عرضا وهي شبيهة في تخطيطها بباب العلو مع انتظام أقل، ولا تزيد قاعاتها على اثنتين متوازيتين.

وقد مد عبد المومن بن علي أنابيب إلى رباطه بمصب أبي رقراق لنقل ماء عين غبولة إلى القصبة، ولاشك أن هذه المجاري كانت جديرة بروعة الفن المعماري الموحدي، إلا أن الحفريات التي تمت لحد الآن، سواء داخل المدينة أو خارجها لم تسفر عن كشف أي عنصر هام من هذه القنوات.

ويظهر أن اندراس معظم هذه المعالم راجع لكون الملوك العلويين قد أقاموا قنطرة معلقة لنقل مياه غبولة فوق القنطرة الموحدية، مما لم يترك أثرا لهذه. ومع ذلك فقد لاحظ الأستاذ هنري باسي(22) وجود بعض الآثار الشاهدة بقيام جسر بني عبد المومن على مقربة من شمالي شالة على طول الشارع الحامل لهذا الاسم إلى منعرج كائن قبالة الجامع الأعظم يؤدي إلى

(21) تاريخ الضعيف ص: 165 (مخطوط المكتبة العامة).

(22) في كتابه «قنطرة موحدية بالرباط» الذي نشره في المجلة الإفريقية 1923، 523.

قصبة الأوداية، وتبلغ هذه القناة العتيقة 1,3م من العلو - بإدراج عقد قوسها - و 0,59 متر عرضا، وهي مبنية من الملاط المقوى الذي لا تنال منه المعاول لصلابته، إلا أن الأستاذ كايبي(23) أبرز الخلاف الملحوظ بين وصف المؤرخ باسي. ووصف الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الإفريقي(24) الذي تحدث عن قناة من الحجر المنحوت مقامة على حنية بنفس الصناعة الفنية المعروفة آنذاك في إيطاليا وخاصة في روما، فهل ينطبق هذا الوصف الرائع على قطعة من الجسر تهدمت وامحت معالمها؟ من الصعب التأكد من ذلك، لاسيما والنصوص التاريخية أو الحفريات لم تسفر عما يشير إليه، فالمشكل إذن مازال قائما، إلا أن العنصر الهام الذي ينبغي أن يؤخذ في نظرنا بعين الاعتبار هو جودة الملاط المقوى وصلابته، وهما من سمات الفن الموحدي، بالإضافة إلى ضخامة القناة وكثافة حجم الملاط ووضع الحنايا والأقواس الذي يساعدها عل الصمود أمام ضغوط المياه مهما كانت قوتها. ومع ذلك فقد لحقت أضرار جسيمة بالقناة خلال الحروب الطاحنة التي استمرت بين الموحدين وبني مرين بعد وقعة العُقاب حتى جدد السلطان المريني أبو يوسف ما تهدم وانهار خلال هذه الفترة العصيبة من تاريخ الرباط.

ومن هذا الوصف الموجز يتضح أن أبواب السور الموحدي بالرباط لها ميزات مشتركة تتجلى في وجود منعرجات ونواتيء لضخمة وسلسلة من القاعات المتوازية إحداها مكشوفة يحتوي داخل كل منها على غرف صغيرة لسكنى الحرس أو خزن الأسلحة، وهي تشكل مع ذلك مراكز دفاعية هامة تعززها الانعراجات المختلفة غير الموجودة في الحصون الأندلسية التي اقتبس منها الموحدون، وكذلك في باب القصبة الخالية من كل منعرج أو مركز مكشوف. ومهما يكن فإن الارتسامات البارزة التي تنطبع في قلب الزائر لهذه المجموعات المتكاملة هي الشعور بالفخامة والقوة والإبداع، فهي تشكل مع منارات الكتبية وحسان وجامع اشبيلية روائع خالدة في الفن الأندلسي المغربي.

والملاحظ أن التأثير الأندلسي يغلب في هذه الهندسة المعمارية على المعطيات المحلية، ونُحِس في كل ذلك برغبة المؤسس الموحدي يعقوب المنصور الصادقة في منافسة المآثر المعمارية في الأندلس والمغرب.

وعندما استتب الأمر للعلويين في عهد مولاي الرشيد بدأ هذا الأمير يهتم بتجديد معالم الفن المريني والسعدي بتعزيز الأجهزة العسكرية ومتابعة بناء المعاهد والمدارس والمساجد. وقد استطاع إقامة بعض المؤسسات رغم قصر أمد إمارته الملأى بالحروب، ومن ذلك بناؤه عام 1075هـ بالآجر والجير في نهر سبو وعلى بعد أربعة كيلومترات من فاس لقنطرة طولها مائة وخمسون مترا مرفوعة على أعمدة تتخللها ثمانية أقواس: (ثلاثة منها إنما بناها سيدي محمد بن عبد الله - الناصري - ج4 ص121)، ثم تقوية أسوار فاس البالي، كما شرع عام 1081هـ في بناء مدرسة الشراطين بدار الباشا

(23) تاريخ الرباط، ص: 150.

(24) في كتابه «وصف إفريقيا».

عزوز، ولا تخلو هندسة ونقوش هذه المدرسة من جمال، إلا أن معالمها بعيدة عما يتسم به الفن المريني من صفاء.(25)

وأقوى أمير وأعظم بناء في الأسرة العلوية هو مولاي إسماعيل(26)، فإن اهتمامه ببناء القلاع والحصون في طول المغرب وعرضه قد حداه إلى مزيد من العناية بقصبة الأوداية، لاسيما وأن استمرار القرصنة جعل من هذه مركزا بحريا من أهم المراكز الاستراتيجية. ومعلوم أن هذا السلطان تنازل عن الحقوق الملكية في نهر أبي رقراق وأوقف على مساجد العُدوتين كما رمم جوانب من سور القصبة وجدد - حسب مويت - بناء بعض الأبراج المطلة على الوادي، وأقام البناية التي تضم الآن المتحف والتي قيل عنها إنها كانت مدرسة.

وقد ترك لنا رحالون غربيون تواردوا على المغرب في القرون الأخيرة صورا وخرائط وتصميمات عَدَلْنا عن الاستناد إليها لتناقضها، مقتصرين على بعض النصوص التاريخية القائلة مثلا بأن المراكب المسيحية، كانت تلقي مرساتها تجاه القلعة التي كانت ترابط بها في العهد الرشيدي حامية مؤلفة من ثلاثمائة جندي، أضيف إليهم العبيد أيام المولى إسماعيل الذي اكتفى بهم في آخر الأمر، وكانت القصبة آنذاك تصوب فوهات مدافعها إلى رباط الأندلسيين، كما توجه بطارياتها تجاه البحر لصد غارات المراكب الأوربية. على أن القصبة نفسها كانت تخضع لمراقبة قصر مولاي رشيد الجديد المشرف عليها، وكانت باب من خشب تقفل المدخل الأساسي للقصبة التي توافرت في جنباتها المساكن والاصطبلات والمخازن حول القصر الموحدي المقابل للجامع العتيق بسراديبه المشحونة بالعتاد بمنأى من قنابل العدو، فكانت القصبة كناية عن حاضرة صغيرة ينعقد تحت جدرانها سوق النخاسة للأسرى.

وعند انبثاق عهد السلطان محمد بن عبد الله دعت الحاجة إلى تنظيم الإدارة وتعزيز الثغور، وتجديد الأسطول وتشجيع القرصنة والتجارة فأسهمت حاضرة الرباط بحظ وافر في هذه البادرات. وكان السلطان يتوفر - حسب شيني(27) - على ستين مهراسا ومائتين من المدافع، معظمها في الرباط والصويرة، وهو عدد ضخم بالنسبة للعصر. وقد قام السلطان بدعم القصبة من جديد وترميم ما تهدم منها وبناء برج كبير يسمى صقالة على يد أحد الاعلاج الإنجليز، معززا ببطاريات تحرس الساحل على طول المسبح وبرج الصراط. وألغي الممر المغطى بين القصبة والقصر الجديد، كما هدم القصر الموحدي الذي احتفظ إلى ذلك العهد بجميع مقومات الراحة. وكان السلطان قد أسس خزينة (بيت المال) لأداء أجور الجند في جميع مراسي المحيط الأطلنطيكي، وكانت خزينة الرباط قائمة في غرف باب القصبة. ويظهر أن الباب الثانية للقصبة أسست في هذه الفترة لأن الخطر أصبح محصورا في جهة البحر حيث ازدهرت القرصنة ضد أساطيل العدو.

وقد عمل السلطان سيدي محمد على إقامة صرح

---

(25) تاريخ إفريقيا الشمالية لاندري جوليان ص: 490 وقد استعيض بهذه المدرسة عن مدرسة اللبادين وهي تحتوي على عدة غرف ذات نوافذ.

(26) الهندسة المعمارية الإسلامية في الغرب - جورج مارسي ص: 383 وقد وهم مارسي فذكر أن مولاي إسماعيل هو ولد مولاي رشيد.

(27) نفس المصدر ج. 3 ص: 237.

مدينة جديدة في أكدال بالمشور الحالي، وأسس دار المخزن، وجامع السنة، وجامع أهل فاس. وهو أول عمل معماري عرفته الرباط منذ يعقوب المنصور. إلا أن الحاضرة العلوية تجاوزت آنذاك السور الأندلسي واستحالت إلى حضرة سلطانية. وقد أكد الناصري في الاستقصا أن أكدال ازدان آنذاك بستة مساجد، علاوة على جامعي السنة وأهل فاس. إلا أن المدينة ما لبثت أن فقدت من قيمتها في عهد مولاي اليزيد. وقد عمل السلطان المولى سليمان على توسيع معالم المدينة ببناء قصر القبيبات «دار البحر» (الذي يوجد فيه الآن المستشفى العسكري) وجامع مولاي سليمان (بين البويبة والسويقة) وجامع الجزارين (بشارع القناصل) وجامع القبة (بحمام العلو)، وجدد باب شالة في السور الأندلسي، وكذلك باب الحد، بينما أهمل القصبة كل الإهمال.

ومع ذلك فقد أصبحت الرباط مثل فاس ومكناس حضرة من حضرات السلطنة، لاسيما في أيام المولى عبد الرحمن الذي أصبح قناصلة الدول يقدمون له بالرباط أوراق اعتمادهم، إلا أن هذا السلطان لم يُضف إلى المدينة مآثر جديدة إذا استثنينا جامع سيدي فاتح وبعض الأبراج والدور الجميلة وسط جنان وحدائق غنّاء زرعت خارج السور.

وقد أصبح الملوك العلويون المتأخرون، وخاصة سيدي محمد بن عبد الرحمن والحسن الأول يواصلون المقام بالرباط. وقام السلطان محمد الرابع بتغيير وجه جانب من الحاضرة بما أحدثه من بنايات: أهمها القصر الجديد في أكدال على أنقاض القديم وهو القصر الملكي الحالي مع سور المشور المحيط بتواركة (أي ساحة البلاط السلطاني)، علاوة على تجديد معالم جامعي السنة وأهل فاس وإيصال قنوات عين غبولة إلى دار المخزن على قناطر معلقة لم تعد مستعملة منذ عقود من السنين. وبذلك أحيى محمد الرابع الحضرة السلطانية التي أسسها سلفه الكريم محمد الثالث.

وقد صادفت بيعة الحسن الأول تأجج أطماع الأوربيين ودسائسهم، بالإضافة إلى مخلفات ورواسب حربي إيسلي وتطوان، فاتجه الملك الشجاع الذي كان عرشه على صهوة جواده إلى تعزيز الأمن والنظام ودعم الثغور مع العمل على ترميم ما لحقه الخلل من مؤسسات الرباط، وخاصة الجامع الكبير وقصري أكدال والقبيبات. ولم يكد يبزغ فجر القرن العشرين حتى أصبحت الرباط مدينة حضرية ببورجوازيتها الثرية وتقاليدها التي أضفى عليها جوار القصر الملكي طابعا من الروعة والمهابة، بالإضافة إلى ما تستلزمه جودة المناخ من رغد وازدهار، حديا بالجالية الأوربية إلى الاستيطان على ضفاف أبي رقراق وخلق نوع جديد من التبادل الفكري والحضاري الذي تبلور مع الزمان في أروع مظاهره حتى قال بعض المؤرخين الأجانب إن الرباط أمست «مفتاح المغرب»(28)

أما السور الرشيدي فإنه يحاذيه حديقة الأوداية وساحة سوق الغزل على طول 131,6م. وقد أسسه بأمر من مولاي الرشيد قائد العدوتين أحمد الريفي

ضمن مجموع مسدس الزوايا والأضلاع، يضم المتحف والحديقة، وتخترقه أربعة أبواب معززة ببرجين من الطابية. ومن مميزات هذه الأبراج الرشيدية التي خالف فيها شكلية التحصينات الأندلسية المغربية أن ما يسمى بالسجف أو البدنة (وهو جدار الحصن القائم بين برجين) بارز بالنسبة للسور ظاهرا وباطنا، أي سواء من جهة الساحة أم الحديقة، وقد نقشت على جانب من البرج خمسة رسوم تمثل المراكب بصواريها وأشرعتها ومجاذيفها الإثنى عشر في كلتا الجهتين. وهذه النقوش أشبه بالرسوم المنحوتة على أبواب السور الموحدي بالرباط أو في شالة ومهدية وباب العريسة (بسلا) وحصن تازا ومكناس وزرهون.

ويقع المتحف في الجهة الغربية من الحديقة، وقد أسس في عهد مولاي إسماعيل (كما تشهد بذلك الكتابة المنقوشة على الخشب في ساحة المتحف(29) وتزدان خزانته بنسخة من القرآن كان قد حلى تجليدها بتمويهات الذهب الخليفة الموحدي عمر المرتضى عندما كان واليا على القصبة قبل اعتلائه العرش. ويحتوي المتحف على ساحة مركزية على غرار ساحات الدور الكبرى، وغرف مستطيلة تمتد على الجوانب الأربعة مع مخادع صغرى وبرج في الركن الجنوبي من خمس طبقات وثلاث ملحقات وهي مسجد وحمام(30) وقاعات صغرى. وتسند الأبهاء الأربعة خمس حنايا بأقواسها المكسورة والحدوية وقد أطلق اسم مدرسة على هذا المتحف في آخر عهد الحسن الأول، إلا أن تصميمها لا ينطوي على بيوت للطلبة إذا اعتبرنا أن المدرسة كانت منذ العصور الأولى عبارة عن حي جامعي مصغر، اللهم إلا إذا كان ملوكنا الأمجاد قد استغلوا قرب هذه البناية من المرسى لإحالتها إلى معهد للملاحة(31) بعد أن كانت مجرد دار ملكية للسكنى محاطة بحديقة ومسجد وحمام.

وكان السور العلوي الخارجي ينطلق من شاطئ المحيط الأطلنطيقي في نقطة تبعد بألف وستمائة متر في الطرف الشمالي للسور الموحدي، وينقسم هذا السور إلى شقين يبلغ طول أحدهما 3200م ويصل إلى أكدال بعدما يقطع شارع تمارة وشارع النصر إلى باب مراكش التي مازالت قائمة إلى الآن بالقرب من السكك الحديدية (خلف حديقة التجارب). أما الشق الثاني فإنه يتصل مباشرة بالسور الموحدي ويبلغ طوله ألفا ومائة متر. وقد فتحت في السور أربعة أبواب (باب القبيبات في جهة البحر (أو باب الدار أيضا) وباب تمارة في الشارع الذي يحمل هذا الاسم أو باب تامسنا، وباب مراكش، (أو باب الجديد أو باب المجاز أو باب العدير البراني) وباب المصلى (لقربها من المصلى الحالي). وهكذا يمكن القول بأن السور العلوي بلغ طوله أربعة كيلومترات وثلاثمائة متر، وكانت المساحة التي تفصل المحيط عن السور الموحدي أربعمائة وواحدا وعشرين هكتارا أي

---

(29) يقول مؤرخ سلا محمد بن محمد بن علي الدكالي أن نجل السلطان مولاي أحمد الذهبي سكن في المتحف عندما كان ينوب عن والده في العدوتين.

(30) الحق بالمتحف عام 1941.

(31) أشارت إلى ذلك مصادر اجنبية وخاصة كتاب «الرباط وناحيته» الذي نشرته البعثة العلمية الفرنسية في أربعة مجلدات عام 1916 بباريس

الضعف. ولا نعرف بالضبط تاريخ بناء هذا السور، نظرا لسكوت المصادر المغربية ككتب الزياني، والضعيف، والناصري عن ذلك، عدا مؤرخ سلا الفقيه ابن علي الدكالي الذي ذكر أن بانيه هو السلطان محمد الرابع(32). وقد هدم هذا السور إبان الحماية لتسهيل عمارة المدينة الأوربية. ويظهر أن هذا السور لم يكن يحتوي على طريق معلقة ولا على ثغرات للرماية.

وهنالك بنايات أقامها الملوك العلويون الأمجاد في السور الموحدي مثل برج لالة قضية قرب باب البحر التي كانت الفُلك (المراكب) تنقل إليها الناس من سلا إلى الرباط عندما كان ماء النهر يبلغ في مده هذا الجدار العلوي، إلا أن أرصفة جديدة أسست منذ نصف قرن فصارت تحجز مياه الوادي، وقد أقيمت عليها مخازن الديوانة وأماكن لإرساء السفن الصغرى ومستودعات ملاحية مختلفة.

المشور: ويشكل المشور (أي ساحة القصر الملكي) مربعا تبلغ مساحته تسعة وأربعين هكتارا، وهو يحتوي الآن ـ بالإضافة إلى القصر الملكي المذكور ـ على ضريح الحسن الأول الذي يضم جثة السلطان سيدي محمد بن عبد الله قدس الله روحه، وجثمان جلالة الملك المرحوم محمد بن يوسف (الذي نقل الآن إلى حسان)، كما يضم جامع أهل فاس والمجلس الأعلى للقضاء (الذي كان معهدا تلقى فيه جلالة الحسن الثاني نصره الله دروسه في السلكين الابتدائي والثانوي قبل الالتحاق بالعالي والذي يحمل الآن اسم: المدرسة المولوية)، وإدارة الدفاع الوطني، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وملعب الفروسية، والمطبعة الملكية، ومساكن الحرس الملكي التي أحيلت إلى دور عصرية بعد أن كانت عبارة عن «نوايل» أو أخصاص قصديرية، وأصبح المشور في هندامه الجديد بحدائقه الغناء وفواراته النافورية وأضواته اللماعة وأرصفته المبلطة صورة حية للمجهود الذي بذله العرش المغربي بعد الاستقلال في مجالات التخطيط والعمران.

وينطبق سور المشور غربا وجنوبا على السور الموحدي، بينما أضيف لاستكمال تربيعه الجانبان الشمالي والشرقي، وقد بنيت البابان الأساسيان في المعهد المحمدي وصارتا تحملان اسم «باب السفراء» و «باب القيادة العليا». وتدل الكتابات المنقوشة عليهما أن إحداهما من بناء السلطان مولاي عبد الرحمن (عام 1283) والأخرى من بناء ولده محمد الرابع، مما يدل على أن السور يرجع عهده إلى هذا التاريخ. ويبلغ طوله 1373م كما تزدان أبوابه بحنايا مشرعة رائعة بنواتئها الخفيفة وعقودها الركنية ومصاريعها الخشبية الثقيلة وتحصيناتها.

أما التجديدات والترميمات التي قام بها الملوك العلويون بالنسبة للسور الأندلسي فإنها مستوحاة من تطور الحاجيات ولوازم الحضارة. فمن ذلك باب تسمى «تقوية الراعي» (كانت بجانب المجزرة التي يحمل إليها الرعاة الغنم والبقر) التي تحمل كتابات يرجع صنعها إلى السلطان محمد بن عبد الله عام

(32) يلاحظ كايبي في تاريخ الرباط أن ذلك غلط لأن سيدي محمد بن عبد الرحمن هذا لم يعتل العرش إلا عام 1859م في حين أن نائب قنصل فرنسا بالرباط تحدث منذ عام 1856 عما سماه بالسور الثاني للرباط ولعل كايبي وأهم في ذلك على ما يلوح لنا لأنه ربما كان المقصود بالسّور الثاني هو سور الأندلسيين وهو أقرب إلى الاحتمال.

1193، بينما توجد باب أخرى متصلة بشارع الجزاء تعرف بتقويسة الطرافة (أي باب الإسكافيين أو مصلحي الأحذية). وتدل الكتابات المنقوشة عليها أنها جددت في عهد السلطان مولاي عبد العزيز عام 1315هـ أما باب شالة المؤدية إلى الجامع الكبير (تسمى أيضا باب سيدي علي بورجي وهو المولى المدفون بإزائها)، فقد جددها المولى سليمان في 16 جمادي الثانية عام 1228 (كما في النقش)(33).

وكانت مدينة الرباط تضم بين جنباتها أزيد من خمسين مسجدا وزاوية في أوائل هذا القرن، وقد أسس معظمها في العهد العلوي، أهمها جامع السنة، وجامع أهل فاس، وجامع أهل سوس، وجامع أهل مراكش، وكلها من بناء السلطان الأمجد محمد بن عبد الله، علاوة على ستة مساجد أخرى تهدمت مع ما تهدم في أكدال(34). وسنستعرض على التوالي المظاهر المعمارية في ثلاثة من هذه المساجد هي جامع السنة وجامع أهل فاس وجامع ملين.

أما جامع السنة فقد أقيم بالجامع الغربي والطرف الشمالي الخارجي لشور توارکة قرب ليسي مولاي يوسف الحالي. وقد أكد الضعيف أن بناءه تم في جمادى 1199هـ (مارس 1785م) على يد الملك الهمام محمد بن عبد الله الذي أنفق عليه أموالا طائلة. ويظهر أنه ظل منذ تأسيسه نحوا من عشرين سنة خاليا لبعده عن المدينة وقلة السكان حوله، مما حدا السلطان مولاي سليمان إلى نقل أخشاب سطوحه لتسقيف جامع علي ابن يوسف الذي انمحت آثاره الآن بمراكش(35) وكان بجانب المدرسة التي تحمل نفس الاسم. وقد قام السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بتجديد بناء جامع السنة الذي أصبحت الصلوات الخمس تقام فيه بانتظام مع خطب الجمعة وذلك بعدما بادر إلى زيادة تعمير حي توارکة بعبيد البخاري وأهل سوس، ثم إقامة دار المخزن والمشور السعيد. ولم تزد الترميمات الجديدة على دعم صحون الصلاة بروافد خارجية دون تعديل التخطيط الأصلي للجامع، مع إضافة جناح وباب جديدين خلف المقصورة، وربما أيضا دار للوضوء قرب الصومعة ومخدع مستطيل وراء المحراب يرجع تاريخه إلى عهد السلطان مولاي عبد العزيز (1325ـ1907). وأول ما يبديه الزائر لجامع السنة مساحته الشاسعة وتناسق أجزائه وبساطته، وإذا اعتبرنا تخطيطه الأصلي فإن المساحة تكون عبارة عن مربع كامل (74,70م في 74,50م) أي 5565 متر مربع، وهذا الجامع من أكبر مساجد المغرب، ولا يفوقه في الضخامة عدا جامع حسان (25523 متر مربع) وجامع القرويين (6300 متر مربع)، بينما تزيد مساحته على مساحات جامع القصبة بمراكش (5512 متر مربع) وجامع الروى بمكناس (حوالي 4930 متر مربع) وجامع الأندلس بفاس (نحو 2000 متر مربع). وإذا كان شكله المربع عاديا بالنسبة للمساجد الصغرى فإنه نادر إذا نظرنا إلى الجوامع والمساجد الكبرى.

وكان للجامع ثلاثة صحون معترضة مفصولة

---

(33) ويؤكد الضعيف هذا التاريخ)مخطوط المكتبة العامة بالرباط ص: 499).

(34) كما ورد في الاستقصا وفي البستان لأبي القاسم الزياني (ص: 173 من مخطوط مكتبة ابن زيدان) وفي تاريخ الرباط للضعيف.

(35) كايبي ـ تاريخ الرباط ص: 458.

بعضها عن بعض بخمس حنية في الاتجاه الشمالي الشرقي والجنوب الغربي كما هو الشأن في جميع مساجد العهد العلوي، وخاصة في جامع الروى ولالة عودة (مكناس) وجامع مولاي سليمان (الرباط وجامع الرصيف (فاس)، وهو اتجاه مقتبس من الهندسة المعمارية التي عرفت منذ القرون الأولى في كل من جامع القرويين وجامع الأندلس بفاس. ولعل الاتجاه الملحوظ في عهد العلويين يعكس الخلاف القائم بين الفقهاء حول مفهوم الحديث الشريف «ما بين المشرق والمغرب قبلة» والذي قرر العلماء المتأخرون أنه خاص بموقع المدينة المنورة خلافا لما ارتآه الظاهرية في عهد الموحدين، وأن المفهوم الصحيح لهذا الاتجاه بالنسبة للمغرب هو «ما بين الشمال والجنوب».

أما ساحة الجامع فإن شكلها حرد (أي بعضها أطول من بعض وغير متساوية في الطول)، وهي أوسع من الصحن وتحتوي في طول الجدار الشمالي الغربي على سلسلة غرف (كان الطلبة يسكنون بها) ورواق مربع (استخدام كزاوية تجانية داخل الجامع) تقابله الصومعة في الطرف الآخر الملاصق لدار الوضوء، وكان المصلون ينفذون إلى الجامع من خمسة أبواب (ثلاث منها في واجهة المسجد)، علاوة على الباب السادس المضاف وراء المحراب.

وقد بنيت معظم جدران الجامع من الملاط المقوى القليل الكلس والمخلوط بشظايا القرميد والآجر أما هياكل الأبواب فإنها من الحجر المنحوت المغطى بطبقة كثيفة من الجير، بينما بنيت الأساطين الداخلية المربعة بالآجر وكذلك الحنايا والأقواس ويتجلى المحراب في شكل هرم ذي خمسة رفارف أو ذيول وتغطي سقوف جملونية من البرشلة ذات منحدرات أربعة صحون المسجد الواسعة التي يبلغ طولها واحدا وسبعين مترا وعرضها سبعة أمتار، وتعتمد أربطة الجملون (وهي خشبات تصل كل واحدة منها طرفي الجملون، وتباعد بينهما) في أطرافها على مساند ناتئة مغروزة في الجدران، وتزدوج هذه الأربطة فوق الأقواس، إلا أن المجموع يخلو من طابع الرشاقة الذي عمل السلطان محمد الرابع على إضفائه على الجامع عندما أضاف إلى الصحن أروقة جديدة وأبهاء بأساطينها الضخمة الأربع عشرة التي تصلها حنايا مكسورة ومتفتحة من الحجر المنحوت تقابلها في الصحون الداخلية أقواس مكسورة حدوية (أي على شكل نعل الفرس) واسعة ذات مركزين يبلغ علوها أزيد من خمسة أمتار وانفتاحها ثلاثة أمتار ونصف متر، أي تسعة أضعاف البعد الذي يفصل المركزين. وتقضي التقاليد المعمارية في المغرب بأن تكون هذه الأقواس مأطورة ضمن مربع مستطيل ومشرع (أي يرتفع عقد قبته فوق القوس التام أو النصف الدائري)، وارتفاع هذه الحنايا هو الذي يضفي نوعا من الرشاقة على البناية التي تتسم بسبب امتداد الصحون (71,7 مترا) بشيء غير قليل من الضخامة والجلال، يزيدها بساطة وروعة خلو قبة المحراب المثمنة الشكل من العقود الركنية ومن المقربصات، اللهم إلا تلك القولبة الخلابة التي تمتاز بها العضادات التقليدية الجامعة بين الزينة المقعرة والخيوط المشبكة، ولا ينفذ النور إلى الصحون إلا من خلال الحنايا المتفتحة على الساحة الخارجية المنتظمة الهندام التي كانت مساحتها تبلغ 72 مترا عرضا في 42,7م عمقا قبل التوسيعات الملحقة آخر القرن

الماضي والتي جعلت منها ساحة مربعة (72م في 73,77م). وتتوسط ساحة الجامع فسقية من الرخام الأبيض، تحملها دعامة مرمرية ضمن مربع من الزليج العصري تفور من جانبها مياه غبولة، وتقوم بين الصومعة والرواق المربع (الزاوية التجانية) على طول الجدار الشمالي الغربي أربع بنايات تحيط بأبواب الواجهة وتبلغ كل واحدة منها 4,75م عمقا و 12 إلى 14م عرضا، وتحتوي كل بناية على أربع غرف كانت مأوى للطلبة الذين أنزلهم السلطان محمد بن عبد الله(36) بالجامع وأمدهم على ممر الأيام بالمئونة اللازمة تعميرا للجامع وتشجيعا لحملة العلم.

أما الصومعة فقد ظلت في شكلها الأصيل ومكانها الأول إلى أن نقلت بأمر من صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله إلى الركن المقابل حيث كان رواق التجانيين، وذلك لتكون في سمت شارع محمد الخامس، وكان علو المنارة يبلغ 24,25م أي ستة أضعاف القاعدة المربعة التي لا تتجاوز أضلاعها ستة أمتار، أما الصاري الواقع تحت الجامور فإن جسمه المربع يبلغ كل ضلع منه 3,75م وعلوه 6,41م، وقد فتحت نافذة في كل ضلع ويحتوي الجامور على ثلاث كور من الخزف الأخضر المبرنش.

وكانت الزخرفة بسيطة، فالسواري مجردة من التيجان كما أن الأقواس عارية من كل نقش ولا يوجد الخشب النحوت إلا في الباب الشارع من جدار القبلة، وهي باب ذات حنية مكسورة ومشرعة بفصصة الزينة على غرار القويسات المطرزة في أطراف الثوب. وهذه المفصصات مرسومة في شكل ثلاثة أشرطة دقيقة متداخلة، وتحتوي الألواح المأطورة على صور نباتية ملتفة محلاة بالأفنان والورق ضمن طبقات زخرفية مقوسة نافذة، تتوسطها زهرة رائعة المنظر في ألوانها الزاهية من أبيض وأخضر وأحمر في خلفية زرقاء، تبرز المجموع في حلة قشيبة يتكاثف سقفها وبراعمها وأنوارها وكؤوسها وتخاريمها، وهذه الألوان الرائقة والرسوم المتشابكة مظهر من التراث الأندلسي المغربي الذي تزاوج على مر العصور مع معطيات الفن الشرقي، وخاصة السوري والمصري بفسيفسائه الزهرية وانتظام أجزائه ووضاءة جنباته، ويمتاز المحراب إلى جانب ذلك بالنحوت على الجبس وتراكب الأقواس والكتابات الكوفية والحنايا المقفلة وقبة قد رسمت عليها نجمة ذات تفاريع تتوسطها قبيبة منجمة، وهي زخرفة حديثة من معطيات فن القرن العشرين، تزيدها روعة ما تمتاز به من قولبة هندسية رقيقة وانتظام في التخطيط وجلال في الهيكل.

وقد قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ بأمر من جلالة الحسن الثاني أيده الله ـ بتجديد هيكل جامع السنة، فنقلت عام (1969) منارته من الطرف الشمالي إلى الطرف الجنوبي للمسجد، وكان ذلك عنوانا ناصعا على امتداد روعة الفن المغربي الأندلسي بطابعه الخاص الذي اندرست معالمه في الوطن العربي، كما تجددت سقوف الصحون والبلاطات، وازدانت مختلف الأروقة بنقوش خلابة، وبرزت براعة الصانع المغربي في النحت على النحاس

(36) تاريخ الرباط للضعيف (مخطوط المكتبة العامة بالرباط ص: 444).

الأصفر اللماع الذي لُبست به أبواب الواجهة بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ الفن بالمغرب، فكانت هذه المظاهر وكثير من أشباهها في أجزاء هذا التجديد صورا حية لعمق المكاسب الأندلسية والشرقية الإسلامية في حضارتنا الحديثة التي تضم إلى رواء الجمال العصري جلال الفن التقليدي، وقد أصبحت الصومعة الجديدة شامخة في هيكلها الضخم، يراها الناظر وقد أطلت في سمت هندسي محكم على أكبر شارع في العاصمة، وهو شارع محمد الخامس رمز النهضة المغربية الحديثة ورائد الفكر الحضاري والإسلامي الجديد في المغرب العربي.

وجامع أهل فاس هو جامع المشور الذي أكد الضعيف أنه من مآثر السلطان الأمجد المولى محمد ابن عبد الله. إلا أن بُعده عن المدينة جعله كجامع السنة قليل الرواد خالي الوفاض، إلى أن جاء السلطان الأكرم محمد الثالث (محمد بن عبد الرحمن) فجدد بناءه وموه سقوفه بالذهب والبرقشة. ثم توالت التعديلات عليه وخاصة في عهد جلالة المرحوم محمد الخامس طيب الله ثراه الذي أفرغ فيه أروع مجالي الفن المعماري الجديد نقشا ونحتا وتبليطا وقربصة وتزليجا. ولايزال جامع الخطبة الملكية السامية يقصده الشعب من كل فج للتملي بطلعة ملك المغرب الهمام الحسن الثاني نصره الله.

ويقع جامع مُلين قرب الحديقة التي عرفت في عهد الحماية بحديقة المنظر المثلث، ولا نكاد نعرف شيئا يذكر عن هذا المسجد الذي ينسب بناؤه إلى أحد أفراد عائلة أندلسية هي عائلة ملين في أوائل العهد العلوي، وإنْ كان من الصعب التسليم بذلك بسبب سكوت المصادر التاريخية والرحالين العرب والأجانب الذين وصفوا الحدائق والجنان في المساحات الشاسعة الخالية بين السورين الأندلسي والموحدي دون الإشارة إلى هذا المسجد الذي قد تهدمت اليوم معالمه من سقوف وحنايا وأساطين، عدا منارته التي مازالت قائمة إلى الآن والتي يبلغ علوها ستة عشر مترا (أي ثلاثة أضعاف ونصف عرضها)، ولايزال الهيكل الأصلي واضحا في مساحة المسجد المربعة (23,45م في 23,66م) وبلاطيه المعترضين وأقواسه الكبرى السبعة المسندة بسوار ضخمة مربعة القاعدة، علاوة على ثلاثة أقواس تصل البلاط بالصحن الخارجي والمحراب المثمن الشكل البارز في نتوء رباعي مستطيل خلف جدار القبلة. والصحن أكبر بقليل من بلاطات الصلاة (209 متر مربع بدل 203 متر مربع)، وله شكل حرد (أي بعضه أطول من بعض)، وينفذ إليه المصلون من باب واحد قبالة المحراب في الطرف الآخر، والشيء الذي يمتاز به هذا المسجد بالإضافة إلى بساطته هو اعتراض بلاطيه على غرار المساجد العلوية وجامعي القرويين والأندلس. ولا أثر لأي نقش ولا ترخيم عدا في المحراب المحلى بقوسية من الجبس، وبقية مفصصة القويسات مثل باب الرواح، وجامع حسان مع تناسق وانتظام في الفصوص ورقة في الأبعاد والأحجام، وتوافر الآجر والحجر غير المنحوت.

ومع ذلك فإن التخطيط المعماري يترك في النفس ارتسامة خاصة هي الشعور بالانسجام وشيء من الرشاقة وتناسب الزخارف رغم بساطتها. والظاهرة البارزة التي تؤكد عدم نسبة هذا البناء للعهدين المريني أو السعدي هو انعدام أي أثر لتقاليد هذين العصرين، والشبه الملحوظ في خصوص تصميمه وهيكله وتشكيله بينه وبين المساجد التي أقامها السلطان محمد الثالث كجامع السنة الذي يقول كايبي(37): إنه صورة

مصغرة منه، ولعله من المساجد الستة التي أشار إليها أبو القاسم الزياني عندما عدد مآثر العرش العلوي في أواخر القرن الثاني عشر الهجري وهو من أبرز عصور الازدهار العلوية.

ويقع جامع مولاي سليمان في حي السويقة على مسافة أربعمائة متر من الجامع الكبير، وهو يحمل اسم السلطان الذي أسسه حسب رأي مؤرخي الدولة العلوية، وإن كان البعض يسميه جامع السوق والبعض الآخر جامع السويقة. وتاريخ هذا البناء هو 1226هـ (1812م). على أن الزياني يؤكد أن مسجدا آخر كان قائما بنفس المكان قبل المولى سليمان الذي لم يزد على كونه قام بتجديده وتوسيعه.

تلك نماذج من الفن المعماري في العهد العلوي تبرز المجهود الذي بذله الأشراف لبلورة الفن وضمان وجود هذا التراث الأندلسي المغربي الحي.

الرباط ـ عبد العزيز بنعبد الله

حقوق الإنسان

للأستاذ
أحمد
الكتاني

انطلاقاً من قوله صلى الله عليه وسلم:

"لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض"

(البخاري في باب الإنصات للعلماء)

في حجة الوداع التي جرت وقائعها في التاسع من ذي الحجة من السنة العاشرة من الهجرة، وضع النبي صلى الله عليه وسلم دستور الدولة الإسلامية وأسس الحياة الكريمة للإنسان في كل زمان ومكان، فقد نادى في جمع عظيم يقدر بنحو تسعين ألفا بصوت جهوري، أنصتت الدنيا لتسمع قوله، وأنصت الحجر والقفر والمدر إلى الكلمة المودعة ينطق بها فم رسول الله ﷺ بعد أن أنِسَت وسعدت به الدنيا كلها ثلاثة وستين عاما، هاهو اليوم يلمح بالرحيل بعد أن قام بأمر ربه وغرس الأرض بغراس الإيمان، وهاهو الآن يلخص المبادىء التي جاء بها من عند الله تعالى، وجاهد في سبيلها في كلمات جامعة وبنود معدودة، يلقي بها إلى سمع العالم.

كان يردد كلماته ﷺ وربيعة بن أمية بن خلف، وهو ﷺ يقف بين كل فقرة وأخرى قائلا بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه: (ألا هل بلغت، اللهم فاشهد).

«أيها الناس: اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك، فقد رضي به مما تحتقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيها الناس: إن النسى زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان. اتقوا الله في النساء فإنكم إنما أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، إن لكم عليهن حقا ولهن عليكم حقا: لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنة رسوله.

أيها الناس: اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي مجدع ما أقام فيكم كتاب الله تعالى. أرقاءكم أرقاءكم. أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون وإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه، فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم. أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه. تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم. وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم. وستلقون ربكم فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعل بعض من يبلّغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد (ثلاث مرات) ثم لم يزلﷺ في عرفات حتى غربت الشمس.

في هذا اليوم المشهود امتن الله تعالى على عباده المؤمنين بقوله سبحانه: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا). وأرى من الضروري أن أحلل شيئا ما هذه الوثيقة الخالدة لكي نتبين مدى تقدمية الإسلام على سائر النظم والمبادئ شرقا وغربا، وليس معنى هذا أن أقارن بين تشريعات الله وهذه النظم البشرية التي تصيب وتخطئ، إن المبادئ التي قررها الإسلام لحفظ كرامة الإنسان وحقوقه لا تزال برونقها وصفائها أكثر بهاء من كل ما وضعه البشر ووصل إليه التقدم، إن الإسلام يقر للإنسان بحقوق الإنسان أو (الحقوق الطبيعية)، هذه الحقوق قد أنكرها بعض المفكرين إذ قالوا: إنه لا يوجد حق طبيعي للإنسان وإنما الحق ما يمنحه المجتمع أو الدولة للشخص، بمعنى أن الدولة تقرر في دستورها أوفي قوانينها أن لكل فرد هذا الحق، وهكذا، واعتبارا بذلك فما لم تنص عليه الدولة من الحقوق لا ينبغي لأي فرد أن يتجرأ على أي حق، وقد وجه هؤلاء المفكرون إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أعلنته الجمعية العامة للأمم المتحدة في عاشر دجنبر سنة (1948) نقدا يهدمه من قواعده، باعتبار أنه ليس هناك حق طبيعي للإنسان إلا ما تقرره كل دولة داخل خريطتها، بينما يقرر آخرون أن للإنسان حقا قررته له الطبيعة، وقد ظهر هذا الاتجاه قديما لدى بعض فلاسفة اليونان، كما ظهر في العصور الوسطى إحياءٌ للتراث اليوناني، بل لقد طبق بعضهم ذلك على القانون الدولي باعتبار أن الالتزام بقوانينه يرجع إلى الالتزام بقوانين وضعتها الطبيعة، إذا أغفلتها الدول لم تستطع أن يعيش بعضها مع بعض في سلام.

وقد اختفى مذهب الحقوق الطبيعية للإنسان قليلا عقب القرون الوسطى باعتبار أنه نسبي وغير موفق، ولقد ساند هذا المذهب من بعض وجوهه مفكرون في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان حيث يتضمن صراحة أن للناس باعتبارهم آدميين حقوقا تفضلت بها الطبيعة، وعلى الإنسان مهما كان أن يحترمها.

والإسلام قد سبق إلى المناداة بما يتفق مع الرأي الأخير لأكثرية المفكرين القائلين بوجود حقوق طبيعة للإنسان ثابتة باعتبار آدميته، فضلا عما قررته الشريعة من الحقوق المالية والشخصية بالتفصيل الذي لا مزيد وراءه، فإن الإسلام يقرر في النصوص العامة للدين، حقوق الإنسان الطبيعية تقريرا لا لبس فيه، ومناداة الإسلام بتلك الحقوق تتميز على كل التشريعات البشرية بما فيها من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بما يأتي :

1) أن تلك الحقوق هي من تقرير الوحي السماوي فلا يعتريها التغيير والتبديل.

2) وأن تلك الحقوق لا يقررها الإسلام من

وجهة عامة نظرية كما هو الشأن في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، بل يعضدها بما في تفصيلات الشريعة مما يتعلق بالحقوق الخاصة من مالية وشخصية وسياسية، حيث لا يمكن فصل الحقوق الطبيعية عنها فصلا تاما، بل كل الحقوق كيفما كان تقسيمها وحدة متكاملة تستهدف صيانة كرامة الإنسان وتكميل ذاتيته، سواء فيما يتعلق بخالقه أو أسرته أو ملكيته أو بني جنسه.

3) وأن الحقوق الطبيعية للإنسان في الإسلام لها طابع الإلزام بالنسبة إلى الإطار الإسلامي، لأنها من مقررات الدين ولأنها تتضمن جزاءات دينية ودنيوية على من يخالفها، أما الإعلان العالمي للحقوق، أو ما يؤخذ منه من التشريعات فلا يعطي طابع الإلزام لأنه لا يتضمن أي جزاء للمخالفة، ولا أي ضمان للتنفيذ.

وأبدأ أشرح المبادئ العظيمة التي وردت في خطبة الوداع.

(إن دماءكم وأموالكم....) قال هذا باعتبار أن الحياة حق لكل إنسان، لأن الحياة منحة لله تعالى للإنسان فلا يملك أحد انتزاعها بغير إرادة الله، وقد أعطى حق انتزاع الحياة من الأفراد للدولة فقط، وفق قانون الجنايات لمصلحة المجتمع، وحماية الأفراد قال تعالى: **﴿ولكم في القصاص حياة﴾**، وقد صور القرآن الكريم جريمة القتل تصويرا إنسانيا بديعا: **﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكانما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكانما أحيا الناس جميعا﴾** لماذا؟ لأنه اعتدى على أمن الناس جميعا وأخل بسلامتهم جميعا، وعرض الإنسانية كلها للخطر والفوضى، ولم يكتف الإسلام بإعلان هذا المبدأ، بل وأعلن مع ذلك وجوب صيانة الحياة من كل ما يقضي عليها أو يضعفها، فطلب العناية بالصحة العامة ودفع الأمراض والأوبئة عن المجتمع.

وشدد الإسلام عقوبة الزنا لما فيه من اعتداء على الأعراض وعبث بالحرمة ونشر الفاحشة في المجتمع، ينشأ عنه تفككه بعد فترة، وتدليس في الأنساب وسرقة لعواطف الآباء بالبُنُوة المزورة، والمال إذا اجتمع من حلال وأنفق منه صاحبه باعتدال، كان ما بقي منه في يد صاحبه مضمونا تحميه الدولة وقوانينها وعلى المجتمع أن يحترم ملكية الغير، ولذلك شدد عقوبة السرقة لما فيها من اعتداء على أمن الناس والثقة المتبادلة بينهم، فجعلها قطع اليد إذا توفرت للسارق متطلباته الضرورية، ومع احترام الإسلام للملكية الشخصية، فقد جعل في الثروات الخاصة حقوقا للشعب تأخذها الدولة من تلك الثروات، لتحقيق التكافل الاجتماعي وغيره مما تحتاجه الدولة، ولذلك جاءت فريضة الزكاة وغيرها مما يقدر الحاكم المسلم فرضه لصالح المجتمع.

تحريم الربا: ﴿ألا وإن كل شيء...﴾

يهدف الإسلام إلى إقامة مجتمع تعاوني يربط بين أفراده بما يجعلهم كالبنيان يشد بعضه بعضا وكالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ومن ثم حرم أن يتخذ الغني حاجة أخيه الفقير أو دولته المحتاجة فرصة لاكتساب المال عن هذا الطريق الذي لا خير فيه للأفراد أو المجتمع، والذي يجعل الغني في تربص دائم لحاجة المحتاجين يستغلها في زيادة ماله دون عمل يحقق به نسبته إلى المجتمع، والذي ينزع من قلبه الشعور بالوحدة ومعاني الرحمة والعطف التي هي من خصائص الإنسان الفاضل، قال ﷺ: (إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وإن ربى الربا عِرْض الرجل المسلم) البيهقي

على أن هذا القرار: (ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية...) يعني أن كل ما كانت عليه الجاهلية من

فخر واعتصام بالتقاليد العصبية والقبلية، وفوارق اللغة والأنساب والعرق، واستعباد الإنسان أخاه الإنسان بأغلال الظلم والمراباة، قد بطل أمره ومات اعتباره، فهو اليوم جيفة منتنة غيبتها شريعة الله في باطن الأرض، وأصبح مكانها من حياة المسلم اليوم تحت موطئ الأقدام، إنه رجس ولّى إلى غير رجعة، وعماهة أدبرت، وغاشية بادت.

تحريم العبث بإرادة الله:

(إن النسئ زيادة في الكفر...) النسئ: بالهمز معناه الزيادة، يقال: نسأ ينسأ إذا زاد، ولا يكون بترك الهمز إلا من النسيان، ويتعدى بحرف الجر كقوله ﷺ: (من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه)، وكانوا يحرمون القتال في المحرم، فإذا احتاجوا إلى ذلك حرموا صفرا بدله وقاتلوا في المحرم، وسبب ذلك أن العرب كانت أصحاب حروب وغارات فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون على مجتمع، وقالوا: لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئا لنهلكن، فكانوا إذا صدروا عن منى يقوم من بني كنانة، ثم من بني فقيم منهم رجل يقال له (القلمس) فيقول: أنا الذي لا يرد لي قضاء فيقولون: أنسئنا شهرا، أي أخرعنا حرمة المحرم واجعلها في صفر، فيحل لهم المحرم، فكانوا كذلك شهرا فشهرا حتى استدار التحريم على السنة كلها، فقام الإسلام وأعاد كل شيء إلى موضعه.

التوصية بالنساء: ﴿اتقوا الله في النساء...﴾

كانت المرأة في الجاهلية لا تعدو أن تكون تابعة للرجل، ليس لها في نفسها قيمة، وإنما جاءت قيمتها من أن الرجل يريدها انتفاعا ومتاعا، فرفع الإسلام من قيمتها وقضى على الفوارق بينها وبين الرجل، أمام العدالة، وشرع المساواة بينهما فيما هو من خصائص الإنسان في الدارين، **﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فاولائك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾**. وقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق المدنية: فالزواج في الإسلام لا يفقد المرأة اسمها، ولا شخصيتها المدنية ولا أهميتها في التعاقد ولا حقها في التملك، ولا يجوز لزوجها أن يأخذ من مالها شيئا إلا برضاها، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن المرأة الغربية مازالت تعيش فيما يمكن أن نطلق عليه (الرق المدني).

- الحياة الكريمة في التمسك بكتاب الله وسنة رسوله:

(وقد تركت فيكم....) فقد وضع ﷺ الناس من جميع المشاكل التي قد تعترض حياتهم أمام مصدرين لا ثالث لهما، ضمن لهم في الاعتصام بهما الأمان من كل شقاء وضلال، هما كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. وإنك لتجده يتقدم بهذا التعهد والضمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده إلى يوم الدين، لقد شرع الله للبشرية ما يعلم سبحانه أنه متناسق وطبيعتها وفطرتها، وطبيعة الكون الذي تعيش فيه وفطرته، ومن ثم يحقق لهذه البشرية أقصى درجات التعاون فيما بينها والتعاون كذلك مع القوى الكونية الكبرى، شرع في هذا كله أصولا وترك للبشر فقط، استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجات الحياة المتجددة، في حدود المنهج الكلي والتشريعات العامة، فإذا ما اختلف البشر في شيء من هذا ردوه إلى الله ورسوله، ورجعوا به إلى تلك الأصول الكلية التي شرعها، لتبقى ميزانا يزن به البشر كل تشريع جزئي وكل تطبيق، وبذلك يتوحد مصدر التشريع ويكون الحكم لله وحده وهو خير

الحاكمين، وماعدا هذا المنهج فهو خروج على شريعة الله وعلى كتاب الله وعلى سنة رسول الله.

علاقة الحاكم بالمحكوم: ﴿إسمعوا وأطيعوا...﴾

في هذا النص يبين ﷺ ما ينبغي أن يكون عليه علاقة الحاكم أو الخليفة أو الرئيس مع الرعية أو الشعب، إنها علاقة السمع والطاعة من الشعب للحاكم مهما كان نسبه وشأنه ومظهره مادام يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإذا حاد عنهما فلا سمع ولا طاعة، فلا مناط لولاء الحاكم وضرورة اتباعه إلا سيره على نهج الكتاب والسنة، وليكن بعد ذلك إن شاء عبدا حبشيا مجدعا، فلا يخفضه ذلك قيد شعرة عن غيره عند الله تعالى، ولقد أوضح ﷺ بهذا أنه لا امتياز للحاكم من وراء حدود كتاب الله وسنة رسوله، ولا يمكن لحاكميته أن ترفعه قيد شعرة فوق مستوى المنهج والحكم الإسلامي، إذ هو في الحقيقة ليس بحاكم ولا يتمتع بأي حاكمية، ولكنه أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى، ومن هنا لم تتعرف الشريعة الإسلامية على شيء مما يسمى بـ (الحصانة) أو (الامتيازات) لطبقة ما بين المسلمين في شؤون الحكم أو القانون والقضاء.

لا رق في الإسلام: ﴿أرقاءكم أرقاءكم...﴾

عرفت البشرية منذ القدم (الرق)، وليس لدينا ما يخبرنا بأول مجتمع ضرب الرق على فرد أو فئة من الناس، بيد أنه يوجد في آثار عصور ما قبل التاريخ ما يدل على وجود الرق بصورة ما في تلك المجتمعات البدائية، ومن البديهي أن الرق لم يوجد إلا من تسلط قوي على ضعيف وقادر على عاجز وحاكم على محكوم، وكلما تطورت حياة البشر تتطور متطلباتها، وتتطور تبعا لذلك أسباب الضعف في جانب، وأسباب القوة في جانب آخر، وتتعدد روافد الرق ومنابعه وهي لا تتفجر إلا في البيئات الضعيفة، ولا يستفيد من تفجرها إلا الأقوياء، وهكذا عرفت الأمم الغابرة الرق، وكانت لا تتصور الحياة بغير رقيق. ولما جاء الإسلام ودك الأسوار العاتية التي كانت تحجب أنوار السماء عن أهل الأرض، ودمر الحواجز المصطنعة التي كانت لا تصل المخلوق بخالقه بدون وسيط، ولا حاجب ولا سادن ولا كاهن ولا راهب، بعد هذا شرع القرآن الكريم يصعد بالإنسان إلى معارج الكمال من مرحلة فاضلة إلى مرحلة أفضل، كيلا يصدم الإنسان فيما ألفه، ومن ثم لم يحرم الاسترقاق ولم يحرم الرقيق إلا بعد أن مهد الطريق لتحريمه وأعد نفوس السادة والأرقاء لمرحلة التحريم والتحرير، ونظر إلى المشكلة من جذورها فتعقبها بحلوله الحكيمة، وأسلوبه القويم، ليكون قضاؤه على المشكلة قضاء مبرما لا رجعة فيه، لقد حرم الله تعالى منابع الرقيق التي هي:

الحروب العدوانية،

والقرصنة اللصوصية والخطف،

والربا والميسر،

وتوالد الرقيق،

والطبقية بجميع صورها وأشكالها.

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾. فالله تعالى خلق الناس من طينة واحدة، لم يخلقهم لإهانتهم ولا لامتهان فريق وتكريم فريق آخر، بل كرمهم وفضلهم جميعا، لقد كرم الله هذا الإنسان بخلقه على أحسن تقويم، وبفطرته التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان، وبالاستعدادات التي أودعها في فطرته والتي استأهل بها الخلافة في الأرض، يغير فيها ويبدل، وينتج فيها وينشئ،

ويـركب ويحلل، ويبلغ بها الكمال المقـدر للحيـاة، وكرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمـداده بعون القوى الكونية في الكـواكب والأفـلاك، وكـرمـه بتسخير النواميس وجعلها مـوافقـة لطبيعـة الحيـاة الإنسانية، وما ركب فيها من استعدادات، ولو لم تكن هذه النواميس موافقة للطبيعة البشرية لما قامت الحياة الإنسانية وهي ضعيفة ضئيلة بالنسبـة إلى العـوامل الطبيعية في البر والبحر، ولكن الإنسان مزود بالقدرة على الحياة فيها، ومزود كـذلك بـالاستعـدادات التي تمكنه من استخدامها.

وقد ختمﷺ هذا الخطاب الكريم بتذكير المسلمين بالأخوة الإسلامية فقال: (تعلمن أن كل مسلم.....) إن الأخوة تكـون في النسب والـدين والـوطن، والصفـات والمبادئ والمعامـلات، ولكن أوثقها رابطـة وأحكمها عقدا وأثبتها مودة: الأخـوة في الـدين التي لا تنفصم عراها ولا تغيرها الأحداث والطوارئ، ولا تختص بقوم دون آخرين، ولا بـزمـان دون زمـان، وللمسلم على المسلم ألا يظلمـه لنفسـه ولا لغيره، وشر النـاس من ظلم الناس، ولا يسلمـه لمكـروه يحل بـه أو مصيبـة تنزل به، ولكنه يعينه ويقف معـه مـؤازرا ومنـاصرا يعـزه إذا ذل، ويكـرمـه إذا حل، ويشيعـه إذا ولى، وينصره إذا ظلم، ويـواسيـه إذا احتـاج وإذا أحسن شكره، وإن أساء عذره، ورحم الله الشاعر إذ قال:

إن أخاك الصدق من كان معـك ومن يضر نفسـه لينفعـك
ومن إذا ريب الزمان صدعـك شتت فيك شمله ليجمعـك

هذا هو المسلم المعدود عضوا صحيحا من جسم أمتـه، ولـو صحت الأعضـاء كلها لبلغنـا الغـايـة القصوى وأدركنا النهايـة، ولـو تسـانـد الإخـوان في المبادئ، لهان كل عسير وتم كل مراد، وصدق الله إذ قال: ﴿ولو شاء الله لهداكم أجمعين﴾

وأرادﷺ أن يطمئن إلى شهادة أمتـه بما أوصى، أمام الله تعالى يوم القيامة عند ما يسألـون.. فأعقب توصياتـه بأن نـادى فيهم قـائلا: (إنكم ستسألـون عني، فما أنتم قائلون؟)

وارتفعت الأصوات من حوله تصرخ: نشهـد أنك قـد بلغت وأديـت ونصحـت. وحينئـذ إطمـأنﷺ وشعشع الرضا في عينيه ونظر بهما إلى الأعلى مشيرا بسبابته إلى السماء ثم إلى الناس يقول: اللهم اشهـد. اللهم اشهد.. اللهم اشهد.

الرباط ـ أحمد الكتاني

الإمام ابن عبد البر في بعض مواقفه وآرائه

للأستاذ
عبد القادر العافية

1

استطاع العرب بالأندلس أن ينشئوا حضارة إسلامية ذات صيت بعيد، وذات سمات متميزة تألقت لفترة طويلة من الزمن، ولفتت إليها أنظار الناس شرقا وغربا، وتجلت مظاهرها في مختلف مرافق الحياة: في العلم والفن والمعمار، والزراعة والصناعة، ونُظُم الحكم، وميادين السياسة... حيث نبغ بالأندلس مجموعة من العلماء والأدباء، والفنانين والمفكرين... في مختلف ضروب العلم والمعرفة... وأصبحت بلاد الأندلس مبعث إشعاع حضاري بدَّد كثيراً من ظلمات الجهل في أوروبا، واستفادت من إشعاعه مناطق عديدة في إفريقيا وحوض البحر المتوسط، وفي سائر أنحاء المعمور.

والحضارة الأندلسية ارتكزت منذ البداية على أسس إسلامية، واقتبست من مبادئ الإسلام في تقديس المعرفة، وإشاعة ونشر الوعي الحضاري.

وتفانى أهل الأندلس في اقتناء الكتب واستنساخها وإقامة المكتبات، وتنافسوا في امتلاك المخطوطات، وأحسن المؤلفات... وضرب أهل قرطبة في ذلك الرقم القياسي، وتميز العالِم في الأندلس بمكانته المرموقة، وحظي بالتبجيل والاحترام، ومثّل العالِم أصدق تمثيل أهل الحل والعقد، بل كان في طليعتهم، وإليه المرجع في أمور الدين والسياسة، وعرف أمراء الأندلس قدر العلماء، ومكانتهم الاجتماعية، ومبلغ تأثيرهم في المجتمع، فأولوهم المكانة اللائقة بهم.

وظهر الفقهاء الرواد الذين تلقوا معارفهم بالأندلس، ثم تاقت نفوس كثير منهم إلى الرحلة إلى المشرق لتمتين الروابط العلمية، ووصْل السند وإعلائه... حيث درس عدد منهم على الإمام مالك بن أنس، وعلى من في طبقته، ونقلوا موطأ مالك بالسند المتصل، ومن هؤلاء: الغازي بن قيس، وزياد بن عبد الرحمن شبطون، وعيسى بن دينار، ويحيى بن يحيى الليثي... وهؤلاء يعدون من كبار علماء الأندلس، وعُرف يحيى بن يحيى الليثي بحكمته ورجاحة عقله، وغزارة علمه، وهو ممن أخذ عن مالك

ابن أنس، والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب، وغيرهم... وعاد يحيى إلى الأندلس واحتل بها مركز الصدارة، رغم امتناعه عن تولية المناصب.

وعلى يد هؤلاء وأمثالهم انتشر مذهب مالك بالأندلس وتحلى العلماء بكثير من أخلاقه وسماته، وشمائله... فأعطوا بذلك للعلم مكانته وقداسته في نفوس الأمراء، ونفوس الناس جميعا، وعرف تلامذة مالك كيف يقيمون لأنفسهم مكانة معنوية، وسياسة واجتماعية دون أن يثيروا شغباً، أو مخاوف الأمراء؛ وذلك لرجاحة عقولهم. وصدق نواياهم... وابن عبد البر الذي يساق إليه الحديث جاء في مرحلة ازدهار مكانة الفقهاء الكبار، عاش من القرن الخامس الهجري ثلاثاً وستين سنة، وعرفت الأندلس خلال ثلثي هذه المدة فتناً، واضطرابات، إذ أخذ صرح الخلافة الأندلسية ينهار لتقوم على أنقاضه إمارات ملوك الطوائف، واكتوى ابن عبد البر بهذه الفتن، مما حمله على مغادرة مسقط رأسه قرطبة فلجأ إلى كثير من جهات الأندلس شرقا وغربا، لكنه خلال هذه الفترة الحالكة من تاريخ بلاده لم ينقطع عن التدريس والتأليف وبث أفكاره بين طلابه، وعشاق مجالسه...

وابن عبد البر أشاد به كل من ترجم له؛ حيث وُصِف بغزارة الاطلاع، وكثرة المؤلفات، وروعة المنهج، وبالتفوق في ميادين متعددة من ميادين المعرفة والعلم، مما جعل ابن حزم يفخر به أيّما افتخار في رسالته في فضل أهل الأندلس.

وبإلقاء نظرة فاحصة على بعض مؤلفات ابن عبد البر نجد أن فكره يتسم بالاعتدال والهدوء والرصانة، ويلاحظ أنه يبتعد عن التطرف، وعن الآراء البعيدة عن الاعتدال والوسطية... فهو على تضلعه في العلوم واطلاعه على كثير من المذاهب والآراء داخل الأندلس وخارجها يرى المتتبع لأفكاره وآرائه أنه يسير في الخط الرصين الواعي البعيد عن التطرف. فهو قد وصل إلى درجة الاجتهاد، ومع ذلك ظل وفيا لمذهب مالك، ومشيدا بالاتجاه المالكي، وإذا ما اجتهد وخرج عن هذا الاتجاه ـ وقليلا ما يكون ذلك ـ فإنه يعلل مذهبه تعليلا منطقيا هادئا من غير أن ينقص أو يسفه أو يشنع... وهو في مناقشته لآراء الآخرين يناقش بصدق وموضوعية، باحثاً عن الحقيقة ومتلمسا للصواب... وسنلاحظ هذا بجلاء من خلال بعض النماذج التي سنتحدث عنها في هذا الموضوع، إذ هناك مواقف كثيرة تتجلى فيها اعتدالية ابن عبد البر ورجاحة فكره، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: موقفه من القياس.

وموقفه من الحديث المرسل

وموقفه ومن خبر الواحد

وموقفه من أقوال العلماء بعضهم في بعض

وموقفه من الخلاف في صفات الله تعالى

وموقفه من التعامل مع السلطة. ورجال الدولة

وموقفه من التقليد

إلى غير ذلك من آرائه ومواقفه التي تطالع القارئ أثناء قراءته لمؤلفات ابن عبد البر، وبخاصة منها كتابه: «جامع بيان العلم وفضله» وما ينبغي في روايته وحمله» الذي جعلتُ نماذج منه أساساً لهذا الموضوع. والمتتبع لكلام ابن عبد البر في هذا الكتاب يلاحظ أن مؤلفه وضعه لتوعية طلبة العلم وإرشادهم وتوجيههم إلى ما فيه سلامة الاعتقاد، وسلامة المنهاج في التدين والسلوك...

وهو بهذا الكتاب يضع بين يدي طلبة العلم دستورا يستفيدون منه، ومنهاجاً يسيرون على منواله، وبخاصة فيما يتعلق ببعض قضايا أصول العقيدة، وأصول الفقه، فهو بعد ما اطلع على الآراء والمذاهب والنحل المختلفة وأدرك مراميها، وما تدعو إليه... جعل من أهدافه في كتابه هذا: التوجيه والتنبيه، وإنارة الطريق أمام طالب العلم حتى لا تتخطفه الأهواء والنزعات... مستدلا بالآثار وعمل السلف الصالح، وعاملا على الأخذ بيد طالب العلم خشية عليه من الأفكار المتطرفة والآراء الزائغة... واختار له في هذا الكتاب ما يطمئن إليه قلبه وينشرح له فؤاده. ومن أجل ذلك فهو لا يترك فرصة إلا وحثه فيها على التدبر، واتباع الطريق السوي، والحفاظ على الوسيطة والاعتدال.

وفي عصر ابن عبد البر سواء بالمشرق أو بالمغرب كانت سوق الجدل والمناظرات حامية الوطيس، ففي الأندلس ظهر ابن مسرة ت: 318هـ بآرائه وأفكاره المتطرفة، ومن بعده ظهر ابن عيسى الإلبيري، وابن العريف، وابن قسي قائد حركة المريدين على عهد المرابطين... وهكذا ظهرت بعض الآراء التي لا تلتزم بالاعتدال، والتي تدعو إلى هذا المذهب أو ذاك... فجاء «جامع بيان العلم» ليرسم معالم الطريق الصحيح وليحذر من الزيغ والانحراف، ويدعو إلى الاعتدال وسلوك المنهاج القويم... وإذا كان الغالب على الجزء الأول من الكتاب الإشادة بطلب العلم، وما يجب عليه من الجدية في العمل والمثابرة عليه. وما ينبغي له معرفته من قواعد العلم، وقواعد السلوك... إذا كان الأمر هكذا بالنسبة للجزء الأول فإن الجزء الثاني من الكتاب يعالج موضوعات لها قيمتها وأهميتها في حياة العالم، والفقيه، والمفتي، وفي حياة من ينصب نفسه للتدريس والاشتغال بقضايا العلم ومسائله...

وتناوُل ابن عبد البر للموضوعات التي جعلها محور الجزء الثاني يجعله في مصاف الدعاة المهتمين بقضايا عصرهم المذهبية والفكرية والثقافية... وبخاصة منها ما يتعلق بالجانب العلمي المحض، والعقدي الصرف، فهو ابتداء من الفصول الأخيرة من الجزء الأول في توجيه طالب العلم إلى ما يجعل سلوكه سلوكاً نموذجيا في مجتمعه، وفي حياته الدراسية، فيحذره من طلب الرئاسة، والتنافس على المناصب، ويحذره من أن يكون طلب العلم من أجل الحصول على المال أو الجاه... ويأتي بالحديث: «صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس الأمراء والفقهاء». 1/184.

ويحذر ابن عبد البر العالم من الخروج عن جادة الصواب فيقول: «باب في ذم العالم الفاجر، وذم طلب العلم للمباهاة والدنيا» ويورد الحديث الآتي: «هلاك الأمة عالم فاجر، وعابد جاهل» وإن في جهنم أرحاء تدور على علماء السوء، ويذكر أن العلم ينسى بسبب المعاصي، وأن هذا النور لا ينسجم مع الانحراف عن جادة الصواب، ولا مع الطمع والشره... وبعد ذلك يركز على جملة من التحذيرات والتوجيهات... فيذكر أنه لا يحل لأحد أن يقول في شيء أنه حلال أو حرام إلا بنص كتاب أو سنة أو إجماع معتد به، أو قياس بشروطه، ويوجه طالب العلم بقوله: «إن الصحابة أعلم بما اختلفوا فيه» وهذا مبدأ أصيل من مبادئ أهل السنة ينسحب على المسائل الفقهية والسياسية والمذهبية... ثم يقسم العلوم، ويعطي رأيه فيها، وماله الأولوية والأسبقية منها، ومن هو الشخص الذي

يستحق أن يطلق عليه اسم عالم حقيقة لا مجازا، ومن يجوز له أن يتقدم للفتيا ومن لا يجوز له ذلك، ويؤكد على أن من سئل عما لا يدري وجب عليه، وتحتم أن يقول: لا أدري، من غير تردد أو التواء...

وهكذا يسترسل ابن البر في توجيه طالب العلم وإيقاظ همته وشحذ عزيمته وتحذيره من الوقوع في المزالق والانحرافات، إلى أن نصل معه إلى رأيه في القياس.

موقف ابن عبد البر من القياس :

عند ما أراد أن يثبت مشروعية القياس عنون كلامه عنه بهذا العنوان: «اجتهاد الرأي على الأصول عند عدم النصوص في حين نزول النازلة» وهو بهذا العنوان يعطي الخطوط الرئيسية للقياس عنده، ثم ينقل بسنده نصوصاً حديثية، وآثاراً مروية عن اجتهادات الصحابة والتابعين، وأئمة الفقهاء كمالك والشافعي وأبي حنيفة والأوزاعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم... ينقل هذه النصوص ليؤيد وجاهة استعمال القياس، وأنه لا غنى عنه باعتباره مصدراً من مصادر التشريع... ومعلوم أن الدراسات الأصولية المتعلقة بالقياس هي دراسات كثيرة ومتعددة قبل ابن عبد البر وبعده، ولكن الذي يهمنا هو نظرة ابن عبد البر لموضوع القياس حيث نراه يمزج أحيانا بين الطريقة الجدلية، وطريقة الاستدلال بالآثار، إلا أنه يعتمد بالدرجة الأولى على الآثار حيث يستعرض جملة من الأدلة على استعمال القياس، أدلة من الكتاب والسنة وإجماع أئمة الأمصار المشهورين، وهذه الأدلة هي عمدته وحجته، ولا يستعمل الطريقة الجدلية إلا نادراً.

ويلاحظ الباحث أن القرن الخامس الهجري الذي عاش فيه ابن عبد البر ـ أو عاش معظمه على الأصح ـ نلاحظ أن هذا القرن نشطت فيه الدراسات الأصولية بالمشرق والمغرب على السواء، ففي شرق البلاد الإسلامية ظهر علماء كبار اشتغلوا بالأصول، وألفوا فيها كتباً نفيسة، مثل: أبي إسحاق إبراهيم الاسفراييني ت: 413هـ بمؤلفه الجامع في أصول الدين، ورسالته في أصول الفقه، وأبي علي الحسين الصيمري (ت: 436هـ) مؤلف «مسائل الخلاف»، وأبي إسحاق الشيرازي مؤلف كتاب «الوصول إلى مسائل الأصول» أو ما يسمى كتاب «اللُّمَع» والمتوفى سنة 476هـ وهو أحد شيوخ أبي حامة الغزالي (ت: 505هـ) صاحب كتاب «المستصفى» و «شفاء العليل في بيان مسائل التعليل» وغيرهم كأبي الحسن علي بن عقيل: ت: 513هـ صاحب كتاب: «الجدل على طريقة الفقهاء».

وكان قد ظهر في القرن الرابع الهجري (محمد بن علي القفال) الشافعي (ت: 335هـ) الذي يعتبر مؤسس الكلام عن الجدل الأصولي.

وقبل هؤلاء كان قد ظهر ابن الراوندي (ت: 297هـ) وأبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل (ت: 324هـ) صاحب المذهب العقدي المشهور، وأبو منصور محمد الماتريدي (ت: 333هـ) صاحب مذهب عقدي ينسب إليه، وله كتاب «مأخذ الشرائع» وكتاب: «تأويلات أهل السنة».

هؤلاء جميعاً اهتموا بالمباحث الأصولية في شرق البلاد الإسلامية وغربها واحتجوا على وجوب استعمال القياس، وبأنه لا غنى للفقيه عنه، وجادلوا نُقَاتَه وناقشوهم...

وتتميز جماعة الأصوليين في القرن الخامس الهجري بدقة مباحثها، وبطول نفسها في الجدل الأصولي. وبرز في هذا الميدان أبو إسحاق المشار إليه آنفا، وهو مؤلف كتاب: «الوصول إلى مسائل الأصول» أو ما يسمى «باللمع» أو بشرح اللمع، وله كتاب «القياس» لم يعثر عليه لحد الآن، وأبو إسحاق هذا معاصر لكبار الأصوليين بالغرب الإسلامي مثل: أبي الوليد الباجي (ت: 474هـ) صاحب كتاب «المنهاج في ترتيب الحجاج» وإحكام الفصول في «أحكام الأصول» وابن حزم القرطبي الظاهري (ت: 456هـ) الذي توفي قبل صديقه وشيخه ابن عبد البر، وله كتاب: «الإحكام في أصول الأحكام» وكتاب: «التقريب بحد المنطق وإبطال القياس» وله «مراتب الإجماع»... وأتى بعدهما ابن العربي المعافري (ت: 543هـ) صاحب كتاب: «المحصول في علم الأصول» و «الإنصاف في مسائل الخلاف» وغيرها.

وكل هؤلاء تحدثوا ضمن مباحثهم الأصولية عن القياس، وباستثناء ابن حزم فهم جميعا يؤكدون أن القياس أصل من أصول التشريع، وردوا على نفاته ومنكريه...

وابن عبد البر في كتابه: «جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله» اهتم ببعض المباحث الأصولية، منها كلامه عن القياس الذي يسميه أحيانا «الاجتهاد» ومن ذلك قوله: «الاجتهاد لا يكون إلا عن أصول يضاف إليها التحليل والتحريم، وإنه لا يجتهد إلا عالم بها، ومن أشكل عليه شيء لزمه الوقوف، ولم يجز له أن يحيل على الله قولاً في دينه لا نظير له من أصل، ولا هو في معنى أصل - أي القياس - لا خلاف فيه بين أئمة الأمصار قديما وحديثا فتدبره...» (جامع: 55:2)

وهكذا يعطينا ابن عبد البر رأيه في القياس الذي هو عنده لا يكون إلا على أصل، والذي لا يقوم به إلا عالم بالأصول أي بالنصوص الأصلية من الكتاب والسنة، ويقرر ابن عبد البر أن من أشكل عليه شيء، ولم يستطع أن يقوم بالقياس على وجهه الصحيح... من كان كذلك لزمه الوقوف ولا يجوز له بحال أن يحيل على الله تعالى قولا في دينه لا نظير له في أصل من أصول التشريع، ولا هو في معنى أصل...

ومن أهم الأدلة التي استند عليها ابن عبد البر: حديث أنس عن معاذ لما بعثه رسول الله -ﷺ- إلى اليمن، وأتى برواية أخرى لهذا الحديث عن المغيرة بن شعبة عن أصحاب معاذ من الصحابة، ومن أهل حمص... ثم أتى بخبر عن الشعبي عن شريح أن عمر ابن الخطاب كتب إليه: «إذا أتاك أمر فاقض فيه بما في كتاب الله، فإن أتاك ما ليس في كتاب الله فاقض بما سَنَّ فيه رسول الله، فإن أتاك ما ليس في كتاب الله، ولم يسن فيه رسول الله، فاقض بما أجمع عليه الناس - فإن أتاك ما ليس في كتاب الله ولم يسنه رسول الله -ﷺ- ولم يتكلم فيه أحد، فأي الأمرين شئت فخذ به». وفي رواية «فإن شئت أن تجتهد رأيك فتقدم، وإن شئت أن تتأخر فتأخر». وبعد ذلك يستمر ابن عبد البر في إيراد النصوص المؤيدة لاستعمال القياس، وينقل بسنده عن سعيد بن المسيب عن علي (ض) قال: قلت يارسول الله الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض منك فيه سنة قال: اجمعوا له العالمين أو قال العابدين من المؤمنين: اجعلوه شورى بينكم. ولا تقطعوا فيه برأي واحد».ى

لكن ابن عبد البر ضعف هذا الحديث، ثم قال: «وعن عمر أنه لقي رجلا فقال ما صنعت؟ قال: قضى علي وزيد بكذا، فقال: لو كنت أنا لقضيتُ بكذا، فقال ما يمنعك والأمر إليك؟ قال: لو أردك إلى كتاب الله أو سنة رسوله -ﷺ- لفعلت ولكني أردك إلى رأيي. والرأي مشترك». فلم ينقض ما فعله علي وزيد».

ثم بعدما أتى بمجموعة من النصوص، قال: «وهذا كثير لا يحصى»(1) وقال بعد ذلك: «هذا باب يتسع فيه القول جدا، وكأنه بشير بهذا إلى المؤلفات الأصولية التي ظهرت في هذه الفترة بالمشرق والمغرب، ثم يقول: «وجاء عن الصحابة رضي الله عنهم من اجتهاد الرأي بالقياس على الأصول عند عدمها ما يطول ذكره». ونقل ابن عبد البر عن المزني قوله: «الفقهاء من عصر رسول الله -ﷺ- إلى يومنا هذا وهلما جرا استعملوا القياس في الفقه في جميع الأحكام من أمر دينهم، وأجمعوا أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، فلا يجوز لأحد إنكار القياس لأنه التشبيه بالأمور، والتمثيل عليها...»(2)

ويعطي ابن عبد البر أمثلة فيقول: «ومن القياس المجمع عليه: صيد ماعدا الكلاب من الجوارح قياساً، لقوله تعالى: **﴿وما علمتم من الجوارح مكلبين، تعلمونهن مما علمكم الله﴾** (المائدة/4)

وقال عزوجل: **﴿والذين يرمون المحصنات﴾** فدخل في ذلك المحصنون قياسا، وكذلك قوله تعالى في الإماء: **﴿فإذا أحصن﴾** فدخل في ذلك العبيد قياسا عند الجمهور إلا من شذ ممن لا يكاد يعد خلافاً، - وهو يشير هنا إلى داود الظاهري، وابن حزم -

ثم قال: «**وأجمعوا على توريث البنات قياسا على الأختين، وهذا كثير جدا يطول الكتاب بذكره...**».

ويلاحظ الدارس أن أكثر الأدلة التي استعملها ابن عبد البر مأخوذة من عمل الصحابة، والتابعين، وأئمة الفقهاء.

ويرد ابن عبد البر على داود الظاهري الذي يخالف الجمهور من أهل السنة في كون الربا يقتصر عنده فقط على ما جاء في الحديث: «البُر بالبُر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والذهب بالذهب، والورق بالورق، والملح بالملح إلا مثلا بمثل، ويدا بيد» ولم يقس عليها الحمص، والعدس، وكل ما يؤكل ويدخر» .

يقول ابن عبد البر: «وأما داود فلم يقس على شيء من المذكورات الستة في الحديث غيرها! ثم يقول ابن عبد البر: ورد عليه العلماء هذا القول، وحكموا لكل شيء مذكور بما في معناه، وردوا على داود ما أصل بضروب من القول...(3)

ثم ينقل الأدلة التي اعتمد عليها داود ويفندها، ولم يسم ابن حزم، وإنما عندما يذكر داود يقول: «ومن وافقه أو اتبعه... وابن عبد البر يرى أن داود قلد النظام، وبعض المعتزلة، ثم قال ابن عبد البر: وتكلم داود في إسناد حديث معاذ ورده ودفعه من

(1) جامع بيان العلم: 2: 55-59.

(2) نفس المصدر.

(3) جامع بيان العلم: 2: 63.

أجل أنه عن أصحاب معاذ ولم يسموا...» إلى آخر ما قال؛ ويجيب ابن عبد البر: بأن حديث معاذ صحيح مشهور، رواه الأئمة العدول وهو أصل في الاجتهاد والقياس على الأصول... ثم يقول: المذموم هو القياس على غير أصل، والقول في دين الله بالظن، وأما القياس على الأصول. والحكم للشيء بحكم نظيره. فهذا ما لا يختلف فيه أحد من السلف... وذكر أن أئمة فقهاء الأمصار كلهم قالوا بالاجتهاد واستعمال القياس فمن (أهل المدينة) سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر... ومن (أهل مكة) (واليمن) عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وعمرو بن دينار...» ومن (أهل الكوفة) علقمة، والأسود، وعبيدة، وشريح القاضي، ومسروق، ثم الشعبي... ومن (أهل البصرة) الحسن، وابن سيرين... ومن (أهل الشام) مكحول، وسليمان بن موسى، والأوزاعي... ومن (أهل مصر) يزيد بن أبي حبيب وعمرو بن الحارث، والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب... وسائر أصحاب مالك: ابن القاسم، وأشهب، وابن عبد الحكم... إلى أن قال: ومن (أهل بغداد) وغيرهم: أبو ثور، وإسحاق بن راهوية، وأبو عبيدة القاسم بن سلام... إلى أن يقول: وعلى ذلك كان العلماء قديما وحديثاً «عندما ينزل بهم» ـ وعندما ينزل بهم ـ كلمة لها مدلولها عند ابن عبد البر، لأنه وقع الخلاف هل يقاس مطلقا، أو عند ما تنزل النازلة، فذهبت طائفة من العلماء أنه لا يجوز القياس حتى يكون ما يوجب ذلك، وتنزل النازلة.

ثم يقول ابن عبد البر بعدما عدد أسماء مجموعة من كبار فقهاء الأمصار، يقول: «كلهم على إجازة القياس حتى حدث إبراهيم بن سيار النظام، وقوم من المعتزلة سلكوا طريقه في نفي القياس، ونفي الاجتهاد في الأحكام. وخالفوا ما مضى عليه السلف... وتبعهم من أهل السنة على نفي القياس في الأحكام داود بن علي بن خلف الأصبهاني، ولكنه أثبت الدليل، وهو نوع واحد من القياس...

ويحتاط ابن عبد البر في حكمه على داود بأنه اتبع المعتزلة، فيقول: «وداود غير مخالف للجماعة وأهل السنة في الاعتقاد، والحكم بأخبار الآحاد...» أي إنما اتبع داود المعتزلة في هذه المسألة فقط التي هي نفي القياس في الأحكام.

فرأي ابن عبد البر في القياس هو رأي جماعة أهل السنة المتسم بالاعتدال، وبالاقتداء بالسلف من الصحابة والتابعين. وهو يشترط لصحة القياس ـ كسائر فقهاء الأمصار ـ أن يكون القياس على أصل، وبأن تكون العلة واضحة في الأصل، وفي الفرع المقيس عليه، ويشترط كذلك أن يكون القياس لما نزل من الأحداث لا أن يقاس لشيء لم ينزل بعد، ويرى أن القياس يكون على الأصل، وما في معناه، وهذا ما ذهب إليه جمهور المالكية حسبما أكده ابن رشد الكبير قائلا: «إذا علم الحكم في الفرع صار أصلاً، وجاز القياس عليه بعلة أخرى مستنبطة منه، إلى مالا نهالة، ويؤكد ابن رشد أن هذا مما اتفق عليه مالك وأصحابه، لكن ليصير الفرع في معنى الأصل، لابد من اتحاد العلة في الفرع المقيس عليه، مع الأصل الأول الذي هو الكتاب، أو السنة، أو الإجماع، أما إذا كانت العلة مختلفة فالقياس باطل».(4)

(4) المقدمات لابن رشد : 21 ـ 22.

فمن خلال كلام ابن عبد البر عن القياس يتجلى أنه يلتزم بموقف جمهور الفقهاء المالكية، وأنه يعيب على من ينفي القياس ويبطله، لأنه يرى أنه لا مناص من استعماله، ويرى أنا باستعمال القياس سوف لا نقف جامدين أمام النصوص بل نقيس عليها بعد معرفة علة الأحكام فيها. وبذلك تلتحق الأشباه والنظائر بعضها ببعض... ويتعجب ابن عبد البر ممن لم يدرك هذه الفوائد الجليلة للقياس، فيعيب على النظام ومن وافقه من أهل السنة في القول بنفي القياس.

وابن عبد البر ينظر إلى القياس باعتباره حلاً ضروريا لا غنى عنه، ويبدو من خلال كلام ابن عبد البر، ومن رده بحرارة على منكري القياس أن مدرسة أهل الظاهر كانت تعمل على بث أفكارها ببلاد الأندلس... ولذا فابن عبد البر يحذر طلاب العلم من اتباع ما يخالف رأي جمهور جماعة أهل السنة، وبالقراءة المتأنية لكلامه في هذا الموضوع يدرك القارئ مدى أبعاد المعركة التي خاض غمارها كثير من جهابذة العلماء لردّ الناس إلى الجماعة وإلى الفهم القويم في أمور الدين.

سلا ـ عبد القادر العافية

الاجتهاد مظهر الأصالة والمعاصرة في الفكر الإسلامي

للأستاذ يوسف الكتاني

لن أحاول في هذا العرض أن أقدم دراسة أكاديمية عن الاجتهاد وخصائصه ومقوماته وشروطه، ومحاله ومجالاته وغيرها، مما يتصل بالاجتهاد كمصدر من مصادر الشريعة الإسلامية، لكون المفكرين والدارسين والباحثين الإسلاميين أشبعوا الموضوع دراسة وكتابة وتنظيرا.

كما لا أحب أن أغرق في تلك الشروط والقيود التي قضى بعضهم ردحا كبيرا من الزمن في تسطيرها وتفصيلها، والإلحاح على ضرورة توفر كل من يروم ممارسة حقه في الاجتهاد عليها والاتصاف بها.

وإنما أريد من وراء عرضي هذا، أن أثير الانتباه أولا إلى ضرورة العمل الجاد من أجل أن تعود الأمة الإسلامية إلى ممارسة حقها، في الإجتهاد كمصدر تشريعي أغنى وأعطى الكثير، وأجدى على المسلمين في أيام نهضتهم، وجعلهم يلائمون بفضله بين دينهم وحياتهم، ويحقق هذه الخاصية التي امتازت بها شريعتهم وهي صلاحيتها لكل زمان ومكان.

كما أنني أحاول ثانيا التحدث عن الوسائل المؤدية إلى الاجتهاد، والتي تستعمل لتحقيقه والوصول إليه سواء ما عرف منها قبل هذا التاريخ، أو هذه الوسائل التي استحدثت اليوم والتي قد تؤدي إلى خير.

وإنني لألح على ضرورة اتخاذ الوسائل الكفيلة بممارسة الاجتهاد، حتى تعود الحياة الإسلامية إلى مؤسساتنا ومجتمعاتنا، وحتى نقضي على هذه الازدواجية التي طغت على سلوكنا فغيرته عن وجهته الصحيحة، وعلى حياتنا فأبعدتها عن الطريق المستقيم، والسلوك القويم، الذي ينبغي أن يلتزمه المسلم، فلم نعد من الشرق ولا من الغرب، ولم تبق حياتنا إسلامية صرفة، وإنما أصبحنا بين بين، والتحقنا بصفوف المقلدين والتابعين كما تحدث الرسول الكريم بقوله: (لتتبعن سنن من قبلكم شبرا

بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قيل : اليهود والنصارى؟ قال : فمن إذن؟). ولله الأمر من قبل ومن بعد.

إن ما ترتب عن إقفال باب الاجتهاد من قضايا ومشاكل، كان في مقدمتها تخلف المسلمين وعدم التزامهم بأوامر دينهم، والمتمثل في هذه الازدواجية التي يعيشها عالمنا العربي والإسلامي، والقائم علي التزامنا بالإسلام في العبادات، وابتعادنا عنه في أغلب المعاملات وشؤون حياتنا، إذ لا يعقل أن تبقى هذه الازدواجية التي يأباها الله ورسوله طاغية على حياتنا، نقيم صلواتنا، ونؤدي زكاتنا، ونأتي حجنا، وتقوم حياتنا على هاته القوانين المستوردة، والتي تبيح ما حرم الله، وتحل ما حرم الله، كانتشار الخمور بيعا وتجارة، وتناولا وتداولا، وفشو الزنا بجميع أنواعه وأشكاله، والتعامل بالربا، وفسح المجال لمتعاطيه والمتاجرين فيه والمستغلين، وانتشار دور القمار، وغيرها من المحرمات الأساسية في ديننا، والتي تعتبر دخولها جزءا من ميزانيات أكثر الدول العربية والإسلامية، لقد ترتب على هذه الازدواجية أن أصبح الجيل الحاضر من شباب المسلمين أحد فريقين:

فريق : يعتقد أن الإسلام دين عبادات فحسب، وأن المعاملات وشؤون الحياة تنتظمها هذه القوانين الوضعية الدخيلة، وهي وحدها الكفيلة بتنظيمها وتقنينها، وهذا المفهوم العكسي للإسلام وروحه ونصه ناتج عن الغزو الأجنبي لبلادنا وسيادة قوانينه وأوضاعه على حياتنا.

والفريق الثاني : وهو المتمثل في شباب الصحوة الإسلامية والذي ساعدته ظروفه على الإلمام بالثقافة الإسلامية والتعرف على روح الإسلام ومقاصده، وهذا الفريق هو الذي يؤمن بأن الإسلام دين ودنيا، حكم ونظام، سلوك وقدوة، وهذا الفريق من الشباب، هو أمل المسلمين وعدتهم في مستقبل الإسلام وعودته نقيا صافيا كما كان وكما أنزل، وأنه يجب أن يسود حياتنا في البيت، والمدرسة والجيش، والشارع والمحكمة وفي السلم والحرب، وفي سائر ظروف الحياة، وبالتالي هو قدرنا وحياتنا وهويتنا.

إذن من هنا تكون الدعوة الصادقة والملحة لضرورة عودة الأمة الإسلامية إلى ممارسة حقها في الإجتهاد، أو عودة الإجتهاد إلى المجتمع الإسلامي للملاءمة بين دينه وحياته، والقضاء على هذه الازدواجية بين العبادات والمعاملات، لاستعادة المسلمين لمكانتهم وريادتهم في الحياة الإنسانية كلها، كما أرادهم الله وأناط بهم مسؤولية الدعوة إلى دينه إلى كافة الناس في الأرض جميعا.

تحرير الإسلام للعقل البشري

لقد رفع الإسلام عن العقل البشري الحجر والوصاية التي فرضتا عليه أزمانا وأحقابا، وأطلقه من إساره وقيوده التي اصطنعها الطغاة واللاهوتيون، وسرحه من جور التقليد والتعقيد إلى عدل الإسلام وحريته، وحرض الإنسان بمختلف صنوف التحريض على التفكير والتأمل، والنظر واستيعاب عجائب هذا الكون الذي يحيط به، وحمل العقل المسلم هذه الأمانة إلى البشرية كلها، فتفجرت بفضل ذلك ينابيع العلوم والفنون، والإدراك والابتكار، والاجتهاد الذي يعتبر في عرف الإسلام إطلاقا لقوى العقل، وجعل ذلك دينا، فوحد بين حقيقتين ظلتا على

مدى الزمن خصومة حادة وحد بينهما وجمعهما في إسماح وتآلف، وهما الحقيقتان الدينية والعقلية كما أكد ذلك الإمام الغزالي بقوله :

«الدين عقل من خارج والعقل دين من داخل» الأمر الذي وحد مفهوم كل الاتجاهات والمدارس الفكرية الإسلامية، سواء كانت عقائدية، أو لغوية، أو غيرهما، إذهنا تكمن خاصية التطور في شريعة الإسلام، يؤكد ذلك ويظهره أن الشريعة الإسلامية التي تستند قوانينها ومبادئها إلى القران والسنة كمصدرين أساسيين، لم تنص إلا على بعض الأحكام التفصيلية فيما يخص أو يتعلق بالحدود، والمواريث، وتنظيم الأسرة، ومعنى ذلك أن الإسلام لم يفصل إلا في مبادىء العقيدة والعبادات، وترك مجال المعاملات وهي مجال القوانين في عصرنا الحاضر، فلم يرد في القرآن والسنة إلا المبادىء العامة التي هي أساس كل تقعيد واستنباط واستلهام، وهذا هو السر في هذه الثروة الفقهية الضخمة الثرية التي استنبطها الفقهاء والعلماء على مر العصور، منذ ظهور الإسلام، لما استجد من الوقائع في الحياة، ولما عرض ويعرض من القضايا والمسائل، كما امتازت هذه القوانين والقواعد المستنبطة نفسها بكونها متطورة مختلفة من عصر إلى عصر، وفي المذهب الواحد نفسه، باختلاف المجتهدين والأزمنة والأمكنة جميعا.

الاجتهاد مظهر صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان

ومن هنا يكون الاجتهاد الذي هو استفراغ الوسع في تحصيل الظن بالحكم الشرعي، أي استنباط الحكم من دليله أي استخراج الحكم من الحجة ناشئا عن الملكة، يكون في شريعة الإسلام ضرورة حتمية مواكبه لحياة المسلمين لا في عصر دون عصر، ولا في زمان دون زمان، ولكن في كل العصور، وفي جميع الأزمنة، حتى يبقى المجتمع الإسلامي متطورا متجددا يجمع بين المادة والروح، ويلائم بين العبادة والمعاملة، ويعمل فيه المسلم لمعاشه كما يعمل لمعاده، باعتباره النافذة الضرورية، في حياة المسلمين، لتجد قضاياهم ومشاكلهم ووقائع حياتهم قواعد وحلولا لها، تطبيقا لخاصة الإسلام وقاعدته الأساسية وهي صلاحيته لكل زمان ومكان، باعتباره الدين الخاتم والصالح للإنسانية كلها، وذلك كله لا يتحقق إلا بممارسة الاجتهاد المستمر. يؤكد هذه الحقيقة الإمام الشهرستاني في «الملل والنحل» بقوله :

«إن الحوادث والوقائع مما لا يقبل الحصر والعد، ونعلم قطعا أنه لم يرد في كل حادثة نص ولا يتصور ذلك، والنصوص إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية، ومالا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، علم قطعا أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد».

ويعلل الإمام الخطابي ذلك «بأن الله لو نص على كل حادثة من الحوادث وكفى الناس مؤونة الاجتهاد والاستنباط لماتت الخواطر، وتبلدت الأفهام، وسقطت فضيلة العلماء فأمر بيّنٌ غيرُ خاف، وأيضا فلو جاء التوفيق في كل حادثة تحدث إلى آخر الدهر لاشتد حفظه، ولامتنع على الناس ضبطه، ولأدّى ذلك إلى الضيق والحرج عمن أمروا لتعدد عصره، والعجز عن ضبطه وحفظه».

إن توالي الحوادث والوقائع المستجدة والمعاملات المستحدثة، وذلك كله من طبيعة الحياة واستمرارها

ودوامها، يجعل تلك الحوادث والوقائع كلها محتاجة إلى أحكام وقواعد، وإلى استنباط إيجاد الحلول الملائمة لها، والوسيلة الوحيدة إلى ذلك هو الاجتهاد الذي هو حياة الأمة الإسلامية، ومظهر حيويتها واستمرارها، والباب الوحيد للملاءمة بين دينها وحياتها، واستمراره ضرورة لاستمرارها وبقائها، مصداقا لما أكده الشاطبي في «الموافقات» :

«إن الاجتهاد لا يمكن أن ينقطع حتى ينقطع التكليف وذلك عند قيام الساعة».

ومن هنا كان الاجتهاد واجبا في حق الأمة الإسلامية كما ذهب إلى ذلك أئمة الإسلام أمثال : الشاطبي، والشوكاني، والبغوي، والعزبن عبد السلام الذي اعتبره ضرورة، وطالب الأمة بممارسته حيث يقول :

«إن وقعت حادثة غير منصوصة أو فيها خلاف بين السلف فلابد فيها من الاجتهاد من كتاب أو سنة، وما يقول سوى هذا إلا صاحب هذيان»

ومستند المسلمين ودليلهم إلى وجوب الاجتهاد واستمراريته وممارسته، الحديث الشريف الذي وجه فيه الرسول الكريم معاذا عندما بعثه قاضيا على اليمن قال : «كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟

فقال : أقضي بكتاب الله.

قال : فإن لم تجد في كتاب الله؟

قال : فبسنة رسول الله.

قال : فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله؟

قال : أجتهد رأيي ولا آلو.

فضرب رسول الله صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله».

ومن هنا لم يكن علماؤنا في مختلف عصور الإسلام يترددون أو يحجمون عن الاجتهاد، وعن إلحاق الحكم الشرعي بكل حادثة جديدة عرضت لهم ولم تكن معروفة للسلف، مستدلين على ذلك الحكم استدلالا سليما من أصول الشريعة بواسطة قواعد الاستنباط التي يرشد إليها علم أصول الفقه، والمستمد من كتاب الله الذي هو أصل الأصول التي لا تنتهي إليها أنظار النظار، ومدارك أهل الاجتهاد كما ذهب إلى ذلك الإمام الشاطبي في موافقاته والذي اعتبر المجتهد هو كل من اتصف بوصفين:

أحدهما : فهم مقاصد الشريعة وكمالها.

وثانيهما: التمكن من الاستنباط، بناء على فهمه فيها، سواء كان يجتهد لنفسه أم لغيره، مما يعني ضرورة معرفة المجتهد المعاصر للموضوع المستحدث الذي يجتهد في استنباط أحكامه الشرعية.

أي أنه ينبغي الاجتهاد في حسن فهم الأحكام الشرعية القائمة، والتعرف على عللها من أجل حسن تطبيقها على ظروف مجتمعاتنا المعاصرة.

ثم الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية الجديدة التي تنظم المعاملات المستحدثة، والتي لم يكن للسلف بها عهد، ولم يكن لها في الشرع حكم قائم لازم لايستغنى عنه المسلمون في كل زمان.

الاجتهاد فرض على الأمة الإسلامية

ومن هنا أجمع العلماء وفي مقدمتهم الإمام الشاطبي إلى القول: بأن الاجتهاد فرض لازم للأمة الإسلامية واجب عليها، يقوم به الفرد الذي توافرت فيه شروطه، أو كل جماعة إسلامية في كل جيل ممن استكملوا أدوات الاجتهاد، وتهيأت لهم أسبابه من

علماء المسلمين. والاجتهاد مرهون بالتكليف، لأنه ضرورة من ضرورات الحياة الإسلامية لابد له منها، ولأن الحاجة إليه باقية ما بقيت الحياة، وقد أكد هذه الحقيقة القائمة الثابتة في حياة الأمة الإسلامية الهدي النبوي الشريف بقوله :

(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها) ولذلك ذهب الإمام الشوكاني إلى القول، بناء على هذا التوجيه النبوي الكريم : بأنه لا يصح أن يخلو عصر من وجود مجتهدين، كي لا تتعطل الشريعة عن التطبيق، وهذا هو المراد من قوله ﷺ وإرشاده لأمته.

وإذا كان الاجتهاد مرهونا بالتكليف، فهو قائم على المصلحة التي لا تقوم على الهوى، ولا على بناء الحكم الشرعي على ما يستحبه المجتهد دون دليل، وإنما هي المصلحة التي يشهد لها الشرع بالاعتبار، والتي لا تصادم نصوص الشريعة، أي هي المحافظة على مقصود الشارع، والتي ترمي إلى أن تحفظ عليهم نفسهم ودينهم وعقلهم وسلامتهم ومالهم كما ذهب إلى ذلك الغزالي في المستصفى.

إن مراعاة مصالح الناس هي مقصد الشارع الحكيم، ولذلك لم يتوسع الإسلام في تفصيل أحكام المعاملات المالية والاقتصادية، والنظم الإدارية، والعلاقات الدولية وغيرها، لتطور الاجتهاد بتطور البيئة واختلاف الزمان والمكان، وإنما دل على ذلك بوجه عام حتى يكون المسلمون في سعة من استنباط الأحكام، في ضوء المصلحة ودون حرج أو خروج على القواعد العامة للشريعة، كما أكد على ذلك الإمام الشوكاني بقوله في «إرشاد الفحول» :

«إن الله لم ينص على جميع الأحكام الشرعية أدلة قاطعة بل جعلها ظنية قصدا للتوسع على المكلفين».

ومن هنا كان تغير الأحكام لتغير المصلحة العامة كما أكد ذلك ابن القيم قائلا :

«السياسة العادلة جزء من أجزاء الشريعة» إذ جميع الأحكام الناتجة عن الاجتهاد ومراعاة المصالح تتبدل بتبدل الزمان وأخلاق الناس، وهي في الحقيقة مهما تبدلت فإن المذهب الشرعي فيها واحد، وهو إحقاق الحق وجلب المصالح ودرء المفاسد، وهو ما كان عليه اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان، قائما على المصلحة العامة، كما هو الشأن في كثير من اجتهاداتهم كالتسعير، فإنه كان منهيا عنه على عهد الرسول الأكرم ثم أبيح فيما بعد، وكالطلاق الثلاث يعتبر واحدة، ثم اعتبره عمر ثلاثة عقابا للمطلق وتبعا للمصلحة الظاهرة له آنذاك.

التجديد والتغيير

ولابد هنا من توضيح الأمر بالنسبة لفريقين من الناس :

فريق : يقف جامدا يأبى كل تطور أو تجديد، ومن تم فتح باب الاجتهاد.

وفريق : لا يفرق بين أمر التجديد والتغيير، ويرى هؤلاء أنه لابد من تغيير شامل لم وجدوا عليه أنفسهم وذويهم مجاراة لأحوال العصر، وخضوعا لناموس التطور، معتقدين أن هذا هو التجديد المأمور به والذي لا مندوحة عنه لفرض الوجود وضمان الاستمرار.

وأساس الغلط عند الفريقين ينشأ من عدم التفرقة بين المدلولين، فإن التجديد ليس هو التغيير

بل التجديد في الدين يكون بإظهاره بالمظهر اللائق، وعرضه على أحسن وجه، وذلك يقتضي المحافظة على جوهره، وعدم تغيير شيء من أوضاعه، وهذا هو المراد بالتجديد الذي يقوم به أولو الأمر من الأمراء والعلماء، كما فعل عمر بن عبد العزيز لما انحرف الناس عن الجادة في بعض أمور الدين فردهم إليها، وكما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية حيث نادى بالرجوع إلى صفاء العقيدة والتمسك بحبلها المتين.

ولما كانت أصول الإسلام هي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، تحددت مهمة التجديد وانحصر نطاقه، فما كان من قبيل العبادات أو الأحكام التي نص عليها الكتاب أو السنة أو أجمعت عليها الأمة، فالتجديد فيه يكون بالرجوع بالأمة إليه إذا انحرفت عنه أو اتبعت بديلا، أي إذا غيرت منه شيئا وتركت العمل به، وبالتالي، فلن يكون في العبادات وأحكامها تغيير كالصلاة والحج وغيرها، وكذلك الشأن في أحكام الزواج والإرث، والبيع والإجارة، فمن غير في شيء من ذلك فقد عهد إلى هدم الدين لا إلى تجديده.

أما مالم يردبه نص ولم يتقرر له حكم فيما سلف مما يحدث بحكم التطور وتقلب الزمن، فإن على العلماء والفقهاء أن يجدوا له حكما بواسطة قياسه على ما ثبت، وإلحاقه بما عرف، وهذا من التجديد أيضا لأنه بمقتضى بنائه على أسس الدين وقواعده المعتمدة فيه، يعتبر استمرارا له ونموا.

على أن التغيير لم يرد في القرآن إلا بمعنى الانحراف والزيغ عن السبيل كما قال تعالى :

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم﴾ أي لا يمنعهم رفده ولا يحجب عنهم رضاه إلا إذا بدلوا نعمة الله وكفروا وارتكبوا ما يستوجبون نقمته وعذابه، ومن ذلك الآية الأخرى **﴿ذلك بأن الله لم يكن مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم﴾**، مما يتبين معه أن التجديد هو غير التغيير، وأنه أكثر ما يتعلق بالاحياء، وأساليب التبليغ، وبلورة الأحكام العملية في قوالب تتمسك بالأصالة منسجمة مع النظرة المتغيرة للإنسان ومتطلبات الحياة، كما أوضح ذلك المرحوم عبد الله كنون.

وسائل الاجتهاد :

الاجتهاد الفردي والجماعي

لقد كان السبب الأساسي في الوصول إلى مرحلة الجمود والتبعية للأجنبي، غياب الشريعة الإسلامية عن منهج الحياة وأسلوبها، حتى إذا جاء القرن الرابع عشر الهجري سلخت من الشريعة كل مجالات المعاملات، ونقل الفكر الغربي إلى البلاد الإسلامية ليكون هو فقه المعاملات الجديد، والناظر إلى الجهد الفقهي من خلال فتاوي دار الإفتاء في الأحوال الشخصية، والوقف والعبادات، يجدها ثرية غنية، بينما في النظام السياسي والمعاملات، نلجأ إلى أهل المدارس الحديثة، ولو نظرنا إلى كل المؤلفين والباحثين عبر المائة سنة الماضية وإمكانية مالو أنهم بذلوا جهودا في هذا المجال، لوجدنا أنفسنا أمام سياق فقهي عظيم، وهذا هو سبب التخلف والجمود وحالة التصلب الفكرية التي واجهت أمتنا عندما عزلت الشريعة بفعل فاعل عن الواقع، وتوقف الاجتهاد العلمي في مجال التجديد الفقهي.

ولا يجب أن نغفل أن هناك مجددين ومجتهدين كثيرين على مر المراحل المختلفة، ولكن لم يكونوا

بالقدر الذي يؤصل حركة الاجتهاد ويصيغ من الشريعة ما يناسب الواقع.

وهذه الجهود امتدت عبر مدرسة القضاء الشرعي وشيوخ الأزهر أمثال : الشيخ المراغي، وشلتوت، والسنهوري، وعبد الحميد بن متولي، وغيرهم، كالشيخ محمد عبده، والشيخ جمال الدين الأفغاني من الرواد في مختلف البلاد الإسلامية كالشيخ عبد الرحمن الكواكبي، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ رشيد رضا، والشيخ محمد الكتاني، والشيخ عبد العزيز الثعالبي، والشيخ عبد الحميد بن باديس وسواهم من دعاة التجديد والإصلاح الذين نبهو الأمة الإسلامية إلى ضرورة العودة إلى ممارسة حقها في الاجتهاد للملاءمة بين دينها وحياتها، وكانت حركاتهم وصيحاتهم وكتبهم ونداءاتهم الناقوس الذي جلجل في آذان شعوبنا، وأيقظها من سباتها، وأنهضها من غفوتها، ودفعها للبحث عن نفسها، وتغيير واقعها المرير.

وهكذا لم يخل عصر من العصور، ولا زمن من الأزمنة الإسلامية من مجتهد من المجتهدين ولو على قلتهم وندرتهم في العصور الأخيرة، بسبب تيار الجمود والجحود الذي طمس نور التجديد والاجتهاد، ولم يستطع القضاء عليه بفضل الإرادة الثابتة والمصممة لأولائك الرواد ، للعودة إلى الاجتهاد، والتوسع في الدين، وإذكاء روحه في النفوس والقلوب عن طريق العودة إلى الأصول، والامتثال للضروريات الدينية، وإحياء القيم الإسلامية. لقد أكد هؤلاء الرواد أن الاجتهاد ضرورة من ضرورات بقاء الأمة الإسلامية واستمرارها، باعتبار الإسلام دينا يخاطب العقل، ويدعو إلى استعماله، مثنيا في الكتاب الحكيم على أولي الألباب وعلى الذين يعقلون والذين يتفكرون وأن البقاء والاستمرار للإسلام كدين خاتم لا يتحققان إلا بهذه الوسيلة، وإلا انقطعت ما بين الدين والحياة من روابط، وانفصل أحدهما عن الآخر، وسلكت الحياة طريقا ينكره الدين وهذا يؤدي إلى خمود شعلة الإيمان في القلوب كما ذهب إلى ذلك الدكتور علي فؤاد باشكيل من الرواد المعاصرين الأتراك، في بحثه عن الاجتهاد باعتباره مفتاح قضية المسلمين.

ولم يكتف هؤلاء الرواد العلماء بدعوة الأمة إلى ممارستها حقها في الاجتهاد، بل مارسوه هم أنفسهم سواء عن طريق الفتوى، أو عن طريق كتاباتهم وأجوبتهم لما يعرض عليهم من مشاكل العصر ووقائعه، وناهيك بفتوى الشيخ محمد الكتاني في أوائل القرن الماضي عن الجنسية والتجنس، حيث ذهب إلى تكفير المتجنسين من المسلمين، باعتبار المتجنس يستظل بظل الكافر، ويحتمي بحماه، مستدلا على ذلك بالآية الكريمة ﴿**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**﴾ لقد كانت هذه الفتوى الاجتهادية العظيمة ضربة كبرى لسلاح خطير وشر مستطير، أخذ يستشري في المجتمعات الإسلامية، ويمهد لاستعمارها، بتخطيط وتصميم من لدن أعداء المسلمين، واستطاعت هذه الفتوى أن تقف في وجه تيار التجنس وتقضي عليه، مما دعا كثيرا من علماء المسلمين في تونس والجزائر والشام ومصر وغيرها، إلى الاقتداء بها ونشرها والعمل بما جاء فيها، مما جعل فتوى تحريم جنسية غير المسلمين عملا تجديديا اجتهاديا رائعا جمع بين الأصالة والتجديد، في وقت كانت الأمة الإسلامية في حاجة إليها.

وكفتوى المرحوم عبد الله كنون الذي لا يرى الإحرام بالطائرة، وإنما يُحْرِمُ من جدة بناء على الحديث الشريف (هن لهن ولمن أتى عليهن إلى يوم القيامة) وكان يشاركه الرأي في هذا الموضوع العلامة المرحوم الشيخ الطاهر بن عاشور، كما نجد فتاوى اجتهادية عظيمة للشيوخ : الأفغاني وعبده ورشيد رضا والكواكبي، وذلك في أهم الوقائع والأحداث التي كانت جارية في عصرهم، غير أن هذه الاجتهادات الفردية لم تعد متفقة مع عصر الصحوة الإسلامية، وتعدد دول الإسلام، واختلاف أنظمة حكمها، وتعدد أساليبه، ورغبة المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي إلى آراء وفتاوى موحدة في شؤون دينهم ودنياهم.

الاجتهاد الجماعي

لقد عرفت العقود الأخيرة من القرن الهجري الماضي أنواعا من الاجتهاد الجماعي صدرت عن الهيآت العلمية، والروابط الإسلامية، والجمعيات الفكرية في مختلف دول الإسلام، وكانت هذه الفتاوى صدى لدعوات المصلحين للعودة إلى الاجتهاد، وذلك مثل الفتاوى الصادرة عن الأزهر الشريف.

والمجمع الفقهي بمكة المكرمة

ورابطة علماء المغرب،

والمجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر وغيرها.

إلا أن هذه الفتاوى أو بعضها اصطدمت بمعارضة الهيآت الإسلامية، كما وقع في فتوى المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر بجواز استبدال ذبائح الهدي بثمنها، عندما قرر المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي سنة 1395هـ عدم جواز ذلك ردا على الفتوى المذكورة. ولم يعد الزمان زمن الفرد، بل أصبح العصر مطبوعا بطابع الجماعة، كما أن الحكم لم يعد للفرد بل غدا الحاكم شخصا معنويا ينبثق من روح الجماعة، وهذا هو منطق الإسلام، إذ كان أول من ندد بالاستبداد، وحمل على الطغيان، وأنشأ نظام الشورى، وجعل يد الله مع الجماعة، ودعا إلى الاعتصام الجماعي بحبل الله **﴿واعتصموا بحبل الله جميع ولا تفرقوا﴾**.

كما كان من نتائج وآثار الصحوة الإسلامية التي تعتبر ظاهرة العصر في العالم الإسلامي، شعور المسلمين بالذنب إزاء الفرقة التي أصابت شعوبهم، وبددت كلمتهم، وشتتت صفوفهم، حتى أصبحوا دويلات لا حول لها ولا طول، بالرغم من موقعهم الاستراتيجي وإمكاناتهم المادية والطاقية، وكثرة عددهم، حتى أصبحت الوحدة، اليوم هدفهم وغايتهم لكي يصبح أمرهم بيدهم.

مجالات معاصرة للاجتهاد

لقد أخطا من قال : إن باب الاجتهاد أغلق، أو دعا إلى إغلاقه، متذرعا بشتى الوسائل والأسباب، ذلك أن نشاط الفتوى لم ينقطع أبدا طوال تاريخ الفكر الإسلامي، ومازال المفتون في جميع أنحاء العالم الإسلامي يجيبون المتسائلين، ويصدرون فتاويهم في كل حين، وكذلك ظل القضاء الشرعي قائما مستمرا، حيث ظلت الأحكام الشرعية تتوالى في الصدور، وهي مثل الفتوى دائما تحمل بين طياتها الجديد، الذي يحل مشاكل الناس، ويفصل في منازعاتهم مثلما تطمئن الفتاوى المستفتين المسلمين، وتهديهم إلى ما ينبغي عمله وتطبيقه، وإنما الذي توقف أو كاد هو

الاجتهاد الجماعي، نظرا لحال الدول الإسلامية وتفرقها، واختلاف أنظمتها، وقلة العلماء والمجددين والمفكرين، وانحسار دورهم بسبب الاستعمار الذي غزا دولنا بجيوشه ونظمه، وقوانينه وعاداته الغريبة عن مجتمعاتنا وكياننا، وعمل على عزل الدين عن الدولة، فقامت هذه الازدواجية التي مازلنا نعاني منها في حياتنا، بالتزام الإسلام وتطبيقه في العبادات، والابتعاد عنه في ميدان المعاملات التي تعتبر في نظر الإسلام روح الحياة وأساسها، لقيام العلاقات الإنسانية عليها، من باب تقليد المغلوب للغالب كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون، واستبدلنا مؤسساتنا الدينية ونظمنا الإسلامية بهذه المؤسسات والنظم التي تقوم كلها على الربا والاستغلال، كالبنوك بأنواعها المختلفة، والبورصات، ومؤسسات التأمين، والقرض، والقمار وغيرها، مما يتعارض مع أسس ديننا وأحكامه، وهذه في رأيي ومثيلاتها هي المجالات المعاصرة التي ينبغي أن تتصدى لها جهود وعمل الفقهاء والمجتهدين والمفكرين في العالم الإسلامي اليوم، حتى ترتفع هذه الازدواجية بين العبادات والمعاملات، وهذا التناقض من حياة المسلمين الذين أخذ شعورهم بالذنب يتعاظم من جراء ذلك، بفضل روح الانبعات التي أخذت تنمو فيهم، لانتشار التعليم والثقافة، وعودة الوعي لتصحيح المسار ومحاولات بعض الدول مراجعة تشريعاتها وتنظيماتها على هدي الكتاب والسنة، وظهور بعض المؤسسات الإسلامية التي تساعد على ذلك وإن كانت قاصرة في تكوينها وعملها، وعدم الالتزام بضمان تنفيذ قراراتها، كمحاولة مجمع البحوث الإسلامية الذي بدأ دراسة التأمين بأنواعه لمعرفة مدى اتفاقه واختلافه مع أحكام الشريعة الإسلامية، ومن العجيب أنه بدأ تلك الدراسة والمناقشة منذ أزيد من عشرين سنة، ومازال إلى الآن لم يصل إلى حل أو نتيجة مرضية، وهذا في رأيي هو عين القصور، وإلا فلا معنى أن يجتمع عشرات العلماء والمفكرين من أنحاء مختلفة لدراسة موضوع بعينه، ولم يصلوا فيه إلى حل بالتحريم أو بالإباحة، حتى يستريح المسلم في عالم اليوم من هذه المعاناة وهذا الشعور الذي أخذ يطغى وينتشر، بسبب الإيمان بشيء وإلزامه بتطبيق شيء آخر يعتقد حرمته، وننوه هنا بالمبادرة الطيبة المتمثلة في شركة التأمين الإسلامية المحدودة، التي أنشأها بنك فيصل الإسلامي السوداني بالخرطوم، برأسمال طرح للمساهمين شريطة عدم إفادتهم من فائض عمليات التأمين، وإنما يعود عليهم عائد استثمار رأس المال.

إن مؤسسات التأمين في أغلب أنواعها تقوم على وسائل وأنظمة، يطبعها الغرر والغبن والربا، كما أنها لا تخلو من شبهة المقامرة، وتتناقض أعمالها مع طرق الكسب الطبيعية والمشروعة، ولذلك اختلفت آراء وأنظار العلماء فيها، مما يحتم توحيد الرأي حولها بما يتفق وروح الإسلام وتعاليمه.

ومثل التأمين بجميع أنواعه من تعاوني وتجاري وغيرهما نجد مؤسسة أخرى تطغى على مرافق مجتمعنا، وتستقطب نشاطه، وهي البنوك القائمة على الربا والاستغلال، والتي شهد هذا الجيل محاولة جادة لتغييرها، وإحلال البديل محلها، بقيام البنوك الإسلامية التي تقوم على أساس الشريعة الإسلامية وهديها، والتي أثبتت تجربتها مصداقيتها ونجاحها حتى امتد نشاطها إلى أوربا.

ويوجد الآن حوالي ثلاثين بنكا ومؤسسة مالية إسلامية منتشرة في أرجاء العالم، إلى جانب مؤسسات أخرى يتم إنشاؤها في كثير من الدول الإفريقية والآسيوية، وفي الدوائر المالية الدولية الرئيسية، خاصة وأن هدف المصرف الإسلامي هو التوفيق بين ممارسة النشاط المصرفي في العصر الحديث، وبين الشريعة الإسلامية، وأن يوفر للمسلم وسائل استثمار مدخراته وفق أحكامها.

إن هذه التجربة الناجحة تؤكد أن المسلمين يستطيعون، لو هداهم الله وأرادوا، أن يقيموا في دولهم مؤسسات مالية واقتصادية تتفق ومبادئ دينهم، ويكون لها الأثر الأكبر في حياتهم، وحبذا لو سارعت الدول الإسلامية إلى تبني هذه التجربة الرائدة، ودعمها ونشرها وتوسيعها، اقتداء بالدول التي تبنتها واعتمدتها بعد التحقق منها ودراسة نظمها.

كذلك نجد البورصات، باعتبارها أسواقا مالية لتحديد قيم السندات والأسهم، وكافة الأوراق المالية، نجدها مجالا آخر ينبغي أن يستهدف نشاط الاجتهاد ومجالاته وكذا الأمر بالنسبة لمؤسسات القرض بجميع أنواعها وأصنافها لاضطرار المسلمين للتعامل معها، واستعمال أموالها، والعقود الاقتصادية الحديثة كعقد التوريد، والبيع بما يسفر عليه سعر البورصة، وبيع العقار قبل بنائه حسب المخطط، والشفعة فيما يقبل القسمة، وثبوت هلال رمضان برقيا أو هاتفيا، وأطفال الأنابيب، وقطع الغيار البشرية، كاستبدال القلوب والكلي والعيون، وزراعة الأنسجة، وبنوك الحليب، والأطعمة المستوردة من البلاد الأجنبية، والتنظيم العائلي أو تحديد النسل، واستعمال الحاسوب في جمع القرآن والسنة تسهيلا للاستدلال بهما، ووضع الودائع في البنوك الأجنبية وحكم الفوائد عنها، كل ذلك يدعونا للتفكير الجدي، والعمل المستمر، ورعاية هذه المحاولات الفردية والجماعية، في مجالات مهمة تستقطب حياة المسلمين، لما لها من مساس بدولهم وأنظمتهم، وتأثير في حياتهم ومجتمعهم، إنها تحتاج إلى رأي جماعي واجتهاد موحد تقوم به مؤسسة إسلامية، تجمع أهل الرأي وعلماء الإسلام في مجمع واحد، يتفرغ لدراسة هذه الأمور، واستخراج الحكم المناسب لها، وتقديم البدائل والحلول المتفقة مع مقاصد الإسلام، وروح الشريعة، والملائمة في نفس الوقت مع ما تقتضيه ظروف الحياة وروح العصر، وذلك بإقرار ما هو صالح ومتفق مع الشريعة، وإلغاء ما يتعارض مع أحكامها حتى تستقيم حياتنا، وتنتظم أمورنا.

مجمع الاجتهاد للعالم الإسلامي

ومن هنا أخذت الحاجة إلى مؤسسة اجتهادية جماعية تضم جميع ممثلي دول الإسلام وشعوبه، تتدارس أحداث المسلمين ومشاكلهم، وتتلمس لها الحلول والقرارات، وقد عرف منطلق القرن الهجري الماضي دعوة كريمة من عالم مسلم كبير هو بديع الزمان سعيد النورسي من أجل إنشاء مجلس شورى للاجتهاد كما أكده وأوضحه في كتابه: «الاجتهاد في العصر الحاضر».

وكم يكون لي الشرف أن أبادر بدوري إلى تجديد هذه الدعوة الكريمة، والمسلمون أشد ما يكونون حاجة إلى الوحدة سياسيا وفكريا وتشريعيا، خاصة وأن هذا المجلس سيكون أوسع وأشمل وأكثر

اختصاصا من هاته المجالس والمجامع الموجودة في العالم الإسلامي والتي تعتبر بدورها طريقا ورافدا لهذا المجلس.

ولهذا أقترح إنشاء مجمع الاجتهاد للعالم الإسلامي، ويعتبر هذا المجمع العقل المدبر والدماغ المفكر في العالم الإسلامي كله، لانتظام سائر الدول الإسلامية فيه ويتكون من:

1 ـ ممثلين لكل دولة إسلامية بنسبة 3ـ5 من كبار علمائها المرموقين ذوي الكفاءة والاقتدار.

2 ـ يختص هذا المجمع بالنظر في سائر قضايا المسلمين ومشاكلهم وجميع ما يتصل بحياتهم الفكرية والسياسية وإصدار القرارات الموافقة لأحكام الشريعة ومقاصدها.

3 ـ يكون أعضاء المجلس متفرغين لعملهم المتواصل بالمجمع الذي يعقد دورات فصلية تختم كل سنة بدورة عامة تعلن فيها قراراته.

4 ـ تصدر قراراته بالأغلبية المطلقة لأعضائه.

5 ـ يكون للمجمع مقر بمكة المكرمة، ويشرف على تسييره وإداراته رئيس وهيئة منتخبة من بين أعضائه بالتناوب مرة كل سنتين.

6 ـ يكون ممثلو كل دولة فروعا للمجلس في كل دولة إسلامية يكون أداة وصل بينها وبين المجمع، يتلقى المشاكل والمسائل ويحيلها على المجلس للبت فيها.

7 ـ تلتزم الدول المشاركة في المجمع بتطبيق قراراته والعمل على تنفيذها واحترامها وعدم مخالفتها.

8 ـ يصدر المجمع مجلة دورية أو سنوية تنشر قراراته باللغات المنتشرة في العالم الإسلامي.

وأخيرا أحب أن أنوه بأن أسباب الاجتهاد اليوم أسهل وأيسر منها فيما قبل، وذلك بفضل تدوين علوم القرآن والسنة، ومعرفة حالة الرواة، واستقرار علم الأصول ومعرفة طرق الاستنباط المعتمدة، مما يجعل أغلب العقبات التي اعترضت المجتهدين في السابق مهدت الآن وأزيلت. كما أن المصادر الرئيسية للأحكام الشرعية قد استنبط منها الفقهاء الأوائل جل ما يمكن استنباطه من أحكام شرعية مستحدثة، إذ أن الاستنباط في عصرنا يمكن عن طريق الأصول المكملة كالقياس والمصالح المرسلة والاستحسان وغيرها.

﴿يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ صدق الله العظيم.

مصادر البحث ومراجعه :

ـ القرآن الكريم
ـ تفسير القرطبي
ـ صحيح البخاري
ـ أعلام السنن للإمام الخطابي ـ شرح صحيح البخاري
ـ سنن أبي داود
ـ إحياء علوم الدين للغزالي
ـ المستصفى للغزالي
ـ الملل والنحل للشهر ستاني
ـ إرشاد الفحول للشوكاني

- الموافقات للشاطبي
- إعلام الموقعين - ابن القيم
- الاجتهاد والتقليد رضا الصدر
- جامع بيان العلم وفضله - ابن عبد البر
- الأحكام في أصول الأحكام - ابن حزم
- مقدمة ابن خلدون
- الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض للسيوطي
- رسائل ابن عابدين
- الاجتهاد في العصر الحاضر سعيد النورسي
- موقف الدين من العلم الدكتور فؤاد باشكيل
- موجز تاريخ تجديد الدين وإحياءه أبو الأعلى المودودي
- منطلقات إسلامية عبد الله كنون
- الحاجة إلى الاجتهاد اليوم ومجالاته للكاتب

الرباط - يوسف الكتاني

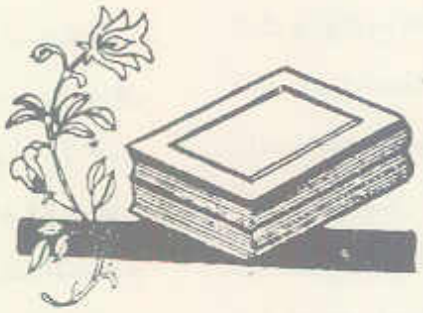

أسلوب الدعوة ومعوقاتها

للأستاذ علي آيت علي

من المسلم به أن عالم اليوم في تغير مستمر بين آونة وأخرى، والدنيا من حولنا في تطور دائم بين لحظة ولحظة، والإنسان الخليفة يتنقل من مرحلة إلى مرحلة، وتبعا لذلك فإن الفكر البشري في نمو مطرد، ورقي من حال إلى حال، وما كان ثابتا من النظريات إلى عهد قريب جدا لم يعد اليوم في جله كذلك.

وبناء على هذه الاعتبارات، فإن أساليبنا ومناهجنا في الدعوة والحوار والمجادلة، لابد أن تكون في مستوى الواقع المعيش والعالم المتغير الذي لا تعرف عجلاته للتوقف معنى، ولا للعاجز فيه مكان، وهذا يعني ضرورة كون هذه المناهج والأساليب تستجيب لمتطلبات العصر، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت متصفة بالشمولية والحداثة، بحيث تتناول مناحي مختلفة من هذه الحياة وبروح العصر.

ومن المعلوم أن لكل مقام مقالا، فالأسلوب العلمي لا يثمر مع البسطاء من الفلاحين والعمال ومن على شاكلتهم، كما العبارات البسيطة والكلمات المعادة في كل محفل لا ينطبع بها الطابع الجامعي، ولا تكون ذات وقع في المثقف الخبير بالمذاهب الكلامية والفكرية في العالم، مخاطبة الناس بقدر عقولهم، هو العمل الأسلم، والمنهج الأقوم.

فالداعية الحق لابد أن يكون في دعوته كالطبيب الماهر، يراعي ظروف من يحاور من حيث التكوين الفكري والمزاج النفسي، ومشاغله ومجالات نشاطه، فأساليب الخطاب لابد أن تتنوع تنوع الأفكار والمستويات العلمية والمعرفية، وتتعدد بتعدد مجالات القول والبيان. وهو المنهج الذي أرسى قواعده ومبادئه القرآن الكريم، ورسم طرقه ومسالكه لكل من تصدى لهذه المهمة الشريفة بدءاً من الرسول الحبيب ﷺ إلى كل من جاء بعده من الدعاة. وهو ما تبينه الآية الكريمة: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾.(1)

(1) النحل: 125

هذا هو سبيل الدعوة في شرع الله خالصا، لا تشوبه شائبة، ولا يلتمس الداعي من أحد جزاء ولا شكورا، بل يؤدي واجبه محتسبا. والدعوة بالحكمة تتضمن المعرفة الدقيقة بأحوال المخاطب وظروفه حتى تتضح معالم التعامل معه ويتحدد مجاله، والقدر الذي له قدرة على استيعابه كل مرة، بحيث لايشق عليه بكثرة التكاليف قبل استعداد عقلي ونفسي لها، كما أن من مقتضيات الحكمة التنويع في الأسلوب حسب مقتضيات الحال.

أما الموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن فقد قال عنها المرحوم سيد قطب: «... وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيرا ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

وبالجدل بالتي هي أحسن، فلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له ولا تقبيح حتى يطمئن إلى الداعي، ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها، ،والجدل بالحسنى هو الذي يطامن هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها في سبيل الله لا في سبيل نصرته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر».(2)

هكذا يبين القرآن أن على الداعية البلاغ والبيان، ولا ضرورة لِلَجَاجَةِ الحوار، والأمر بعد ذلك إلى الله عز وجل، ونحن المسلمين ما تمسكنا بهذا المنهج الرباني فسنكسب الرهان ضد الأعداء على اختلاف مشاربهم، وسنحوز قصب السبق لا محالة، إذ سر نجاح السلف الصالح في دفاعهم عن عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي نشر ألوية الإسلام خفاقة في كثير من أنحاء المعمور، إنما يكمن في التزامهم بمنهج القرآن وتطبيقه قولا وعملا وسلوكا.

ففي القرآن من الحيوية والاستمرار ما جعل الأعداء يتخوفون من الإسلام بالرغم مما أصاب أهله من جمود وركود عهودا طويلة، وإلى هذا أشار المفكر الألماني «شميتز» في كتابه المسمى «الإسلام قوة الغد العالمية» حيث قال: «ويتضح أن قوة القرآن في جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن، ولم تنجح الأحداث التي مرت بالمسلمين في القرون الأخيرة في زعزعة ثقتهم به، كقوة روحية تستطيع أن تجمع التيارات المختلفة (...) إن الروح الإسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة وعواطفهم، وستظل كذلك مادامت هناك شعوب إسلامية ربطت مصيرها بتعاليم الإسلام، وأعتقد أن الرباط الجامع بين أجناسها المختلفة هو الإسلام».(3)

---

(2) في ظلال القرآن 4/2202. ط 1ـ دار الشروق 1982

(3) عن مجلة الوعي الإسلامي، مقال للأستاذ محمود قطام تحت عنوان «الصحوة الإسلامية إلى أين؟» ص: 36، 37 عدد 242/1405هـ

وما انهزم المسلمون إلا بسبب إعراضهم عن تعاليم السماء، وما ضعفوا وما استكانوا إلا يوم تخلوا عن تحقيق الانسجام بين الدين والدنيا، سيما وعقيدتهم لم تقتصر على الشعائر التعبدية وحدها، وإنما هي شريعة ومنهاج دين ودنيا **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك﴾**.(4)

فنحن حينما نستعرض أمامنا أشرطة حضارية إنسانية عبر عصور خلت من تاريخ البشر، فإننا سنجد لا محالة أن أمة القرآن، احتلت مركز قيادة العالم عشرة قرون أو تزيد، قيادة رشيدة حكيمة في الوقت الذي كانت متغيثة ظلال القرآن، ومستنيرة بهدي خاتم الرسل ﷺ ومتلبسة بمنهج السلف الصالح في التعامل مع الواقع الإنساني، ولكن حدث مالم يكن في المحسوب، ولا يتصور أبدا في أمة كتابها القرآن حيث أصيب المسلمون بنكسة خطيرة أخّرتهم عن مركز تلك القيادة الحكيمة، وجعلتهم على الهامش يوم ابتعدوا عن حضارة الإسلام بكل أبعادها وأعماقها، فتقدم تلامذتهم من الغرب، واعتلوا تلك المكانة التي انهزم أهلها، وقادوا العالم بحضارة مادية صرفة بدل الحضارة المستمدة من نور الوحي الرباني، فارتكس العالم الإسلامي، وأصيب برجفة قوية، وصوحت بقيمه رياح التغريب، فتربى في أحضان هذه الحضارة الملحدة أجيال إسلاميون عاقون لتاريخ أمتهم وأمجادها، متنكرون لمنابع أصالتهم وقوتهم، فسخّروا ما توافر لهم من مؤهلات على مستوى العقل والقلم والمنبر لخدمة حضارة الغرب.

أما معارفهم عن حضارة دينهم فقد عُدَّتْ ضَحْلَةً لا تسمن ولا تغني، وأصبح كل ما يقدم من قبل الغرب القوي محل إعجاب وتقدير، وما علموا أن تلك الحضارة في عصور من التاريخ قد اغتالت العقل العلمي في ريعان شبابه، وقضت على التسامح والسلم والتساكن بين أمم الأرض بعقوبة نافذة، وتسلطت على الشعوب المستضعفة واستعبدتها غلبة وقهرا.

بعض معوقات الصحوة الإسلامية:

وبخصوص معاناة اليقظة الإسلامية تجاه المجتمع العالمي فإنها معاناة جد قاسية، واجهها الأعداء بحرب ضروس جهّز لها كل أسلحة الدّمار، ووضع في طريقها ألغاما موقوتة تزلزل الأرض تحت أقدام الدعاة بين حين وآخر، وتعترض مسيرة الحركة المباركة للحيلولة دون اكتشاف العالم الإسلامي هويته وذاتيته من جديد.

ومع ذلك، فالخطر الأكبر الذي يواجه صحوتنا لم يعد مع القوى الخارجية بقدر ما هو مع «البيت الإسلامي» إن صحت العبارة، لأن التيارات الوافدة على أرض الإسلام ـ وخاصة بعد الثورة الفرنسية ـ قد منيت بهزائم تاريخية ماحقة، إذا ما استثنينا الجانب الفكري الذي لا تزال وطأته قاسية على العالم الإسلامي.

ففي قطر عربي ـ مثلا ـ بالشرق الأوسط، ذكر السيد «جمال سلطان» أن أحد الأحزاب العلمانية «عندما رشح أفرادا منه لخوض الانتخابات البرلمانية وضع شعاره: «تطبيق الشريعة»!! إذن معركة

(4) القصص: 77

الداخل الإسلامي «حليفا» بفعل توافد جماعات من المفكرين والباحثين ممن يحملون تراثا شخصيا علمانيا أو قوميا أو شيوعيا. توافدهم إلى الساحة الإسلامية واتجاههم إلى البحث ومخاطبة الجماهير تحت شعار الإسلام».(5)

ومن هذه النماذج شخصيات من عالم الفكر تَزْعُمُ في كتاباتها أن هناك أكثر من إسلام! وأنه ليس للإسلام نواة صلبة تستعصي على معاول الهدم، وتحفظ له الوحدة، وتصونه من الفرقة»(6)! والأدهى والأمرّ كون بعض هؤلاء زعم عدم وجود نص شرعي لقيام دولة إسلامية، مدعيا أن الحكم بما أنزل الله لم يخاطب به المسلمون، وإنما المطالب بذلك اليهود والنصارى.(7)

وهذا يمثل أخطر محنة ابتلي بها الفكر الإسلامي اليوم، والمتمثلة في انعدام الفهم الشمولي للإسلام الجامع بين الدين والدنيا، إذ هما متكاملان متلازمان في شريعة الإسلام، فهو لم يوجه أتباعه إلى العبادة التي تشغلهم عن الحياة الدنيا وما فيها من حركة ونشاط، وإنما هو نظام كامل عادل سعى في إصلاح أمور الدنيا والدين، وأعطى لكل جانب ما هو جدير به من أهمية وتقدير. يقول الشاعر الفيلسوف المرحوم الدكتور محمد إقبال: «فليس في الإسلام

وهذه الحقيقة عن طبيعة الإسلام أصبحت من الوضوح لدى المسلمين بحيث لا تحتاج لإقامة برهان لكونها حقيقة تاريخية عايشها المسلمون عقيدة وسلوكا عبر عصور وأجيال، بل غدا حتى بعض المستشرقين المنصفين عموما – رغم بعدهم عن بيئة الإسلام الطاهرة – يؤمنون بهذه الحقيقة الساطعة، ويُنافسون أبناء هذا الدين في تأكيدها. ومن هؤلاء «لويس كرديه» الذي صرح باقتناع وإعجاب، وعن فهم وإدراك قائلا: «بأن الإسلام دين، وبأنه أيضا في تعاليمه الأساسية جماعة تحدد باسم الدين لكل عضو فيها ولجميع أعضائها على السواء شروط الحياة وقواعدها، فالحياة العائلية والاجتماعية والسياسية والدينية المحضة والمصلحة العاجلة في هذه الدنيا والنعيم المقيم لكل مؤمن بالحياة الآخرة، كل ذلك مرسوم في وحدة كلية كبرى يهيمن عليها الإسلام وينفخ من روحه...».(9)

فكيف لمفكر مسلم كالدكتور محمد أحمد خلف الله يزعم أن المسلمين غير مطالبين بالحكم بما أنزل الله، وأن الإسلام قاصر على الرابطة بين العبد وربه، ولا صلة له بما يجري على هذه الأرض ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾.(10)

---

(5) جمال سلطان، أزمة الحوار الديني ص: 8. ط 1 ـ دار الصفا ـ 1990

(6) صاحب هذه الأطروحة الغربية، د ـ فؤاد زكرياء في مقال شارك به في الندوة التي عقدت في الأردن بتاريخ 14ـ87/3/16. موضوع «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي» انظر جريدة «المسلمون» عدد 286 في 27ـ90ـ7

(7) صاحب هذا الزعم د ـ محمد أحمد خلف الله في الندوة نفسها. المصدر نفسه

(8) د ـ محمد اقبال ـ تجديد الفكر الديني ص: 77. انظر العروة الوثقى ص: 52

(9) د ـ صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص: 56، 57. ط 2 ـ 1968

(10) المائدة، 50

وقد ذكر الأستاذ جميل سلطان «أن الحوار الديني قد تلوث بفعل دخول نفر من الماكرين والكتاب والباحثين إلى ساحة الفكر الإسلامي دونما ارتكاز على قواعد أخلاقية وقيم علمية تحكم نزاهة الحوار وطهارته»(11) ثم استعرض نماذج من ذلك، فكان مما ورد في عرضه «في أوائل الثمانينات حدث أن قامت إحدى المجلات الثقافية الكويتية ذات الطابع العلماني بتنظيم ملف شهري، كلٌّ جُلّ المشاركين فيه ممن يحملون عداوة تقليدية للفكر الإسلامي والصحوة الإسلامية، وبعضهم من التيار «الانقلابي» الوافد إلى الساحة الإسلامية».(12)

وهكذا تتأكد لدينا حقيقة مُرّةٌ، وهي كون العالم الإسلامي قد أفلح في التخلص من الغزو العسكري، ولكنه لم يستطع حتى الآن أن يتحرر كلية من الغزو الفكري والحضاري الذي له من قوة التأثير ماجعل العديد من المسلمين ينسى انتماءه وتراثه وحضارته، ويحيا حياة فاتنة بكل وافد غربي! فنشأت في ظل هذا الإرث الاستعماري الثقيل أجيال من أبناء أمة القرآن، بعضهم لا يعنى بأمر الدين ومايجري حوله من صراعات مريرة، ودسائس ماكرة، بل لديهم قناعات بصحة ما تنشره أبواق العلمانية من كون التقدم العلمي عند غير المسلمين، إنما يرجع إلى التحرر من القيم الدينية، وهو زَعْمٌ الغرض منه الإغراء بالتخلي عن الإسلام جملة وتفصيلا.

أما البعض الآخر منهم فهو يتعاطف مع دين الآباء والأجداد بحكم الوراثة لا عن قناعة وفهم ووعي وإدراك.

ولئن خسر معركة فإن للإسلام قوة لا تقهر، وله في نفوس الأعداء رهبة ومهابة وخوف من عودته إلى مركز الريادة، فهذا أحد أقطاب الفكر الغربي، وهو «شميتز» الألماني يؤلف كتابا بعنوان «الإسلام قوة الغد العالمية» كان مما جاء فيه: أن الأمة الإسلامية ستعود إلى سابق مجدها إذا هي أحسنت صنعا، واستفادت من حالة التراجع والتقهقر والجفاء التي أصابت الحضارة الغربية، وإذا هي أحسنت استثمار مصادر قوتها وإمكاناتها المتاحة، فإن المسلمين سيعودون من جديد حاملي لواء الحضارة والتجديد ومشاعل النور للبشرية، معيدين بذلك مسيرتهم الأولى حين سادوا العالم، وسيعيد التاريخ نفسه مبتدئا من الشرق الإسلامي عودا على بدء من المنطقة التي قامت فيها القوة الإسلامية العالمية في الصدر الأول للإسلام، وستظهر هذه القوة التي تكمن في تماسك الإسلام ووحدته العسكرية، وستثبت هذه القوة وجودها إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والعمل على الإفادة منها، وستقلب موازين القوى، لأنها (أي قوة الإسلام) قائمة على أسس لا تتوفر في غيرها من تيارات القوى العالمية.(13)

ويحذر هذا المفكر العالم العربي من الصحوة الإسلامية فيقول: «إن انتفاضة العالم الإسلامي هي صوت نذير لأوربا، وهتاف يجوب آفاقها، تدعو إلى التجمع والتساند الأوربي لمواجهة هذا العملاق الذي بدأ يصحو ويزيل النوم عن عينيه».(13 مكرر)

هذه نظرة تقويمية من الغرب لليقظة الإسلامية التي أقل ما يقال عنها أن المسلمين يعيشون الآن

---

(11) أزمة الفكر الديني ص: 16 ـ ط 1

(12) نفسه ص: 18

(13) عن مجلة الوعي الإسلامي، العدد المتقدم ص: 36 (242/1405هـ)

إرهاصاتها، وسيرون غدا – بإذن الله – نتائجها المشرقة، ،عطاءاتها الخيرة، لا للمسلمين وحدهم، ولكن للعالم أجمع.

● ومن العوائق كذلك كون الأنظمة السياسية غير الديمقراطية هي المسؤولة عن انتعاش التطرف لدى بعض الحركات الإسلامية، هذا التطرف المخالف للدين الوسط ولروحه هو الذي حال دون اكتساح تيار العمل الإسلامي مختلف المجالات بوسطيته «وحرصه على السلفية والتجديد، وبموازنته بين الثوابت والمتغيرات، وباعتداله بين التجميد والتمييع وبفهمه الشمولي للإسلام».(14)

فالإسلام – كما يقول الدكتور القرضاوي: «ليس كما يصوره العلمانيون تراثا ولا ماضيا، بل هو ماض وحاضر ومستقبل، وإن كان بعض الإسلاميين يخطئون في فهم الإسلام على أنه تجاهل لمشكلات اليوم وتطلعات الغد والأحكام القطعية، فالثوابت التي لا مجال للكلام فيها هي العقائد والعبادات والقيم الأخلاقية العليا كالإخلاص والصدق والأمانة وتجنب أمهات الرذائل، وبعبارة أوجز: فالإسلام ثبات على الأهداف والأصول الكلية، ومرونة في الوسائل والفروع، ... ثبات على القيم الدينية والأخلاقية، ومرونة في الشؤون الدنيوية والعلمية».(15)

● ومن العوائق أيضا إعراض جل الشباب المسلم عن القراءة الجادة والمفيدة في هذا الحقل لأسباب كثيرة ليس هنا مجال ذكرها تفصيلا، ولعل من أهم الأسباب كون المحصول المعرفي عندهم ضعيفا مما أفقدهم ملكة القراءة والميل إليها، وحتى من يقرأ منهم – وهم قلة – فإنما يقرأ ما يرضي غروره ونزواته، ويحقق له متعا رخيصة، كالقصص الماجنة والروايات البوليسية وأخبار السينما والفيديو والرياضة، مما جعل الصلة بينه وبين تراثه الفكري الإسلامي ضعيفة واهية.

وتدارك الموقف تقع مسؤوليته على الآباء ورجال التعليم وعلى الوزارات المعنية في العالم الإسلامي من تعليم وثقافة وأوقاف، لإزالة هذا العائق عن مسيرة اليقظة الإسلامية المباركة.

وأول ما يتوقف عليه الشباب المسلم، هو درس دينه وحضارته على مستوى الكتابة والسنة دراسة واعية متأنية، والتعرف على مناهج البحث والدرس عند السلف الصالح من هذه الأمة الخيرة، فإذا استطعنا غرس القيم الروحية في أفئدة وعقول ناشئتنا، فإن هذه المثل وهذه القيم ستكون حصانة لهم ووقاية من كل الفتن، وتنمي فيهم وتقوي روح الاعتزاز بالانتساب إلى الإسلام الذي ارتضاه الله لنا دينا.

● ومن العوائق كون الأمية متنامية بشكل لافت في عالمنا الإسلامي مما أوجد واقعا مؤلما يتحتم معه أن نمد يد العون إلى كل مسلم أينما كان لمحو الأمية ومحاربة الجهل، وهي مهمة صعبة وثقيلة تتوقف على تخطيط ومال ومواكبة وإخلاص.

● ومن العوائق كذلك عَمَلُ المبشرين داخل أوساط إسلامية جاهلة فقيرة وقد قرأنا في وسائل الإعلام – كمثال – أن المنصرين بأندونيسيا المسلمة

---

(14) د ـ القرضاوي في عرضه المقدم في الندوة المعقودة في الأردن عام 1987.
نقلا عن جريدة «المسلمون» عدد 286 ص: 11 ـ المحرم ـ 1411هـ

(15) المصدر نفسه

بـدأوا في تطبيق أسلـوب مـاكـر لجذب المسلمين إلى باطلهم، وهذا الأسلـوب يتمثل في بنـاء الكنـائس على نمط الهندسة المعمارية الإسلامية في بناء المسـاجـد، وكذلك طباعة الأناجيل على هيأة المصاحف.

وتجدر الإشارة إلى أن المنظمات التنصيرية في هذا البلد تمتلك إمكانات هائلـة لخدمـة أغـراض التبشير، ومن هذه الإمكانات محطات إذاعية ومطارات خاصـة وطـائرات وسفن تـربط بين جـزر أنـدونيسيـا ومستشفيـات ومـلاجيء خيريـة... كل ذلك من أجل تمسيح هذا البلد المسلم، ويقـدر بعض المراقبين لهذه الحركة عدد الـذين تم تنصيرهم في هـذا البلـد حتى الآن بما لا يقل عن عشرين مليـون شخـص، وقـد خطط المبشرون لتنصير خمسين في المائة من سكـان هذا البلد بحلول القرن الـواحـد والعشرين الميـلادي، وقل مثل ذلك في العديد من دول إفريقيا...

وهذا ما يجعلنا نقول : إن كـانت هنـاك صحـوة إسلامية رائدة، فلابـد من الاعتراف بـوجـود ردّة في بعض مناطق العـالم لأسبـاب أهمهـا: الجهل والفقـر والمرض، وغياب الدعاة الأكفاء عن الساحـة، وضعف المرصود المادي لنشر الإسلام بين الأمم.

● ومـن العـــوائق ردّة في استعمال بعـض المصطلحات الإسلامية الخالصـة في غير مضـامينهـا الدينية، ولا فيما توحي به من أهداف نبيلة ومقاصـد حسنة ومثل عليا، ولاشك أن وراء هذا المسلك الخطير خبراء ماسونيين لضرب الإسلام في الصميم، فكم من منظمات تجنت على الأبرياء وسفكت دماءهم وروّعت أمنهم باسم الجهاد الإسلامي، والإسلام منها براء...

● ومن هذه العوائق ندرة الدعاة الأكفـاء القـدوة المؤمنة المخلصـة، إذ الكثير ممن يـرددون في مختلف المحـافل أن الإسـلام شريعـة ومنهـاج، أو أنـه دين ودولة، وكونه نظاما شاملا للحياة بأسرهـا «هـؤلاء نجدهم في الممارسـة العمليـة وفي الاختبـار الحقيقي للمواقف والقنـاعـات وقـد سحبـوا نصف كـلامهم، وعادوا إلى صيغة القسم بين ما هو لله وبين ما هـو لقيصر».(16)

ومن المسلم به، أن القدوة الأخلاقية والسلـوكيـة للداعية – بعد علم ودراية بميدان اختصاصـه – هي التي تجعل لعمله فعاليـة في غـرس الإيمان والتـدين والاستقامة والإخلاص في قلوب المخاطبين وعقـولهم، وترتفع درجة الوعي الـديني على المستوى الفردي والجماعي، ويجد الـورع تعبيره بـامتـلاء المسـاجـد والتعامل اليومي والإقبال على الكتب الدينية، وتظهـر حركات إصلاحية تنهج طرقا ذات مضامين إسلامية، وعندها يتعرف المسلم إلى المهمة التي خلق من أجلها، والتي لخصها الفيلسوف الشاعر المسلم محمد اقبال حيث قال:

« إن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويسـايـر الركب البشري حيث اتجه وسـار، بل خلق ليـوجـه العالم والمجتمع والمدنية، ويفرض عليها إرادتـه، لأنـه صـاحب الـرسـالـة وصـاحب العلم واليقين، ولأنـه المسـؤول عن هـذا العـالم وسيره واتجاهـه، فليس مقامه سوى مقام الإمامة والقيادة، ومقـام الإرشـاد والتوجيه، ومقام الآمر والناهي وليس مقـام التقليـد والاتباع، وإذا تنكـر لـه الـزمـان، وعصـاه المجتمع

(16) مجلة العربي، مقال للبحاثة هويدي بعنوان «هذا الفصل الظالم بين حقوق الله وحقوق الناس» ص: 37 ع 296/1983

وانحـــرف عـن الجادة، لم يكـن لـــه أن يستسلـم ويخضـع، ويضـع أوزاره، ويسالم الدهر، بل عليه أن يثور عليه وينازله، ويظل في صراع معه وعراك، حتى يقضي الله في أمره (...) فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».(17)

وبعد:

فلنجاح هذه الصحوة لابـد من النص على شيئين أساسيين:

أولهما : التأكيد على الذاتيـة الإسـلاميـة في كل مواقفنا وقراراتنا وسلوكيـاتنـا وتصرفـاتنـا، سـواء داخل إطار تاريخنا الإسلامي أو خارجه، حتى نبقى أمة خيرة فاعلة في التاريخ الحضاري الإنساني حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وثانيهما : التأكيد على استقلالة متميـزة لهذه الصحوة وإبعادهـا عن التسييس لطـرف أو لآخـر، واتخاذها مطية لأغراض خاصـة، بـذلك نستطيع أن نعود إلى مكاننا الحضاري والثقـافي والقيـادي تحت مظلة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

وأخيرا أقول: إن الحوار المباشر بين المجتمع بكل فئاته وبين رجالات الفكر الـدعـاة هـو أقـوم سبيل وأهدى طريق للحفاظ على سلامة الجبهة الإسلامية، ويقظتها آمنة مطمئنة، وسد المنافـذ والثغـرات أمـام المتربصين بهذا الوليد، وأرجو - مخلصا - للجامعـة الصيفية التي أمر أمير المؤمنين جـلالـة الملك الحسن الثاني رعـاه اللـه أن تقـام ببـلادنـا تحت رعـايتـه المولوية الكريمـة كل عـام - أرجـو لها مـزيـدا من التوفيق والنجاح في خدمة الإسلام حتى تكـون عنـد حسن ظن أمير المؤمنين نصره الله.

مراكش ـ علي أيت علي

---

1) تجديد الفكر الديني

قصيدة المديح في العصر المريني

للدكتور عبد الجواد السقاط

2

قدمنا في القسم الأول من هذا البحث* أن قصيدة المديح في العصر المريني كانت تشكل – من حيث الممدوح – اتجاهين اثنين: هما مدح الرسول (ص) أولا، ثم مدح السلاطين والأمراء المرينيين، وكذلك مدح غير هؤلاء وأولئك من علية القوم وكبرائهم.

وإذا كنا قد عرضنا في القسم السابق إلى الاتجاه الأول من هذين الاتجاهين، فإننا نعرض في هذا القسم إلى الاتجاه الثاني، في محاولة للوقوف على ما يميز هذا اللون من المدح من سمات وخصائص.

ولعل هذا المحور قد تلاقت حوله أصوات العديد من شعراء المرحلة، الذين كانوا حريصين على أن يوفوا هؤلاء السلاطين والأمراء حقهم من التكريم والتعظيم، ولاسيما وقد كان هؤلاء السلاطين والأمراء يحظون بالرضى والإعجاب، سواء في الميدان السياسي، أو الاجتماعي، أو الثقافي بصفة خاصة.

وليس غريبا أمام هذا الرضى وذلك الإعجاب أن تسيل ألسنة الشعراء مدحا وثناء على هؤلاء القادة، سواء كانوا من المغرب كمالك بن المرحل، وعبد العزيز الملزوزي، وأحمد بن عبد المنان، وغيرهم كثير، أو كانوا من الوافدين على المغرب من الأندلس، وأبرزهم لسان الدين بن الخطيب القائل في مستهل قصيدة يراجع فيها ابن مرزوق التلمساني ويمدح السلطان أبا عنان:

راحت تذكرني كؤوس الراح
والقرب يخفض للجنوح جناحي

وسرت تدل على القبول كأنما
دل النسيم على انبلاج صباح

حسناء قد غنيت بحسن صفاتها
عن دملج وقلادة ووشاح

أمست تحض على الليادة بمن جرت
بسعوده الأقلام في الألواح

بخليفة الله المؤيد فارس
شمس المعالي الأزهر الوضاح(1)

* مجلة دعوة الحق، عدد 277، جمادى الأولى 1410هـ دجنبر 1989م.

(1) الاستقصا، ج: 3، ص: 193.

والقصيدة التي راجعها لسان الدين بن الخطيب، كان ابن مرزوق قد خاطب بها هذا الأخير عندما أتى إلى السلطان أبي عنان سفيرا من قبل السلطان الأندلسي الغني بالله بن الأحمر ومطلعها :

يا قادما وافى بكل نجاح
أبشر بما تلقاه من أفراح
هذي ذرى ملك الملوك فلذ بها
تنل المنى وتفز بكل سماح[2]

ومن هؤلاء الشعراء الوافدين أيضا مؤرخ الدولة المرينية أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر الذي يقول من قصيدة في مدح أبي سعيد عثمان بن أحمد بن أبي سالم المريني :

ملك قضى الملك المهيمن ملكه
ليعيد معتل الأمور صحيحا
يروي ضياء النجم عن عزماته
ويفوق يدبل في الأناة رجوحا
يلوي إذا ماكر مركب قرنه
لينا ويعرف قبل ذاك جموحا[3]

ولعل هذين الشاعرين - ابن الخطيب وابن الأحمر - يعتبران في أمداحهما هذه، نموذجا لغيرهما من شعراء الأندلس الذين كانوا يوقعون على الوتر نفسه في تمجيد الملوك المرينيين، والاعتراف لهم بالرفعة والفضل، كما نقرأ في قصيدة لعلي بن الصباغ العقيلي في مدح أبي عنان :

بشرى لدولتك الغراء في الدول
حيطت بها الملة البيضاء في الملل
أنت الذي صنعت أيدي القضاء له
ما ليس تصنع أيدي البيض والأسل
يا خير منتصر بالله معتصم
عليه معتمد في الأمر متكل
لله منك أمير المومنين علا
بدت بأحسن مرأى الشمس والحمل[4]

وكذلك في قصيدة لعلي بن محمد الخزاعي في مدح أبي عنان كذلك :

هو الدين عز اليوم بالنصر جانبه
وذل مناويه وهان مناصبه
وكنا من الإشفاق في مدلهمة
تجلت بمرآك النبي غياهبه[5]

على أننا إذا حاولنا بعد هذا أن ننظر في الدوافع التي كانت تحمل شعراء المرحلة على هذا المديح السياسي، وتحث خطاهم نحوه، لوجدناها كثيرة متنوعة، يمكن رصد بعضها فيما يلي :

1) التحريض على حرب أو مواجهة :

وهو مجال كان يفرض نفسه سواء في الميدان الداخلي للمغرب أو الميدان الخارجي. فمعروف أن ثورات داخلية قد عرفها المغرب في هذه الفترة، وكانت مزعجة للمجتمع المغربي، وفي مقدمته علماؤه وشعراؤه الذين راحوا يدعون إلى مقاومة هذه الثورات ويحرضون الملوك المرينيين على إخمادها والقضاء على أصحابها، وفي أثناء ذلك يعرضون لمدح هؤلاء الحكام وتمجيد مواقفهم البطولية المتعددة.

فهذا الشاعر عبد العزيز الملزوزي يحرض الخليفة المريني يعقوب بن عبد الحق على غزو يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان الذي ما فتئ يناوئ بني مرين، يقول في مستهل قصيدة :

أرى كل جبار بسيفك يصغر
وكل مليك عن فعالك يقصر
وكل عزيز خاضعا متواضعا
وكل يمان عن يمينك يمطر
تنام عيون الناس طرا وأنت في
صلاح العلا والخلق ما زلت تسهر[6]

2) الاستقصا، ج 3، ص 192.
3) روضة النسرين، ص 42.
4) نثير الجمان، ص 271.
5) نثير الجمان، ص 251.
6) الذخيرة السنية ص 126.

ثم يمزج ذلك بمدح الخليفة إذ يقول :

أبـا يـوسف أنت الغيـاث لـديننـا
أولـو العلم في أخبـارهم بـك بشروا
ستملكهـا غربـا وشرقـا وقبلـة
وجـوفـا فهـذا كـان في الجفر يـذكر[7]

وهذا محمد الشبكوني يحرض الخليفة أبا فارس على الشيخ عامر بن محمد الهنتاتي صاحب جبل هنتاتة حين خرج عليه فيقول في القصيدة التي مطلعها :

أبـان في حبـه مـا قـال عـاذلـه
دمع جرى فـوق صفـح الخـد هـاملـه[8]
فـانهض إليهم أمير المسلمين فقـد
أعطيت كـل المنى فيمـا تحـاولـه
من ذا ينـازل جيشـا أنت قـائـده
يـوم الكريهـة أو من ذاينـا ضلـه[9]

ونراه يخلل هذا التحريض بمدح الخليفة فيقول :

زر حضرة الملـك الميمـون طـالعـه
تحظى بمـا أنت في دنيـاك آملـه
فطبعـه الصفـح والمعروف شيمتـه
والحلم والصـون والتقـوى شمائلـه[10]

ولقد كانت قضية الأندلس من أبرز القضايا التي شغلت بال المغاربة قيادة وشعبا، خاصة وأنها كانت في هذه المرحلة تلفظ أنفاسها الأخيرة، الشيء الذي حفز بعض الشعراء للدعوة إلى إنقاذها من الأطماع المسيحية.

فقد ورد في الذخيرة السنية «أن النصارى دمرهم الله تعالى كانوا قد تكالبوا على بلاد المسلمين بالغارات والسبي فأبادوا أكثرها وأهلكوا قواعدها، فتفجع أهل العدوة لحالهم، فصنع الفقيه الأديب مالك بن المرحل رحمه الله قصيدة يحرض فيها بني مرين وسائر المسلمين على جهاد الكافرين ونصرة من في بلاد الأندلس من المسلمين المستضعفين»[11]، تقول بداية القصيدة :

أستنصر الـدين بكم فـاقـدمـوا
فـإنـه إن تسلمـوه يسلم
لا تسلمـوا الإسـلام يـا إخـوانـنـا
وأسرجـوا لنصره وألجمـوا
لا ذت بكم أنـدلس نـاشـدة
برحم الـدين ونعم الرحم
واسترحمتكم فـارحمـوهـا إنـه
لا يرحم الرحمن من لا يرحم
مـا هي إلا قطعـة من أرضكم
وأهلهـا منكم وأنتم منهم[12]

ولم يفت الشاعر في خضم هذا التحريض أن يعرج على مدح السلطان فيقول :

لم يثنـه عن عـزمـه أهـل ولا
مـال ولا خـوف نعيم يعـدم
كيف وعـدن تحت ظـل سيفـه
والحـور عن يمينـه تسلم
والله راض عنـه والخلـق لـه
يـدعـون مهمـا كبروا وأحرمـوا[13]

2 ـ التهنئة بفوز أو انتصار :

وهو كذلك مجال استقطب العديد من شعراء الفترة، تخليدا للانتصارات التي كان السلاطين المرينيون يحرزون عليها، والمعارك الدينية والسياسية التي كانوا يخوضونها بتفوق ونجاح. وفي هذا المضمار نسجل القصيدة التي رفعها مالك بن المرحل إلى الأمير المريني عبد الواحد بن يعقوب يهنئه فيها بفتح مراكش، والانتصار على آخر بقايا الموحدين بها، يقول مطلع القصيدة :

فتـح تبسمت الأكـوان عنـه فمـا
رأيت أملح منـه مبسمـا وفمـا

7) الذخيرة السنية ص 127.
8) النبوغ المغربي ص 876.
9) النبوغ المغربي ص 878.
10) النبوغ المغربي ص 877.
11) الذخيرة السنية ص 98.
12) الذخيرة السنية ص 98.
13) الذخيرة السنية ص 100.

فتح كما فتح البستان زهرته
ورجع الطير في أفنانه نغما
فتح كما انشق صبح في قميص دجى
وطرز البرق في أردانه علما[14]

وفي أعقاب هذه التهنئة يعرج الشاعر على مدح السلطان فيقول من أبيات :

لله منك مليك لا نظير له
لولاك كان وجود الدين قد عدما
ملك بصير بأدواء الأمور له
رأي نجيع وطب يذهب الألما
عدل الحكومة ماضي العزم معتدل
كالريح يمضي بعزم كلما عزما[15]

وفي المضمار نفسه كذلك نشير إلى الشاعر عبد العزيز الملزوزي الذي رفع قصيدة للأمير أبي مالك عبد الواحد المريني يهنئه بالانتصار على يغمراسن أولها :

أشاقتك أطلال الديار الطوامس
فقلبك حيران ودمعك ساجم
وقفت عليها بعد بعد أنيسها
وصبرك قد ولى ووجدك لازم
بعيدا عن الأوطان تسلى فإنها
تهيج أشواق المحب المعالم[16]

ولا ينسى الشاعر أن يمزج هذه التهنئة بالمدح فيقول :

إذا هامت العشاق يوما بكاعب
فقد بات في الإدلاج في البيد هائم
لألقى مليك الأرض وابن مليكها
أبا مالك ليث الحروب العرازم
مذل الأعادي في سماء عجاجة
بها البيض برق والدماء غمائم
أبو مالك ليث الحروب وغيثها
وبدر إذا ما الحرب بالنقع فاحم[17]

3 ـ استعراض أمجاد الدولة المرينية عموما، وتعداد أفضالها وأياديها على البلاد المغربية والإسلامية. ولعل مطولة لعبد العزيز الملزوزي تقف أمامنا شاهدا بينا على ذلك، وهي التي افتتحها بقوله :

بحمد الله أفتتح الخطابا
وأبدأ في النظام به الكتابا[18]

فقد امتدح فيها ـ كما يقول طاحب الأنيس المطرب ـ «قبائل بني مرين ورتبهم على منازلهم، وذكر فضائلهم وقيامهم بالجهاد وأمر الدين»[19] وفي أعقاب ذلك ركز على مدح السلطان، والابتهال إلى الله لإطالة عمره وإدامة عزه على غرار قوله :

أمير المسلمين بقيت تعلو
سعودكم التي ترضى اصطحابا
وأبقاكم إله العرش عزا
تنال بكم أمانيها الرغابا
فعمرك الإله سنين عدا
تبلغنا الأماني والطلابا
فدم فعود ملكك في ازدياد
وجمع عداتك انتكبوا انتكابا[20]

4 ـ الاعتراف بالجميل وشكر النعمة :

وهو شعور صادق عبر عنه شعراء المرحلة، في محاولة للوفاء لسلاطين بني مرين، والاعتراف بما أسبغوه على المجتمع المغربي من نعمة الاستقرار والرخاء، على غرار ما نقرأ من قصيدة لابن مرزوق التلمساني يمدح فيها أبا عنان فيقول :

بسط الأمان على الأنام فأصبحوا
قد ألحفوا منه بظل جناح

14) الذخيرة السنية ص 119.
15) الذخيرة السنية ص 120.
16) الذخيرة السنية ص 133.
17) الذخيرة السنية ص 133.
18) الأنيس المطرب ص 364.
19) الأنيس المطرب ص 364.
20) الأنيس المطرب ص 372.

وهمى على العـــافين سيب نـوالـــه
حتى حكى ســح الغمـــام الســـاح
فنـوالـــه وجـلالـــه وفعـــالـــه
فـــاقت وأعيت ألسن المـــداح
وبـــه الـــدنى أضحت تروق وأصبحت
كـل المنى تنقـــاد بعـــد جمـــاح
من كـــان ذا ترح فرؤيـــة وجهـــه
متـــلافـــة الأحـــزان والأتراح[21]

5 ـ الأحداث الخاصة كالإبلال من مرض أو نحو ذلك، وهي مناسبات كان الشعراء فيها يتبارون في إبداء مشاعرهم نحو الأمراء المرينيين، ويمزجون هذه المشاعر بفيض من المدح والتكريم، كما نلمس في قصيدة لعلي بن عبد الرحمن بن فارح حاجب السلطان أبي سعيد عثمان بن أبي العباس بن أبي سالم يهنئ فيها السلطان المذكور بمناسبة شفائه من مرضه ويمدحه كذلك :

هنيئـــا لنـــا ولكـــل الأنـــام
براحـــة فخر الملـــوك العظـــام
إمـــام أقـــام رســـوم العلى
وحـــل من المجـــد أعلى السنـــام
بـــه قرت العين لمـــا بـــدا
صحيحـــا ومـــا إن بـــه من سقـــام[22]

6 ـ الاحتفال بعيد المولد النبوي :

وهي مناسبة مربنا أن الشعراء كانوا يبدعون مولدياتهم فيعرضون لمدح الرسول ﷺ وتعداد صفاته ومعجزاته، ثم يختمون هذا الجزء بمدح السلطان ولعله من باب التأكيد أن نسوق هنا مثالا آخر لهذا المزج بين العنصرين، هو عبارة عن مولدية للشاعر أبي القاسم محمد ابن يحيى العزفي مطلعها :

إذا لم تطـــق نحـــو نجـــد وصـــولا
بعثت الفـــؤاد إليهـــا رســـولا[23]

فبعد ما أفاض الشاعر في مدح الرسول ﷺ وذكر شمائله وصفاته، عرج على مدح السلطان أبي سالم بن أبي الحسن المريني فقال فيه :

هـــو المستعين أبـــو ســـالم
مليـــك ترفـــع قـــدرا جليـــلا
وحـــاز من الـــذكر صيتـــا أثيرا
ومن كرم الخيم مجـــدا أثيـــلا
سليـــل علي غمـــام النـــدى
ألا أيـــد اللـــه ذاك السليـــلا
فتى أوســـع النـــاس من جـــوده
عطـــاء جـــزيـــلا وبرا حفيـــلا[24]

ـ الجمع بين مدح السلاطين المرينيين وبين موضوعات الوصف، وخاصة وصف المنشآت والعمران، وهو ميدان ارتبط بكثرة المنشآت العمرانية التي شيدها المرينيون من مدارس وغيرها، والتي حبّر بعض الشعراء فيها قصائد تمجيد وتنويه، وكمثال لهذا نشير إلى قصيدة لابن عبد المنان يصف فيها الساعة العجيبة التي نصبها السلطان المريني أبو عنان بواجهة مدرسته الشهيرة بفاس، ويمدحه في الوقت نفسه، يقول من هذه القصيدة :

وآلـــة للمـــواقيت استقـــل بهـــا
صنع تفـوت النهى لطفـا صنـائعـه
أبيـــاتهـــا عـــد أبراج السمـــاء ولا
قطب ولا فلـــك تـــدرى مـواضعـــه
يجري الهـلال عليهـا جريهـا أبـدا
على المنـازل صنـع فـاق بـارعـه
وفي البيـوت جـوار كـل واحـدة
منهن خصت بميقـات تطـالعـه[25]

إلى أن يقول في أواخر القصيدة مادحا :

ريـــاض حسن بـــدا لـولا سعـودك لم
تستجـل يـا ملـك الـدنيـا بـدائعـه[26]

21) الاستقصا، ج 3، ص 192.
22) الاستقصا، ج 4، ص 88.
23) الوافي بالأدب العربي ج 2 ص 408.
24) الوافي بالأدب العربي ج 2 ص 408.
25) النبوغ المغربي ص 770.
26) النبوغ المغربي ص 771.

وإذا عدنا بعد هذا للنظر في البناء الهندسي لقصيدة المديح السياسي في العصر المريني، أدركنا أنها كانت تعتمد نمطا يكاد يكون تقليدا لما كانت عليه قصيدة المديح في الشعر العربي القديم، وخاصه في العصرين الأموي والعباسي.

ولعل أول عنصر يستوجب النظر في هذا البناء، تلك المقدمة التي كان الشعراء يستهلون بها قصائدهم، على أن من شعراء المرحلة من كان يقتحم الموضوع مباشرة، كما تبين من خلال بعض الشواهد المتقدمة، وكما يتضح من خلال بداية قصيدة لعبد الرحمن بن الأشقر يمدح فيها أبا الحسن المريني :

نوالك مزن للغمائم باعث
ووجهك مزن للمنيرين ثالث
وبابك كهف للأنام وملجأ
إذا ناب خطب أو تفاقم حادث
ملأت بلاد الشرق عدلا وطهرت
علاك بها ما دنسته الخبائث[27]

وكما يتضح كذلك من خلال قصيدة لمحمد بن أحمد الفشتالي في مدح أبي عنان جاء في أولها :

يا إماما ندى كفيه قد وكفا
حسبي اعتصامي بحبل منكم وكفى
وكيف أصرف وجه القصد عن ملك
ما صد عني سنا بشر ولا صرفا[28]

ولعلنا إذا تأملنا المقدمة التقليدية في قصائد المديح هذه، وجدناها متنوعة لا تتقيد باتجاه واحد أو محور معين. فهي إما خمرية ترتبط بوصف الطبيعة، وتعانق ما تجود به من بهجة وفتنة، على غرار ما نقرأ في قصيدة لأبي العباس العزفي يمدح فيها الوزير ابن الحكيم، حيث استهلها بقوله :

هذا الصباح فغادني بصبوح
وانهض براحك فهي راحة روحي
لا تكترث لخطوب دهرك واسقني
كأسا تحسن منه كل قبيح
واسرح سوام اللحظ بين حدائق
ما سائم في مثلها بمريح
فتنت بزهرة زهرها فتمايلت
تختال في الحبرات بعد مسوح
شقت شقائقها جيوب كمائم
أسفا على زق يخر جريح[29]

ولعل هذا النوع من المقدمات يمكن حمله على أنه تقليد لنمط جاهلي قديم، منذ أن استهل عمرو بن كلثوم معلقته بقوله :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا
ولا تبقى خمور الأندرينا[30]

كما يمكن حمله - عند العزفي هذا بالذات - على أنه تعبير صوفي درج الكثير من شعراء المديح النبوي على انتهاجه منذ قال ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم[31]

ولعل أبا العباس العزفي، وهو الرجل الصوفي، قد تأثر بهذا الأسلوب حتى في الأمداح غير النبوية.

وقد تكون هذه المقدمة طللية غزلية، وهو منحى تقليدي كذلك، ولا سيما إذا تأكدنا أن الظروف التي كانت وراء المقدمة الطللية في العصر الجاهلي مرتبطة بحالات نفسية واجتماعية ليس هنا مجال استعراضها، في حين أن المقدمة الطللية الغزلية في الشعر المريني لم تكن لها نفس الظروف، ومن ثم يمكن اعتبارها مجرد تقليد للنموذج العربي القديم.

ومن نماذج ذلك قصيدة الملزوزي في مدح الأمير أبي مالك عبد الواحد التي أولها :

أشاقتك أطلال الديار الطواسم
فقلبك حيران ودمعك ساجم

27) نثير فرائد الجمان ص 346.
28) النبوغ المغربي ص 876.
29) أزهار الرياض، ج 2، ص 357.
30) شرح القصائد العشر ص 319.
31) ديوان ابن الفارض، ص 140.

وقفت عليهـــا بعـــد بعـــد أنيسهـــا
وصبرك قـــــد ولى ووجـــــدك لازم
بعيـــدا عن الأوطـــان تسلى فـــإنهـــا
تهيـــج أشـــواق المحب المعـــــالم[32]

ولا يفـوتنـا أن نشير في هـذا المضمـار إلى أن من شعراء المرحلة من كان يجعل مقدمته تـاريخية لها علاقة وثيقة بالموضوع، كما هو الشأن عند عبد العزيز الملزوزي الذي استهل احدى مدائحه بالحديث عن عظمة الإله سبحانه، ورسالة نبيه ﷺ، وما تميز به عليه الصلاة والسلام من مزايا وفضائل، وكذلك خلفاؤه الراشدون وصحابته الأجلاء الذين صار الدين بعدهم غريبا وحقيرا في العالم الإسلامي، على غرار قوله من أبيات كثيرة في هذه الافتتاحية :

هـو الملـــك الـــذي خلـق البرايـــا
وصـــورهم وقـــد كـــانـوا ترابـــا
إلـــــه واحـــــد حي مريـــــد
عليهم قـــادر بـــالجـود حـــابـــا
وأرســـل في الـــورى منهم رســـولا
شفيعـــا مصطفى يتلـو الكتـــابـــا
فصـــدقـــه أبـــو بكر عتيـــق
وثـــانيـــه أبـو حفص أجـــابـــا
وثـــــالثهم أبـــــو عمرو ووفى
أبـو حسن طعـــانـــا أو ضرابـــا
فمـــذ بـــانـوا وبـــان من اقتفـــاهم
خفى نـور بـــدا منهم وغـــابـــا
وعـــاد الـــدين بعـــدهم حقيرا
ومنحقـــا وممتهنـــا مصـــابـــا[33]

ومن الملاحظ أن شعراء المرحلة، وهم يريدون أن ينتقلوا من هذه المقدمة إلى عنصر المدح، يربطون بين العنصرين ربطا منسجما يسير على نهج ما كان شعراء العرب القدامى يسلكونه في هذا المجال، فإذا تخلص الكميت بن زيد الأسدي في هاشميته التي مطلعها :

طربت ومـــا شـوقـــا إلى البيض أطرب
ولا لعبـــــا منى، وذُو الشيب يلعب[34]

بقوله :

ولكن إلى أهـــل الفضـــائـــل والنهى
وخير بني حـــــــواء والخير يطلب

تخلص عبد العزيز الملزوزي بالطريقة ذاتها فقال :

تحن إلى سلمي ومن سكن الحمى
وأين من المشتـــاق تلـــك النـــواعم
إليـــك فـــإني لست ممن تشـوقـــه
معـــاهـــد سلمى أو سبتـــه المبـــاسم
إذا هـــامت العشـــاق يـومـــا بكـــاعب
فقـد بـات في الإدلاج في البيـد هـائم
لألقى مليـــك الأرض وابن مليكهـــا
أبـــا مـــالـــك ليث الحروب العرازم[35]

وإذا تخلص البحتري من وصف البركـة إلى مـدح المتوكل قائلا :

كـــأنهـــا حين لجت في تـــدفقهـــا
يـد الخليفـة لمـا ســال واديهـــا[36]

سلك محمد بن يوسف الشبكوني النهج ذاته فقال :

كـــأن صـوب دمـوعي بعـد بعـــدهم
سيب المليـــك إذا وافـــاه ســـائلـــه
عبـد العـزيـز الـذي عـزت بـدولتـه
مراتب الحـق والتـــاحت دلائلـــه[37]

وبعد هذا الربط إذن، تنتقل قصيدة المديح السياسي إلى العنصر الثاني، والمتعلق بتمجيد الممدوح والثناء عليه، وهو العنصر الذي يكاد يغطي معظم أبيات القصيدة، والذي يتألف معظم نسيجه من المضامين العربية التقليدية، وخاصة

32) الذخيرة السنية ص 133.
33) الأنيس المطرب ص 364. 365.
34) الكميت بن زيد شاعر المرواني وقصائده الهاشميات ص 118 ـ 132.
35) الذخيرة السنية ص 133.
36) ديوان البحتري، ص 17.
37) النبوغ المغربي ص 877.

منها ذلك الثلاثي الشهير : الكرم، والشجاعة، وعراقة النسب.

فأما الكرم فلعله وتر وقع عليه معظم شعراء المرحلة، وأفاضوا في الوقوف عنده تخليدا لما عرف به الأمراء المرينيون من بذل وسخاء. فهذا أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر يمدح عثمان بن أحمد بن أبي سالم فيقول :

فترى لـه للشح بـابـا مغلقـا
أبـداً) ويـابـا للعطـا مفتـوحـا[38]

وهذا ابن عبد المنان يقول في أبي عنان :

إمـام الهـدى شكرا على النعم التي
يضيـق إذا عـددتهـا العـد والحصر
لـك الجـود تردي المـارقين جنـوده
بـأقطـارهم من قبـل أن تمرح الشقر[39]

وفي موضع آخر من القصيدة نفسها يلح على الخصلة ذاتها فيقول :

منحت فـأوسعت البلاد رغـائبـا
ففي كـل حي حـاتم الجـود أو عمرو[40]

بل إننا نجد من الشعراء من يقف طويلا عند هذه الخصلة، كما هو الحال في قصيدة لابن مرزوق التلمساني في مدح أبي عنان، فقد تعرض في أبيات كثيرة لسخاء الممدوح، أقتصر منها على :

من قـاس جـود أبي عنـان في النـدى
بسـواه قـاس البحر بـالضحضـاح
ملـك يفيض على العفـاة نـوالـه
قبـل السـؤال وقبـل بسطـة راح
وهمى على العـافين سَيْب نـوالـه
حتى حكى سح الغمـام السـاحي
فنـوالـه وجـلالـه وفعـالـه
فـاقت وأعيت ألسن المـداح[41]

وبالرجوع إلى مصادر متنوعة حول المرينيين، ندرك أن الشعراء، وهم يتغنون بهذه الخصلة، كانوا يعبرون عن واقع حي، وحقيقة صارخة أكدتها ممارسة المرينيين وأعمالهم، فقد ورد في الاستقصا أن السلطان الغني بالله بعث وزيره ابن الخطيب سفيرا عنه إلى السلطان أبي عنان في وفد من الوزراء والفقهاء، فاستأذن السلطان في إنشاد شيء من الشعر في البداية، فأذن له وأنشد وهو قائم :

خليفـة اللـه سـاعـد القـدر
عـلاك مـا لاح في الـدجى قمر
ودافعت عنـك كف قـدرتـه
مـا ليس يستطيـع دفعـه البشر
وجهـك في النـائبـات بـدر دجى
لنـا وفي المحـل كفـك المطر
والنـاس طرا بـأرض أنـدلس
لـولاك مـا أوطنـوا ولا عمروا
ومن بـه مـذ وصلت حبلهم
مـا جحـدوا نعمـة ولا كفروا
وجملـة الأمر أنـه وطن
في غير عليـاك مـا لـه وطر
وقـد أهمتهم نفـوسهم
فـوجهـوني إليـك وانتظروا

فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الأبيات، وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس : ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم[42].

ونشير منه كذلك إلى ما ورد في الذخيرة السنية حول الأمير أبي مالك عبد الواحد بن يعقوب المريني، حيث «دخل عليه شاعره عبد العزيز الملزوزي في يوم من شهر رمضان وهو بقصره بمراكش، وكان الجو ممطرا، فقال له الأمير : يا عبد العزيز، أرأيت ما أحسن هذا النهار له كان في غير شهر الصوم، ثم أمره أن يقول في ذلك المعنى شعرا، فأنشد ارتجالا على البديهة :

اليـوم يـوم مـدامـة وعقـار
وتبلـغ الآمـال والأوطـار

38) روضة النسرين ص 42.
39) النبوغ المغربي ص 873.
40) النبوغ المغربي ص 875.
41) الاستقصا ج 3 ص 192.
42) الاستقصا ج 3 ص 195.

أو مـــا رأيت الشمس أخفي نـــورهـــا
وتسترت عن أعين النظـــــــــار
وبكى السحـاب بـــدمعـــه فكـــأنـــه
دنف بكى من شـــدة التـــذكـــار
والبرق لاح من الغمـــام كـــأنـــه
سيف تـــألـــق في سماء غبـــار
لا شيء أحسن فيـــه من نيـــل المنى
بمـــدامـــة تبـــدو كشعلـــة نـــار
لـولا صيـــام عـــاقني عن شر بهـــا
لخلعت في هـــذا النهـــار عـــذاري
أو كـــان يجـزي عنـــه صـوم أو فـــدا
مـــا صـوم شهر في صيـــام نهـــار
لكن تركت سروره ومـــــذاقـــــه
حتى أكـــــون عليـــــه ذا إقرار
فأمر له بخمسمائة دينار وكسوة[43].

وفي المضمار ذاته نشير إلى الملزوزي هذا صاحب البائية التي مطلعها :

بحمـــد اللـــه أفتتـح الخطـــابـــا
وأبـــدأ في النظـــام بـــه الكتـــابـــا

فقـــد ورد في الأنيس المطرب أن عبـــد الرحمن الغرابلي قد أنشدها بين يدي الأمير يعقوب بن عبد الحق، فأمر هذا الأخير للمنشد بمائتي دينار، وللناظم بألف دينار، وخلع له ثيابا ومركوبا[44].

وأما خصلة البطولة والشجاعة فقد تغنى بها الشعراء كذلك، وراحوا يوقعون على أوتارها في أكثر من مناسبة. وفي هذا الإطار نقرأ قول إسماعيل بن الأحمر في أبي سعيد عثمان المريني من قصيدة :

وإذا الخميس رآه ولى مـــــــدبرا
ليرى سبيـــلا للنجـــاة فيحـــا
فكـــأنمـــا قـــد أبصروا بيمينـــه
شخص المنيـــة حـــاقـــدا مقروحـــا[45]

وفي مكان آخر من القصيدة نفسها يقول :

مـــا حـل ذروة معقـل كحســـامـــه
نصرا ولا ســـد الثغـــور فتـــوحـــا
ســـاط بسيف اللـــه دون حـــدوده
مـــاضي العـــزيمـــة لا تراه صفـوحـــا[46]

وفي الإطار ذاته نقرأ من قصيدة لابن عبد المنان في مدح أبي عنان :

ذلت لبطشتـــه الأســـود وإنهـــا
لتـــذل إذعـــانـــا لبطشتـــه الطـــلا[47]

ولعل من أبرز العناصر التي ترتبط بهذه البطولة والشجاعة، مكانة الجيش المغربي إذ ذاك، ومدى ما يتوفر عليه من قوة وحنكة، على غرار ما نقرأ من قصيدة لمحمد الشبكوني في مدح عبد العزيز المريني حيث يقول عن هذا الجيش :

أبلـغ جميـع العـــدا أن ســوف يشملهم
من الظبـا كـل مـاضي الحـد فـاصلـه
هـذا المليـك أتـاهم في كتـائبـه
لنـــسخ آجـــالهم تغضى رواحلـــه
بكـل خرق طـويـل البـــاع متئـــد
مقصر عمر من تلقى منـــاصلـــه
وجحفـل فيـــه سمر الخـــط مشرعـــة
قـد حجبت أنجم الشعرى قـــاطلـــه[48]

وعلى غرار ما نقرأ كذلك في قصيدة لعلي بن عمر التجاني في مدح أبي العباس أحمد المريني :

أيـــا مرســـل الجيش العرمرم آخـــذا
بـــآفـاقهـا مـــا للعـــدا منـــه مهرب
بخيـــل كرام المنتمى أعـــوجيـــة
تطير بـــأقطـــار الـــدنى وتسرب
تخـال عقـودا في انتـــاق نظـــامهـــا
تقلـــد أجيـــاد الربـــا وتلبب

43) الذخيرة السنية ص 124.
44) الأنيس المطرب بروض القرطاس ص 364.
45) روضة النسرين ص 42.
46) روضة النسرين ص 43.
47) تثير فرائد الجمان ص 352.
48) الأدب المغربي ص 259.

فمن أشقر كـــــالتبر يتلـــوه أدهم
أمـــام كميت ســـار يقفـــوه أشهب

عليهـــا من الفرســـان كـــل مصمم
لـــدى الحرب من طعن القنـــاليس يرهب

تقلـــد لـــلأعـــداء كـــل مهنـــد
يبيـــح حمى الأرواح منهم وينهب[49]

على أن من الشعراء من كان يجمع بين هاتين الخصلتين، وكأنهما متلازمتان رغم ما بينهما من تضاد وتناقض، يقول علي بن عمر التجاني في مدح أبي العباس أحمد المريني :

فكفـــك سهم للمعـــانـــد صـــائب
كمـــا هي غيث للمـــؤمـــل صيب

جمعت بها الضـدين بـاسـا ورحمـة
فصارت بها الأمثال في الأرض تضرب[50]

ويقول ابن عبد المنان في أبي عنان :

مليـك ملـوك الأرض أوحـدهـا الـذي
بـــه علت العليـــاء وافتخر الفخر

غمـــام النـــدى الهطـــال والجـود أغبر
وليث الفـــدا والبيض قـــانيـــة حمر[51]

وأما الخصلة الثالثة، وهي عراقة النسب، فقد حظيت هي الأخرى باهتمام الشعراء، حيث نجدهم يلحون عليها لحاحا، كما هو الشأن في قول علي بن عمر التجاني في مدح أبي العباس أحمد المريني :

مليـــك نمـــاه محتـــد وسما بـــه
إلى الغـاية القصوى من المجد منصب[52]

ومعلوم أن من المؤرخين من يجعل نسب المرينيين عربيا خالصا ويرفعه إلى أحد أجداد الرسول عليه الصلاة والسلام، كما يقول صاحب الذخيرة السنية نقلا عن أبي علي المليـاني : «...وهم ولـد مرين بن ورتـاجن....» بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان... وفي ذلك يقول... مالك بن المرحل يمدح أمير المسلمين يوسف ابن أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق :

أنتم لأبنـــاء عبـــد الحـــق كلهم
فخر وهم للـــــورى فخر إذ افتخروا

فحسبكم شرفـــا أن كـــان جـــدكم
بر بن قيس وقيس جـــــده مضر[53]

ولعل لهذا نجد أحمد بن عبد المنان يقول في أبي عنان :

ملـــك نمتـــه إلى المكـــارم عصبـــة
كرمت أواصرهم وعـــــزوا منتمى

ورث المعـــالي عن علي المجـــد عن
عثمـــان عن يعقـوب أعـلام الهـــدى[54]

بل نجد شاعرهم ومؤرخ دولتهم عبد العزيز الملزوزي يلح على هذا النسب العربي في بائيته المطولة إذ يقول :

أليس لحمير لكم انتســـــــاب
كـــذاك مرين إن رفعـوا انتســـابـــا

وأنتم إخـــــوة نسبـــــا وصهرا
فمـــا حـــدتم عن الفخر اجتنـــابـــا

وجـــــد جميعكم سبـــــأ وقيس
من الأعـلام في العرب انتصـــابـــا[55]

49) نثير فرائد الجمان ص 369.
50) نثير فرائد الجمان ص 367.
51) النبوغ المغربي ص 873.
52) نثير فرائد الجمان ص 365.
53) الذخيرة السنية ص 14.
54) نثير فرائد الجمان ص 351.
55) الأنيس المطرب ص 371.

وإلى جانب هذا الثلاثي العربي الشهير، نجد قصيدة المديح السياسي في العصر المريني تركز على مجموعة أخرى من الصفات والنعوت، التي كانت جميعها واقعا ملموسا يشهد به التاريخ للدولة المرينية، ويسجله بمداد الفخر والاعتزاز لسلاطينها وأمرائها. وقد يكون في مقدمة هذه النعوت، ما عرف به هؤلاء القادة المرينيون من ولع بالأدب والشعر خاصة، ومساهمة واسعة في ساحته الفيحاء، هذه المساهمة التي اتخذت تشكيلات متعددة سواء من الوجهة المضمونية أو الفنية. فقد تنوعت الأغراض الشعرية عندهم من غزل وفخر ووعظ وغيرها، حسبما ورد من النصوص في بعض المصادر، وإن كان حظ الغزل من بين هذه الأغراض يبدو أوسع وأكبر، خاصة وأنهم كانوا شعراء مشهودا لهم بالتمكن والإجادة، فأبو عنان مثلا «كان فصيح القلم كاتبا بليغا حسن التوقيع شاعرا[56]، وكان السلطان أبو العباس أحمد بن أبي سالم «شاعرا مفلقا بديع التشبيه»[57]، وكان السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس بن أبي سالم «يحسن قرض الشعر ويحب سماعه[58]، وكان الأمير عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق «محبا في الأدب والتاريخ، ذاكرا لكثير من ذلك مقربا للعلماء والفقهاء... يجالس العلماء والفقهاء والشعراء ويذاكرهم.. وينظم الشعر»[59]، وكان الأمير أبو علي الحسن بن عثمان بن يعقوب «رقيق الحاشية، ينتمي إلى الأدب»[60].

ففي ميدان الغزل مثلا نكتفي بأبيات للسلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم المريني يقول فيها :

أما الهوى يا صاحبي فألفته
وعهدته من عهد أيام الصبا
ورأيته قوت النفوس وحليها
فتخذته دينا إلي ومذهبا
ولبست دون الناس منه حلة
كان الوفاء لها طرازا مذهبا
لكن رأيت له الفراق منغصا
لا مرحبا بفراقنا لا مرحبا[61]

وفي موضوع الفخر نسجل قول الأمير عبد الواحد بن يعقوب :

أجود بمالي لكل العفاة
وأقتحم الهول في المعضلات
أقود الجيوش وأصلى الحروب
وأقتطف الهام بالمرهفات
وأحمي ثغوري من أن تنال
وأغزو وأنهب أرض العداة[62]

وفي مجال الوعظ نذكر قول الأمير أبي علي الحسن ابن عثمان بن يعقوب مخاطبا أخاه أبا الحسن أيام حصاره له بسجلماسة وقد أيقن بزوال أمره :

فلا يغرنك الدهر الخؤون فكم
أباد من كان قبلي يا أبا الحسن
الدهر مذ كان لا يبقي على صفة
لابد من فرح فيه ومن حزن
أين الملوك التي كانت تهابهم
أسد العرين ثووا في اللحد والكفن
بعد الأسرة والتيجان قد محيت
رسومها وعفت عن كل ذي حسن
فاعمل لأخرى وكن بالله مؤتمرا
واستغن بالله في سر وفي علن
واختر لنفسك أمرا أنت آمره
كأنني لم أكن يوما ولم تكن[63]

56) الاستقصا ج 3 ص 206.
57) الاستقصا ج 4 ص 78.
58) الاستقصا ج 4 ص 80.
59) الذخيرة السنية ص 123.
60) الاستقصا ج 3 ص 120.
61) الاستقصا ج 4 ص 78.
62) الذخيرة السنية ص 123.
63) الاستقصا ج 3 ص 120.

وفي مجال الحديث عن الذات نسجل قول الأمير عبد الواحد بن يعقوب:

فرقت في الميـــــدان كـــل مليـــــك
وجمعت بين جراءة ونـــــــــــوك
وجعلت لـلإسـلام حـــدا مـــالكـــا
كيما يغيره العدا بسلوك[63 مكرر]

وكمـا تنـوعت الأغراض الشعريـة لـدى الحكـام المرينيين، كذلك تنوعت أساليبهم وطرائقهم في التعبير. فالنصوص التي بين أيدينـا من شعرهم تظهر أن منهم من كان يرتجل الشعر ارتجالا كلما دعته المناسبة إلى ذلك، كما هو الشأن عند السلطان أبي عنان الذي قال لأحد جلسائه يوما : «كنت يوما بقصري، وكان في يدي تفاحة، فحضرت عليّ جارية من جواريّ، كنت أحبها حبا مبرحا فأرميتها بالتفاحة، وقلت على البديهة :

خـــذهـــا إليـــك هـــديـــة
من كف ملـــــك مـــالـــــك

يبـــــدي العطـــــايـــــا دائبـــــا
ويبيـــــد شمـــل الفـــاتـــــك»[64]

وكما هو الشأن كذلك بالنسبة للأمير منصور بن أبي علي أخي أبي الحسن المريني الذي «خرج يوما مع رفيق له لمتنزه بخارج البلد[65] فلقيا وسيما فقال فيه بديهة :

لـــو اطلعت على قلبي رأيت بـــــه
من لحـظ عينيـك أو من ثغرك الأثرا»[66]

كما تظهر هذه النصوص أن منهم من كان يتوسل بالشعر تقليدا لظواهر أدبية عرفتها الساحة الشعرية في المغرب قبل العصر المريني. ولعل من هذه الظواهر مثلا ظاهرة التذييل التي نسجل نموذجا منها للسلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني الذي قال مذيلا بيتي والده السلطان أبي الحسن اللذين هما قوله :

أرضي اللـــــــــــه في سري وجهري
وأحمي العرض من دنس ارتيـــــــاب

وأعطي الـــوفر من مـــالي اختيـــارا
وأضرب بـــالسيـــوف طلى الرقـــاب

وأرغب خـــــالقي في العفـــو عني
وأطلب حلمـــــه يـــوم الحســـاب

وأرجـــو عـــونـــــه في عـــز نصر
على الأعـــداء محروس الجنـــاب

وعبـــدك واقف بـــالبـــاب فـــارحم
عبيـــدا خـــائفـــا ألم العقـــاب[67]

ولعل من هذه الظواهر أيضا ظاهرة المطارحات والمساجلات الشعرية التي ذكرت المصادر منها أن السلطان أبا العباس أحمد بن أبي سالم المريني «كان يوما مع علي ابن لسان الدين بن الخطيب في نزهة فقال :

يـــا فـــاس إني وأيم اللـــه في شغف
بكـــل ربـــع بـــه مغنـــاه يسبيني

وقـــد أنست بقرب منـــك يـــا أملي
ونظرة فيكم بـــــــالأنس تحييني

63) مكرر) الذخيرة السنية ص 123.
64) نثير الجمان ص 70.
65) يقصد مدينة غرناطة.
66) نثير الجمان ص 73.
67) نثير الجمان ص 71.
68) الاستقصا ج 4 ص 78.

فأجابه علي بقوله :

لا أوحش اللـــه ربعـــا أنت زائره
يـا بهجـة الملـك والـدنيـا مـع الـدين
يـا أحمـد الحمـد أبقـاك الإلـه لنـا
فخر الملـوك وسلطـان الـسلاطين»[68]

وإلى هـاتين الظـاهرتين نضيف ظـاهرة الصنعـة التي كـانت تتشكل في ضروب متعددة؛ فمن اقتبـاس من القرآن الكريم كما في قول السلطـان أبي فـارس عبـد العزيـز بن أبي العباس وقد نزل المطر، يشكر الله تعالى عليه حسب ما جاء في الاستقصا[69] :

اللـــه يلطف بـــالعبـــاد فـواجب
أن يشكروا في كـل حـــال نعمتـــه
فهـــو الـــذي فيهم ينـــزل غيثـــه
من بعـد مـا قنطـوا وينشر رحمتـه[70]

إلى اعتماد الموسيقى الـداخليـة التي قـد لا تـأتي إلا متعمدة مقصودة، كما نلمس في أبيات لأبي عنان لاشك أن صاحبها قد تعمد فيها ترداد حرف المـد ـ وهو هنـا الألف ـ في مواطن محددة حيث يقول فيها :

يـــا راميـــا بـــالنبـــال من غنـج
وصـــائـــلا بـــالنصـــال من دعـج
وبـــاديـــا كـــالهـــلال في سحب
وطـــافحـــا من ســـلافـــة الفلـج
وبـــــــــاسما عن لآلئ نسقت
ونـــــاسما كـــل عـــــاطر أرج
رفقـــا بقلبي فـــإن فيـــه هـــوى
ولا تطـــل في المـــلال والحرج[71]

إلى الزخرفـة والتـلاعب بـالألفـاظ كمـا في قـول أبي عنان كذلك :

رمي تصـــــــــــــوب حبي
حبي تصـــــــــــــوب رميي
نهي تقـــــاصـــــــــد خلي
خلي تقـــــاصـــــــــد نهيي[72]

إلى الإلغـاز في الشعر، كمـا نقرأ في قصيـدة غـزليـة للأمير أبي الحسن علي بن بدر الـدين الـذي «أنشـد لنفسـه ملغزا، يقرأ أول كل بيت فيخرج : أش تقول لمن يحبك :

أرقت وقـــد نـــام الخلي المسلم
وبي من أليم الشـوق مـــا ليس أكتم
شهـودي نجـوم راكـدات كـأنمـا
عـدت عن طريـق القصـد والليـل مظلم
تـــذكرني من قـــد بليت بحبـــه
وفي القلب والأحشـــاء نـــار تضرم
قضيب من الريحـــــان غصن منعم
ولكنـــه بـــالـوصـل لي ليس ينعم
وضعت لـــه خـــدي وقلت لعبرتي
همي فـوق خـــدي علـــه لي يرحم
لـزمت البكـا والشـوق بعـد فراقـه
وقلت لـــــــذي بث ودمعي يسجم
لـه مقلـة ترمي إذا اللحـظ نـالهـا
وثغر كمثـــل الـــدر حين ينظم
مريض عليـل الطرف من غير علـــة
فمـــا أحـــد من سحر عينيـــه يسلم
نهيت فـؤادي عنـه فـازداد لـوعـة
وهـــل يستطيـــع الصبر صب متيم
يسرك يـــا مـولاي إن مت بـــالهـوى
وحسبـــك مـــا ألقـــاه واللـــه أعلم

---

69) الاستقصا ج 4 ص 80.
70) البيت الثاني مقتبس من قوله تعالى : ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته، وهو الولي الحميد﴾ (سورة الشورى، الآية 28).
71) مظاهر الثقافة المغربية ص 137.
72) روضة النيرين ص 28.
73) نثير الجمان ص 74.

حكمت على قلبي فعـــــذبت مهجتي
وللحب سلطـــــان على الصب يحكم

بعينيـك مـا ألقـاه فيـك من الأسى
وإني في حبي إليـــــك مصمم

كتبت فخـــذ من كـــل بيت أولا
ودبره أحيـــانـــا لعلـــك تفهم[73]

وليس غريبا، أمام هذه المساهمة الواسعة، أن يشيد بها الشعراء، وأن يجعلوها ضمن مكونات قصائدهم، على غرار قول عمر بن علي التجاني في مدح أبي العباس المريني :

بصير بتـأسيس السيـاسـة حـول
خبير بتـدبير السيـاسـة قلب

وللقلم المـــاضي المترجم عنهمـــا
بتبيـانـه الحرف الأديب المهـذب[74]

وإلى هذا يضاف اهتمام المرينيين بالإسلام ودفاعهم عن حوزته، وهو الموقف الذي استوقف الكثير من الشعراء أمثال عبد العزيز الملزوزي الذي يقول في مدح يعقوب بن عبد الحق :

هـو الملـك المنصـور ذو المجـد والعلى
أبـو يـوسف غيث المقـام المظفر

ولـو قيـل لـلإسـلام من كنت ترتجي
لقـال لنـا : يعقـوب ذاك الغضنفر

بأيـامـه أعلـو على الشرك إنمـا
فكم بت أخشى من ظبـاه وأحـذر

وما هـو لـلإسـلام إلا مهنـد
بنـوه لـه حلي أنيـق وجـوهر[75]

وأمثال ابن عبد المنان الذي جعل اهتمام أبي عنان بالإسلام وخضوعه لأوامره الإلهية سببا في طاعة الدهر لهذا السلطان إذ قال من قصيدة :

ألا يـا أمير المـومنين الـذي اهتـدى
بنـور هـداه البـاهر البـدو والحضر

أطعت مليـك النـاس ربـك فـاغتـدى
يطيعـك فيمـا رمت منْ أمرك الـدهر[76]

وإذا نحن تجاوزنا هذا العنصر الواسع بما يشمله من مضامين وأفكار، وجدنا قصيدة المديح السياسي تنتقل إلى العنصر الثالث والأخير، والمتمثل في الخاتمة التي غالبا ما تكون عبارة عن أبيات يبسط فيها الشاعر دعواته للممدوح وآماله في أن يبقى عصمة للإسلام، ومنبعا لسعادة الأنام رافلا في حلل العز والنصر، على غرار قول ابن عبد المنان في أبي عنان في آخر قصيدة :

لا زلت والأقـدار جـاريـة بمـا
تهـواه مـاكر الصبـاح على الـدجى

وبلغت مـا ترجـوه من أمـل على
عجـل ودام لـك السعـادة والبقـا[77]

وهو القائل أيضا في نهاية إحدى مدائحه للسلطان المذكور :

بقيت لـدين اللـه ردءا وعصمـة
فمـا غير عليـاك الـزمـان لـه ذخر[78]

73) نثير فرائد الجمان ص 366.
74) الذخيرة السنية ص 128.
75) النبوغ المغربي ص 875.
77) نثير فرائد الجمان ص 356.
78) النبوغ المغربي ص 876.

وعلى غرار قول محمد الشبكوني في أبي فارس عبد العزيز المريني في نهاية قصيدة :

مـولاي مـولاي دم مـا عشت مصطحبـا
على وفخرا وعـــزا لا تـــزايلـــه

إن سـار جيشـك فـالتقـديم يقـدمـه
والنصر عـــاجلـــه يقفـوه آجلـــه[79]

على أن من شعراء المرحلة من كـان يفصل بين عنصر المدح وعنصر الخاتمة بتقريظ لهذه القصيدة المديحية التي يرفعها للممدوح، معتزا ببلاغتها وقوتها، ومتباهيا بجودة شعرها وطلاوة تعبيرها ومن نماذج ذلك قول أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر قبيل نهاية إحدى مدائحه لأبي سعيد عثمان المريني :

خـذ يـا أمير المسلمين بـديعـة
منهـا لـسـاني لا يـزال فصيحـا

ببـدائـع من صنعـة الآداب قـد
أصفى العـدو لهـا فعـاد طليحـا

تنسيـك حسنـا كلمـا رددتهـا
هـل كـان ضمخ بـالعبير الريحـا[80]

ومن نماذجه أيضا قول ابن عبد المنان قبل عنصر الدعاء :

وإليكهـا درا فـإني منتـق
مـا راق منهـا للنظـام ومـا غـلا

مقصـورة بخيـام فكري أعرضت
عمن سـواك وأمتـك على حيـا

حسنـاء يهـوى كـل عضـو لـو غـدا
أذنـا وقـد تليت تصيـخ لمن تـلا

تثني عليـك على بـأطيب نكهـة
ممـا بـه أثنى الريـاض على الحيـا[81]

وكأني بابن عبد المنان هذا كان معجبا بشعره إلى حد كبير، جعله يتغنى ببراعته فيه ورسوخ قدمه في أكثر من قصيدة مديحية، بل إنه ليطيل أحيانا في هذا الاعتزاز وتلك الإشادة إطالة تنسيه الختم بالدعاء، كما نقرأ في نهاية إحدى مدائحه لأبي عنان :

ودونكهـا بكر المعـاني وإنهـا
إذا مـا تقفيت القـوافي ثيب

يلـوح بهـا بشر لقربـك ضـاحـك
ويـذكـو لهـا نشر بـذكرك طيب

تجلت رجـاء للتجـاوز، إنهـا
تكـاد إذا نـاقشتهـا تتنقب

فـإن تحتبس فيمـا أسـأت فـإنهـا
لمـا أحسنتـه من مـديحـك تـوهب

ومـا مـدح الأجـواد إلا عرائس
تبرقـع من نعمـائهم وتجلبب

إذا قـابلت وجـه الكريم فحظهـا
لـديـه بير القـول : أهـل ومرحب

على دأبهـا في شرعـة المجـد لم تـزل
تعظم في نـادي النـدى وترحب

تخـالف فيهـا سـامعوهـا فعـائب
يشرق في وجـه ومثن مغرب

حلت وأمرت فهي شهـد وحنظـل
لسخـط وود مـا تمر وتعـذب

---

79) نثير فرائد الجمان ص 375.
80) روضة النسرين ص 43.
81) نثير فرائد الجمان ص 356.

إذا رزقت منـــك القبـول فـــإنهـــا
ســواء لـــديهـــا حـــاسر ومعصب

ومـــا كنت بـــالمصغي إلى قـول نـابـز
ولـو أنـــه بـــالخيـل والرجـل يجلب

وشـــاحت بـــه عن خـــاطر... للـــذي
يعـــاني بـــه مـــاء القريحـــة ينضب[82]

مـدحتـك أبغي لي بمـدحـك غـايـة
وإن جـل فيـــه مـــا أطيـل وأطنب

فمـا جئت إلا أســأل العفـو منـــك لي
كـــأني بتقصيري وعجـزي مـــذنب[83]

ولعلنا بعد استعراض مختلف العناصر التي تتألف منها قصيدة المديح السياسي في العصر المريني، محتاجون إلى الإشارة إلى أن بعض القصائد - وتحت تفاعل كثرة المضامين واتساع الأفكار - كانت تتميز بطول النفس الشعري الذي تجاوز عند بعضها المائتي بيت، على غرار مطولة عبد العزيز الملزوزي التي مطلعها :

الحمـــد للـــه أفتتـح الخطـــابـــا
وأبـــدأ في النظـــام بـــه الكتـــابـــا[84]

فقـد بلغت مـائتين وتسعـة وعشرين (229) بيتـا، وكذلك مطولة محمد بن عمر الزناتي التي جاء في أولها :

تـــذكرك أحلى في اللســـان وأعـــذب
وقربـــك أشهى للفـــوائـــد وأطيب[85]

حيث بلغت مائة وثلاثة وخمسين (153) بيتا، علاوة على قصيدة ابن عبد المنان في مدح أبي عنان التي بلغت ثلاثة وتسعين (93) بيتا، والتي استهلها بقوله :

ألف الجـوى مـذ بـان سكـان اللـوى
صب يهيـج غرامـــه نفس الصبـــا[86]

ويبـدو أن هـذا النفس الطويـل قـد عرفتـه بعض القصائد المديحية قبل الفترة المرينية، وخاصة في مجال المديح النبوي، كمطولة ميمون الخطابي الموحدي في مدح الرسول ﷺ، والتي بلغت مائة وخمسين (150) بيتا، جاء في بدايتها :

حقيـق علينـــا أن نجيب المعـــاليـــا
ونقفي في مـــدح الحبيب المعـــانيـــا[87]

كما عرفته هذه القصائد في العصر السعدي ثم العلوي فيما بعد، وخاصة في المجال النبوي كذلك، كمولدية أبي عبد الله محمد المرابط الدلائي ذات المـائـة والستـة والسبعين (176) بيتا، والتي مطلعها :

حي المعـــاهـــد طـــافـح الأشجـــان
وانثر هنـــــاك لآلئ الأجفـــــان[88]

ومولدية عبد العزيز الفشتالي قبلها، والتي بلغت مائة وأحد عشر (111) بيتا، استهلها بقوله :

هم سلبـوني الصبر والصبر من شـــأني
وهم حرمـوا من لـذة الغمض أجفـاني[89]

ولابد أن نشير بعد هذا إلى أن شعراء المـديح في العصر المريني لم يسلمـوا من التـأثر بثقـافتهم الـدينيـة والعلميـة المتنوعـة، وهي ثقـافـة كـانت تكتسح كـل شعراء الفترة، ومن ثم ظهرت بصمات هـذه الثقـافـة واضحـة في أغراض شعرهم، ومن بينهـا غرض المـديح، وهكـذا كثر في هـــذا الغرض التضمين والاقتبـاس من القرآن الكريم، وهي

) غير واضح في الأصل.
) نثير فرائد الجمان ص 371.
) الأنيس المطرب، ص 364 - 372.
) نثير فرائد الجمان، ص 363 - 372.

86) نثير فرائد الجمان، ص 351 - 356.
87) أزهار الرياض، ج 2، ص 384 - 392.
88) البدور الضاوية، ص 297 - 303.
89) شعر عبد العزيز الفشتالي، ص 420 - 439.

كثرة نشير منها إلى النماذج الآتية :

• يقول مالك بن المرحل من قصيدة في الأمير أبي مالك عبد الواحد المريني :

وذكريـــه فـــإن الـــذكر منفعـــة
وذاك في محكم التنـزيـل قـــد رسما[90]

وهـو قـول مقتبس من قـولـه تعـالى من سـورة الذاريات : «وذكر فإن الذكرى تنفع المومنين»[91].

• ويقول عبد العزيز الملزوزي من قصيدة :

فـإنـك لا تهـدي من أحببت للهـدى
أتـدفـع عنـه مـا عليـه مقـدر[92]

إذ هو مأخوذ من قوله تعالى من سورة القصص : **﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾**[93].

• ويقول على بن عمر الزناتي كذلك من قصيدة :

ومـا كنت بـالمصغي إلى قـول نـابـز
ولـو أنـه بـالخيـل والرجـل يجلب[94]

إذ هو قول متضمن لقوله تعالى من سورة الإسراء **﴿واستفـزز من استطعت منهم بصـوتـك واجلب عليهم بخيلـك ورجلـك، وشـاركهم في الأمـوال والأولاد وعـدهم، ومـا يعـدهم الشيطـان إلا غرورا﴾**.[95]

وإذا كانت هذه النماذج تمثل ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم، فإن نماذج أخرى من شعر المديح المريني تعكس آثار الثقافة العلمية، والنحوية منها خاصة، على شعراء هذا الغرض، منها قول الملزوزي من قصيدة :

كـأن حمـاة الجيش فعـل مضـارع
وبترك لـلأعنـاق منهـا جـوازم
وتجمعهـا بـالسيف جمعـا مكسرا
وجمعـك مـا بين الكتـائب سـالم[96]

ومنها قول ابن عبد المنان :

لـك الخير هـذا نعت حـالي جملـة
وشرحـا فهـل للعطف من بعـده ذكر[97]

ومنها كذلك قول أبي الوليد بن الأحمر ـ وفيه دليل على أن الظـاهرة لم تقتصر على الشعراء المغـاربـة، بـل تجاوزتهم إلى الأندلسيين كذلك :

ملـك قضى الملـك المهيمن ملكـه
ليعيـد معتـل الأمـور صحيحـا[98]

ولعل هذه الظاهرة لم تكن مما اختص به غرض المديح في العصر المريني، بل هي ظاهرة نلمسها لدى بعض شعراء هذا الغرض، سواء قبل المرينيين أو بعدهم. ولعلنا في هذا المجال نتذكر قول أبي العباس الجراوي من العصر الموحدي في هجاء ابن الياسمين :

أست الحبـاري ورأس النسر بينهمـا
لـون الغراب وأنفـاس من الجعـل
خـذهـا إليـك بحكم الـوزن أربعـة
كـالنعت والعطف والتـوكيـد والبـدل[99]

كما نستحضر أقوال بعض شعراء الزاوية الدلائية كأبي عبد الله محمد المرابط القائل من قصيدة :

فليس بمرقيـك الـذي كـان فـاعـلا
نديـك فـالمرفوع بـالفعـل فـاعلـه[100]

وكأبي علي الحسن بن مسعود اليوسي القائل كذلك :

قصر الهنـاء أسى لغير ضرورة
لـولا نـواكم والهـوى ممـدود[101]

90) الذخيرة السنية، ص 121.
91) الآية رقم 55.
92) الذخيرة السنية، ص 127.
93) الآية رقم 56.
94) نثير فرائد الجمان، ص 372.
95) الآية رقم 64.
96) الذخيرة السنية، ص 134.
97) النبوغ المغربي، ص 873.
98) روضة النسرين، ص 42.
99) النبوغ المغربي ص 910.
100) ديوان محمد المرابط، ص 24.
101) ديوان اليوسي ص 70.

وكعثمان بن علي اليوسي القائل أيضا :

أمن لسواه النكر وهو له العرف
أعمدتنا من لا يسوغ له الحذف
ضميري مبني على ضم ودكم
ويعجز عن إعرابه الفعل والوصف
وهو مدى الأزمان عندي مؤكد
ولا بدل يعروه هل منكم عطف
إذا صرفت أسماء أهل ودادكم
فعثمان في الأسماء ليس له صرف[102]

وأخيرا نختم بالإشارة إلى أن من شعراء المديح في العصر المريني من كانوا يركبون ألوانا من الصنعة والتأنق أسوة بمن تقدمهم من شعراء العربية، سواء تعلق الأمر باعتماد المساحيق البلاغية من جناس وطباق وغيرهما، أو تعلق بالجانب الإيقاعي كاعتماد القافية الداخلية مثلا في قول ابن عبد المنان :

محياك أبهى لا الهلال ولا البدر
وريقك أشهى لا الزلال ولا الخمر
ولحظك أنكى لا البواتر تنتضى
وعرفك أذكى لا الأزاهر تفتر[103]

كما نشير إلى نسج بعض شعراء المديح المريني على منوال أسلافهم القدامى إن على مستوى المضمون أو على مستوى الصياغة، وعلى سبيل المثال في المجال الأول نشير إلى قول عبد الرحمن بن إبراهيم بن الأشقر من قصيدة :

وقمت بأمر الله مجتهدا ولم
تصدك من أهل النجوم الأحادث
فكان الذي قالوه إفكا وقد مضى
وسعيك مشكور وسعدك لابث[104]

فلعل المعنى قريب مما جاء في بائية أبي تمام حول فتح عمورية، إذ سفه أقوال المنجمين، في قوله :

والعلم في شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب[105]

أما في المجال الثاني فنبقى مع الشاعر نفسه الذي يقول من قصيدة :

يمينا بوخد الراقصات إلى منى
ومن طاف أسباعا وما أنا حانث[106]

فلعله جار على أسلوب جميل بثينة الذي يقول :

حلفت برب الراقصات إلى منى
هوي القطا يجتزن بطن دفين[107]

وإذا كانت هذه النماذج تمثل تقليد شعراء المديح المريني لشعراء المشرق، فإن نماذج أخرى تمثل هذا النسج، ولكن على منوال الشعراء المغاربة المتقدمين، كما يدل على ذلك قول أبي عبد الله المكودي :

حللت عقد سلوى عن فؤادي إذ
حللت منه محل الروح من جسدي[108]

فلعله قريب من أسلوب أبي العباس الجراوي إذ يقول :

وحللتم جبل الهدى فحللتم
منه عقود عزائم الكفار[109]

على أن هذا التقليد لم يكن ليجرد قصيدة المديح السياسي في العصر المريني من مميزاتها وخصوصياتها، ولا لينفي عنها ما أصبحت تتمتع به من شخصية تسعى نحو الاستقلال والتفرد، وتحاول أن تنزع عنها ما كان يلفها من حبال التبعية المطلقة للقصيدة العربية في المشرق.

102) البدور الضاوية ص 287.
103) النبوغ المغربي، ص 872.
104) نثير فرائد الجمان، ص 346.
105) ديوان أبي تمام ج 1 ص 46.
106) نثير فرائد الجمان، ص 346.
107) ديوان جميل بثينة ص 207.
108) النبوغ المغربي ص 729.
109) البيان المغرب، ج 3، ص 47.

المصادر والمراجع
المذكورة في هوامش القسم الثاني
ولم تذكر في هوامش القسم الأول

• القرآن الكريم
المصحف الحسني، مطبعة فضالة، المحمدية، 1395هـ

• الأدب المغربي
لمحمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1960م.

• الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى
لأحمد بن خالد الناصري، تحقيق وتعليق جعفر ومحمد الناصريين، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م.

• الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس
لعلي بن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م.

• البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية
لأبي الربيع سليمان الحوات، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 261.

• البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب
لابن عذاري المراكشي، نشر امبروسي هويسي مراندة، دار كريماديس للطباعة، تطوان، 1960م.

• ديوان أبي تمام حبيب بن أوس الطائي
شرح الخطيب التبريزي، وتحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر.

• ديوان ابن معمر – جميل بثينة
جمع وتحقيق وشرح الدكتور حسين نصار، دار مصر للطباعة.

• ديوان الدلائي – محمد المرابط
مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 3644.

• ديوان الدلائي – محمد المرابط
جمع وتحقيق عبد الجواد السقاط، مخطوط لدى المحقق.

• ديوان ابن الفارض
دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1376هـ – 1957م.

• ديوان الجتري
منشورات دار القاموس الحديث، بيروت، 1301هـ

• ديوان اليوسي – أبي علي الحسن بن مسعود
مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ج 32.

● الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية

لعلي بن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972م.

● روضة النسرين في دولة بني مرين

لأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر، المطبعة الملكية الرباط، 1382هـ - 1962م.

● شرح القصائد العشر

للخطيب التبريزي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، المكتبة العربية بحلب، 1388هـ - 1969م.

● الكميت بن زيد شاعر العصر المرواني وقصائده الهاشميات

لعبد المتعال الصعيدي، دار الفكر العربي، القاهرة، مطبعة الرسالة.

● مظاهر الثقافة المغربية من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر

للدكتور محمد بن شقرون، مطبعة الرسالة، الرباط.

● النبوغ المغربي في الأدب العربي

لعبد الله كنون، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة ،النشر، بيروت 1961م.

● نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان

لأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، 1967م، بيروت، لبنان.

الرباط ـ عبد الجواد السقاط

صحراءنا الغراء يا زين الحمى

للشاعر أحمد الجمال

صحـــراءنـــا الغـــراء يـــا زين الحمى ... الكـــل أصبـــح في هـــــواك متيما
صحـــراءنـــا إنـــا نـــرى بقلـــوبنـــا ... وعيـــونننـــا فيـــك الجمال مجسما
فعيـــونك الفيحـــاء مثل عيـــوننـــا ... نـــرعـــاهما من كل مـــن يـــؤذيهما
ونصـــون وادينـــا العـــزيـــز بمالنـــا ... ورجـــالنـــا ونســـائنـــا كي يسلما
فلقـــد كـــرهنـــا أن يكـــون تـــرابنـــا ... منـــذ القـــديـــم مجزءا ومقسما
كيف السُّلُوُّ عن الـــرمـــال ومن بها ... والغـــاصـب الجاني يعـده كـــالـــدمـى؟!
لم يثنـــه عـــن غيـــه خلـــق ولا ... هـــذي الحضـــارة بـــل ولا ديـــن السما
بـل عـــاش في صحـــرائنـــا وكما يشـــا ... فـــأذاق أهلينـــا هنـــالـــك علقما
فمضـــى المليـك أبـــو المسيرة واضعـــا ... للشعـــب تخطيطـــا عجيبـــا محكما
وبـــدا ليـــزحف في نظـــام شـــامل ... للظلـــم والحد المقيـــت محطما
فـــإذا المسيرة حققـــت كـــل المنـــى ... للشعـــب والملـــك الطمـــوح كليهما
وإذا المسيرة قـــد غـــدت مشهـــورة ... في كـــل أرض أمـــرهـــا لـــن يكتما
هـــذي المسيرة لا تـــزال بـــذهننـــا ... مـــادام طير في السما مترنما
هـــذي المسيرة لا تـــزال لشعبنـــا ... مثل الســـوار بـــدا يـــزيـــن معصما
ذكـــرى المسيرة حلـــوة وجميلـــة ... مـــا فـــارقـت أبـــدا لســـانـــا أو فما
فلتســـألـــوا عنهـــا المليـك وشعبـــه ... كـي تلمســـوا صـــدق الجواب لـــديهما
ولتنظـــروا لموحـــد الأوطـــان أسرع للنماء مخططـــا ومنظما!

قـــد قـــام للصحـــراء يصلح شأنها ... في خـدمـة مـوصـولـة لم يسأمـا
حتى غـدت مـن بعـد ذلك روضـة ... تسبي الفـؤاد بظلهـا وخـريـرمـا
وغـدا البنـاء بها متينـا شـامخا ... مـن فـوقـه علم التحـرر قـد سما
وحمى الثغـور مـن العـدى بـرمـالنـا ... جيـش قـوي للحـدود قـد انتمـى
فـإذا الثغـور سليمـة محفـوظـة ... وإذا الأمـان على الأنـام مخيما
وإذا الإلـه نـراه ينصر عبـده ... إذ كـان قلبـه بـالعـدالـة مفعما
قـولـوا لمن هجـروا البـلاد ويممـوا ... «تنـدوف»: لا تبقـوا هنـالـك نُوَّمَا
استيقظـوا وتنبهـوا مـن غفلـة ... طـالـت بكـم، ودعـوا المصير المبهما
لِـمَ يشتكـي إخـوانـنـا والأرض أر ... ضهمـو لما؟! والـدار دارهمو لما؟!
هـي منهمـو وإليهمـو فَلِـمَ الأسـى؟ ... وَلِـمَ التشكـك يـاأخـي يـاابـن الحمـى؟!
فلينظـر المرء الطـريـق أمـامـه ... يهديـه قلبـه إن أضر بـه العمـى
استفـت قلبك يـاأخـي واطـرح وسـاوسـك الغـزيـرة قبـل أن تتقـدمـا
أمـن التعقـل أن تظـل على المدى ... في غـربـة منبـوذة متـأزمـا؟!
تشكـو حنينـك للبـلاد وأهلهـا ... شكـوى تضعضـع قلبـك المتـألما؟!
أو مـا ضجـرت مـن التشرد في الخيـام ولا تـزال لحالها مستسلما؟!
فـارجـع أخي لـلأهـل والـوطـن الـذي ... ستعيش فيـه معـززا ومكـرمـا
وامـلأ فـؤادك بـالتفـاؤل إنـه ... وطـن عفـا عمـن أسـاء وأجـرمـا
يـامـرحبـا بـك في بـلادك إنها ... بـك تـزدهـي، لا تبـق عنهـا محجما
يـامـرحبـا بـك يـاأخـي في مـوطـن ... يلقـاك إن عـانقتـه متبسما
ستظـل صـاحبـه وسيـد أمـره ... وعلى شـؤونـه مستشـارا قيما
تحت الـرعـايـة للمليك المفتـدى ... مـن قـد حبـاه اللـه فكـرا ملهما
أبقـى الإلـه إمـامنـا نِعَمـاً لنـا ... فيـاضـة مثـل السحـاب إذا همى
وأطـال عمـره سـالما في صحـة ... وسعـادة طـول الحيـاة منعما
ورعـى الإلـه «ولي عهـد مليكنـا» ... وحماه ربـه سرمـدا فيمـن حمى
وأدام «مـولاي الـرشيـد» لعـرشنـا ... قمـرا يفـوق سنـاه تلـك الأنجما

الدار البيضاء ـ أحمد الجمالي

الترجمة في خدمة التنمية الفكرية

للدكتور عبد الله العمراني

الترجمة كائن حي، ولدته أم رؤوم هي اللغة البشرية الأولى، وأنجبه أب حنون هو الرمز أو الخط. وبمرور الأيام والليال، وتعاقب القرون والأجيال، نما الكائن الحي بتكاثر الخطوط وتنوع أشكال الكتابة، وبتوالد اللغات وتعددها واتساع نطاق انتشارها وسيادتها في ربوع الكون الفسيح.

إزاء هذا التوالد والتكاثر، قصر - في البداية - كل قوم اهتمامهم على لغتهم وكتابتهم، وصعبت قراءة لغتهم على غيرهم، كما صعبت عليهم هم قراءة لغة غيرهم. من هنا برزت الحاجة إلى حل رموز اللغات، وفك ألغازها المستعصية، وهنا تنبه النابهون في كل شعب إلى أهمية تعلم لغة الشعوب الأخرى إلى جانب لغتهم، فتعلموها وعلموها، ولمسوا فائدة ذلك التعلم والتعليم في ميادين التعامل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. ورأوا أن من الضروري الاستفادة من تعلمهم على نطاق أوسع، فسعوا سعيهم الحثيث، وتمكنوا من إحداث أمور ذات بال:

أولها: التدوين بغية الحفاظ على الذكريات والمكتبات والأحداث التاريخية من جهة، ومن جهة أخرى، ابتغاء التعارف والتواصل بين الجيران، وإفهام الأقربين والأبعدين - زمانا أو مكانا - فحوى المدونات من كتب ورسائل وما أشبه.

وثانيها: الترجمة بقصد نقل معاني لغة إلى أخرى، وتيسير محتوياتها على الراغبين فيها من غير الناطقين بها، وتقديم تلك المحتويات لقمة أدبية - علمية - سائغة لهم يسهل فهمها وهضمها.

وثالثها: تأسيس (بيوت الحكمة) و (دور العلم) و (المعاهد) و (المجامع) لتعليم الترجمة كي تصبح علما أو فنا ذا كيان خاص، ولتصل إلى مستوى أفضل راق. ولتحقيق هذا الهدف، برزت في ميدان التربية والتعليم طائفتان:

إحداهما: كانت ترى وجوب إدخال الترجمة في برامج التعليم.

والأخرى: رأت أن لا حاجة تدعو إلى البرمجة، بل يكفي أن تُعَلَّمَ الترجمة عفويا، وبطريق غير مباشر هو طريق تَعَلُّمِ اللغة ذاتها، والإحاطة علما بقواعدها وأساليبها. وكان النصر في النهاية حليف الطائفة الأولى، إذ صارت الترجمة تعلم كجزء من مادة، أو كمادة مستقلة. وهكذا أنشئت في النهاية مدارس وكليات خاصة، تكرس لها جهودها، وتعزز تلك الجهود بدراسة مواد علمية تكميلية.

تنبه العالم المتحضر – إذن – إلى ما تسديه الترجمة للتنمية الفكرية من خدمات وتجلبه من فوائد علمية وأدبية تستفيد منها الشعوب القارئة المتطلعة إلى مستقبل باسم. وأهم تلك الفوائد :

1) تعلم اللغة أواللغات المراد ترجمة نصوصها، ودراستها دراسة مستفيضة تعود بالنفع العميم على الدارسين خاصة، وعلى المجتمعات عموما.

2) التعرف على الشعب أو الشعوب التي تتحدث تلك اللغات وذلك بالتعرف على بيئتها وتاريخها، والاطلاع على أعرافها وتقاليدها، والإلمام بحضارتها وثقافتها. ولاريب أن كل ذلك يخدم فكرة التعايش السلمي، والتعاون والتفاهم الدوليين.

3) التعريف بالمنتجات الفكرية والمعالم الحضارية لشعب ما، ونقلها إلى شعب أو شعوب أخرى لا تتحدث اللغة المنقول عنها، وبذلك يتم توسيع المدارك، وتحسين المستويات الثقافية، وفتح مجالات واسعة توحي بأن بالعالم شعوبا متفاهمة متآخية تفكر وتعمل وتعيش بطرق متماثلة، وبكيفيات وأساليب منوعة قد تتباين من حيث الوسائل، ولكنها تتفق من حيث الغاية وهي التقدم والرقي والازدهار المادي والمعنوي.

4) تكوين تراجمة مهرة يركن إليهم ويوثق بنقولهم وترجماتهم المباشرة أو غير المباشرة، المسموعة أو المقروءة.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن للترجمة طريقتين، أو أن الترجمة نوعان:

أولا: الترجمة الحرفية: وهي أن تترجم كل كلمة من اللغة المنقول عنها إلى ما يماثلها من كلمات اللغة المنقول إليها. بيد أن تحقيق الترجمة الحرفية على الوجه الأكمل، تحول دونه حوائل أو صعوبات أهمها:

أ) أن بعض مفردات اللغة المنقول عنها، لا يوجد له مقابل في اللغة المنقول إليها، والعكس صحيح.

ب) أن خصائص البنية أو التركيب في لغة ما، قد تختلف عن خصائص البنية أو التركيب في لغة أخرى، ذلك أن الخصائص لا تتماثل دائما، وخصوصا إذا كانت اللغتان متباعدتين تنتمي كل منهما إلى أصل مختلف، كاختلاف السامية عن الآرية، واللاتينية عن الجرمانية.

ج) أن الترجمة الحرفية قد تكون من وجهة نظر أرباب اللغة المنقول إليها ركيكة الأسلوب، مهلهلة النسج، تبدو عليها آثار الترجمة، ويسودها الغموض أحيانا.

د) أن النصوص التي تتم ترجمتها بهذه الطريقة الحرفية، تظل دوما في حاجة ماسة إلى ترجمتها من جديد، بطريقة أكثر دقة وسدادا.

ثانيا: الترجمة الحرة: وتبدأ بأن يقرأ المترجم النص مرة بعد أخرى قبل أن يقرأه جملة جملة متأملا في المعاني والأفكار والمصطلحات والتراكيب التي تناسب النص في اللغة المنقول إليها. ثم يشرع في الترجمة مراعيا الدقة والأمانة في النقل، مع المحافظة على المعاني الأصيلة للنص المترجم. وعلى خصائص اللغة المنقول إليها وأساليبها وقواعدها، وذوق أهلها الأدبي... إلى غير ذلك مما تتطلبه الترجمة الحرة النزيهة السليمة.

هذا، وينبغي أن لا يعزب عن بال المترجم أن اللغات التي تتباين في قواعدها وأساليبها، تتفاوت فيما بينها من حيث الرشاقة والأناقة والزخرف اللفظي. فاللسان العربي – مثلا – كثيرا ما ترتكز

أساليب بعض كتابه على الظاهرات البيانية من مجاز وكناية وتمثيل، أو المحسنات البديعية من لفظية كسجع وجناس، أو معنوية كتورية وطباق. أما اللغات الأوروبية الأخرى فهي أقل توشية وزخرفة، وبالتالي فهي أقل إسهابا وإطنابا. فعلى المترجم أن يراعي هذا، ويعتمد المساواة في الأسلوب، متفاديا الإيجاز المخل، أو الإطناب الممل، ومكتفيا فقط بالعبارة الموفية بالغرض المقصود، اللهم إلا إذا كان متأكدا من أن اللغة المنقول إليها تتوفر على مثل تلك الظاهرات البيانية أو البديعية، حينئذ يمكنه أن يستعمل ما يشبه تلك الظاهرات بكل ثقة واطمئنان.

وهكذا يمكن أن يقال في الأمثال، فإذا كانت متشابهة في اللغتين، ترجم المثل بمثيله في اللغة الأخرى ولا حرج. فمثلا: إذا أردنا ترجمة المثل العربي (إن الطيور على أشكالها تقع)، قلنا في الإنكليزية: Birds of a feather flock together وقلنا في الإسبانية: Dios los cria y ellos se juntan أما إذا كانت الترجمة صعبة أو متكلفة، فيحسن بالمترجم حينئذ ألا يلجأ إلى ترجمة حرفية ركيكة، بل ينبغي أن يعمد إلى الترجمة الحرة فيترجم النص حسب المعنى المراد منه.

من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - تتبع حركة الترجمة في بلدان الحضارات الشرقية أو الغربية، ومن الصعب - إن لم يكن من المستحيل - كذلك تحديد بداية زمنية لتلك الحركة، ولكن تكفينا الإشارة هنا إلى بعض المراكز الثقافية العالمية التي مارست الترجمة، ودفعت عجلة التقدم العلمي والنماء الفكري إلى الأمام.

نشير هنا إلى الفتوح الإسلامية وما أتاحته من تمازج الشعوب واحتكاك الثقافات المختلفة من مصرية وإغريقية (يونانية) وفارسية وهندية وصينية. إزاء هذا التمازج والاحتكاك رأى المسلمون أن لا مندوحة لهم عن الترجمة التي تتيح لهم الاطلاع على الثقافات المنوعة، ثم تقييمها وإجراء الموازنة بينها وبين الثقافة العربية الإسلامية.

ففي دمشق عاصمة الدولة الأموية بالمشرق، كان الأمير خالد بن يزيد بن معاوية (ت. 704م) أول من اهتم بترجمة الكتب العلمية التي كان يهواها ويميل إليها في علوم الكيمياء والطب والتنجيم. وفي بغداد، جاء الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور (754-775م) فأسس بيت الحكمة، وجلب له نوادر الكتب، وقرب العلماء وشجع المترجمين. وفي عهد الخليفة العباسي السابع المأمون (813-833م) بلغت حركة الترجمة أوج تقدمها.

وكانت الترجمة إلى العربية من اللغات الحية المعاصرة حينئذ، كالسريانية والإغريقية. وقام بالترجمة عدة مترجمين اشتهر منهم على الخصوص آل بختيشوع الذين كان أهمهم أولهم: جورجيس بن بختيشوع، وآل حنين ابن إسحاق العبادي الجيري الذي كان شيخ المترجمين، كما كان أعلم أهل زمانه بالسريانية والإغريقية والفارسية، علاوة على العربية التي تتلمذ فيها على النابغة العربي الخليل بن أحمد الفراهيدي.

ومن الذين ترجموا إلى العربية من السنسكريتية (الهندية) مُنْكَه الهندي، وابن دهن الهندي. أما الذين ترجموا إليها من اللغة النبطية (الكلدانية)، فنجد من بينهم العالم أحمد بن وحشية النبطي المتوفى حوالي سنة 800م... كل هؤلاء - وغيرهم - كانوا أعلام ترجمة أثروا الفكر العربي بما أسدوه للغة الضاد من ترجمات علمية للكتب الطبية والفلكية والفلسفية وغيرها.

وفي قرطبة عاصمة الدولة الأموية بالغرب الإسلامي، نجد عبد الرحمن الثالث (300-350هـ = 913-961م) يستقبل سفارة امبراطور بيزنطة قسطنطين السابع (913-919م)، ويتقبل منها هدايا ثمينة من أهمها:

1) نسخة من كتاب التاريخ الذي ألفه باللاتينية المعروفة لدى الأندلسيين، حبر قوطي من القرن الخامس الميلادي يدعى باولوس أوروسيوس: Paulus Orosius.

2) نسخة إغريقية أصيلة من كتاب ديوسقوريدس Dioscurides في الأعشاب الطبية. سبق أن ترجم هذا الكتاب في المشرق بقلم استيفان بن باسيل، أيام الخليفة العباسي العاشر المتوكل (847-861م)، وكانت الترجمة رائجة في الأندلس، ولكنهما كانت ناقصة. وكانت للكتاب أيضا ترجمتان أخريان إحداهما لحنين بن إسحاق، ولكنهما لم تروجا في الأندلس، وعلى الرغم من كل ذلك، فإن وجود النسخة الإغريقية الأصيلة بين يدي الخليفة عبد الرحمن الثالث أغراه بترجمة الكتاب من جديد. لذا نراه يطلب من قسطنطين السابع أن يزوده بمن يتقن اللغتين الإغريقية واللاتينية، بقصد الاستفادة من خبرته، والاستعانة به في الترجمة، فزوده بالراهب نيقولاس الذي وصل إلى قرطبة في غضون - سنة 340هـ (951م).

حينئذ، ألف الخليفة لجنة الترجمة التي كان من أعضائها :

أبو محمد عبد الله الشجار أي النباتي، والسيد البسباسي، وأبو عثمان الجزار (الملقب باليابسة)، والطبيب محمد بن سعيد، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم، وأبو عبد الله الصقلي، الذي كان يتحدث اليونانية، بالإضافة إلى الراهب البيزنطي نيقولاس، واليهودي الأندلسي حسداي بن شبروط... وهكذا نجد أن اللجنة قد تم تأليفها بغض النظر عن جنس أعضائها أو ملتهم، ذلك أن البحث العلمي من جهة، وروح الديانة الإسلامية السمحة من جهة ثانية، لا يقران التحيز الديني أو التمييز العنصري.

وللقيام بالمهمة على خير وجه، ولإتمام تعريب الكتاب بكيفية مرضية، رأت اللجنة أن تبحث عن مقابل الاسم الإغريقي في اللغة العربية الفصحى، أو في اللهجة العامية الأندلسية، وأن تسقط من اعتبارها النباتات التي لا تنمو بالأندلس، وأن تترجم فقط تلك التي تنمو بها، مع إضافة النباتات الخاصة التي تنمو في التربة الأندلسية ولا يوجد لها مثيل في بلاد اليونان.

ولتحقيق هذا الهدف، كان لابد من طواف أعضاء اللجنة بأنحاء الأندلس في رحلات استكشافية تجول في السهل والجبل، في الساحل والداخل، بغية جمع النباتات، وإبداء الملاحظات، وعقد الموازنات، وعمل كل ما من شأنه أن يسهم بقسط في خدمة ميادين علم النبات والصيدلة والطب. وليس هذا فحسب، بل ظل كتاب ديوسقوريدس قطب رحى البحث العلمي في الأندلس ردحا من الزمان، حيث درسه ونقحه وألف في موضوعه علماء أندلسيون عديدون، مثل أبي داوود سليمان ابن حسان المعروف بابن جلجل، ومثل الوزير أبي المطرف عبد الرحمن بن وافد اللخمي، وأبي جعفر أحمد بن محمد بن السيد الغافقي، وهو غير الطبيب محمد بن قسوم بن أسلم الغافقي مؤلف كتاب (المرشد في الكحل) أي طب العيون.

وإذا انتقلنا عبر المكان من قرطبة إلى طليطلة، وعبر الزمان من أواسط القرن الرابع الهجري (أواسط العاشر الميلادي) إلى أواخر القرن الخامس الهجري (أواخر الحادي عشر الميلادي) وجدنا أنفسنا أمام مركز إشعاعي مهم انتشرت منه الثقافة العربية إلى باقي نواحي إسبانيا، وسائر أنحاء أوربا الغربية، وبالخصوص عهد أسقف طليطلة رايموندو (1126_1152م) الذي يرجع إليه الفضل في إدخال النصوص العربية في دوائر الدراسة الغربية، وفي رعاية جماعة من المترجمين والكتاب عرفت باسم: معهد المترجمين الطليطليين. ففي هذا المعهد تم نقل المؤلفات العربية إلى اللاتينية في مختلف العلوم من طب وفلك ورياضيات وكيمياء وطبيعة وتاريخ طبيعي، وفي السياسة والمنطق والفلسفة وما وراء الطبيعة. وفيه ترجمت كذلك تلك الشروح والمختصرات الفلسفية التي وضعها علماء عرب من أمثال الكندي، والفارابي، وابن سينا، والغزالي، وابن رشد، والبطروجي (ت. 1185م).

وممن برز من هؤلاء المترجمين، الإسباني دوميتيكوس كونديسالفي (دومينكو كونثاليث)، واليهودي المتنصر يوحنا ابن داوود. كان الإثنان يشتركان غالبا في الترجمة، فكان يوحنا يقوم بترجمة النص العربي إلى الإسبانية الدارجة، وكان زميله كونديسالفي يقوم بنقلها إلى اللاتينية لغة العلم والأدب آنذاك.

وتواصل المكوث - بعض الوقت - في بلاد الأندلس، هذا البلد الخصيب المعطاء، فنشهد ما يثير العجب والإعجاب معا، نشاهد ثالوثا سحريا مدهشا يؤلفه:

أ) ملك المغرب والأندلس، الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي كان مهتما بالفلسفة والطب، جمّاعاً للكتب، مُقرّباً للعلماء، وأهلِ النظر منهم خاصة.

ب) طبيبه الخاص، أبو بكر محمد بن طفيل، تلميذ فيلسوف الأندلس ابن باجه، والمؤلف في الطبيعيات والإلهيات، والفلسفة، إذ هو مؤلف الرسالة الفلسفية الشهيرة (حي بن يقظان).

ج) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (الحفيد)، صديق ابن طفيل، وشارح أرسطو، وصاحب مذهب (الرُّشدية) في الفلسفة.

لكن، كيف تم اجتماع هذا الثالوث، وإجماعه على خدمة الفلسفة والإنتاج الفلسفي؟ ذلك ما سنتعرف عليه من خلال كلام ابن رشد وهو يصف لنا لقاءه الأول مع الخليفة الموحدي:

«لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب، وجدته هو وأبو بكر بن الطفيل ليس معهما غيرهما. فأخذ أبو بكر يثني علي، ويذكر بيتي وسلفي، ويضم - بفضله - على ذلك أشياء لا يبلغها قدري. فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي، أن قال لي: ما رأيهم - يعني الفلاسفة - في السماء؟ أقديمة هي أم حديثة؟ فأدركني الحياء والخوف، وأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل، ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء، فالتفت إلى ابن طفيل، وجعل يتكلم في المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن، المتفرغين له... ولم

يـزل يبسطني حتى تكلمت، فعـرف مـا عنـــدي من ذلك».

هذا ما قاله الفيلسوف ابن رشد الذي يطلق عليه الأوروبيون اسم شارح أرسطو. أما الحافـز لـه على الشرح فيقول عنه: «استدعاني أبو بكر بن طفيل يوما فقال لي: «سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه، ويذكـر غموض أغـراضــه ويقــول: لــو وقع لهذه الكتب من يلخصها، ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا، لقرب مأخذها على الناس... فإن كان فيك فضل قـوة لذلك، فافعل، وإني لأرجو أن تفي بـه، لما أعلمـه من جـودة ذهنك، وصفـاء قـريحتك، وقـوة نـزوعك إلى الصناعة، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمـه من كبرة سني، واشتغالي بالخدمة، وصرف عنايتي إلى مـا هـو أهم عندي من ذلك».

واستجاب أبو الوليد ابن رشد للفكرة ورحب بها قـائلا: «فكـان هـذا الــذي حملني على تلخيص مـــا لخصته من كتب الحكيم أرسطوطاليس». ولا يعـزب عن البـــال، أن ابن رشـــد لم يكتف بتلخيـص كتـب أرسطو، بل علق عليها، وأوضح أغراضهـا، وأضـاف إليها الشيء الكثير، مما يعتبر أصـلا من أصـول العلم الحديث في أوروبا.

وإذا كان الشيء بالشيء يـذكـر، فإن الحديث عن الأندلس الإيبيريـة، يقـودنـا إلى الحديث عن الأنـدلس الإيبيرو-أمريكية، خصوصا أن الاحتفالات بما يسمى هيسبانو أمريكـانيسمـو Hispanoamericanismo على الأبواب. لذا أرى لزاما أن أشير إلى الأنـدلس الجديـدة التي خلفت الأندلس القديمة، وحلت محلهـا في إثـراء الفكر العربي والغربي على السواء، وأعني بـالأنـدلس لجديدة أمريكـا التي صـارت - فيما بعـد - مـلاذا ومهجرا لأدباء فلاسفة عرب، لجأوا إليهـا من الشرق، منـذ أواخـر القــرن 19م إمـــا فـــرارا من العســف والاضطهاد، وإما سعيا وراء الحريـة وكسب الـرزق الحلال.

استطاع هؤلاء الأدباء الفلاسفة - على الـرغم من نقص التكـوين الثقـافي لـــدى بعضهم في مـــواطنهم الأصيلـة - أن يستكملـوا ذلك التكـــوين في عـــالمهم الجديد، وأن يتفوقوا فيـه كثيرا، وأن ينتجـوا لـلأدب العـــربي والأدب الإسبـــاني - الأمـــريكي روائعهـم الخالدة. وليس هذا فحسب، بل استطاعـوا أن يـؤدوا لمجتمعاتهم التي يعيشون فيها خدمـاتهم الاجتماعيـة والحضارية على نطاق واسع.

لقد حاضروا بـالعـربيـة وبـاللغـات المحليـة من إنجليزية وإسبانية وبرتغالية، في النوادي والجمعيات والجامعات وقد نشروا أبحاثهم ومقالاتهم وقصائدهم بتلك اللغات في جـرائدهم ومجلاتهم هم، وفي الجرائد المحلية السيارة والمجلات الواسعة الانتشار.

وقد أصدروا كتبا عـربيـة - أدبيـة وفلسفيـة - وترجموها إلى اللغـات الأجنبيـة المختلفـة، ممـا رفع شأنهم هم، وعـرف العـالم الغـــربي بلغتهم وأدبهم وعلمهم وحضارتهم الشرقية.

ومن الجمعيات الأدبية - العلمية التي أسسوهـا، فجمعت شملهم، وكـان لها الفضل الأكبر في خـدمـــة الجوالي العربية بمختلف أنحـاء أمـريكـا بأقسـامهـا الثلاثة، وفي خدمة وطنهم عن بعـد، ثـلاث جمعيـات هامة:

1) **العصبة الأندلسية:** تأسست في سان باولو بالبرازيل سنة 1935م. وكان هـذا الاسم يطلق على الجمعية وعلى المجلة التي كانت تصدر عنها.

2) **الرابطة الأدبية:** وتأسست سنة 1949م في عاصمة الأرجنتين: بوينوس أيريس.

3) **الرابطة القلمية:** وهي أقدم وأعرق، إذ تأسست في نيويورك بالولايات المتحدة سنة 1920م. لقد قدمت هذه الجمعيات الثلاث – كما سبق أن ألمحنا – خدمات جلى للأدب والثقافة. وللتدليل على ذلك، ولأخذ فكرة عما كان يرمي إليه هؤلاء الأدباء من جدية وتجديد، نشير إلى المباديء التي كان اتفق عليها مؤسسو الرابطة القلمية، فقد قرروا ما يلي:

«أن ليس كل ما سطر بمداد على القرطاس أدبا... ولا كل من حرر مقالا، أو نظم قصيدة موزونة بالأديب... فالأدب الذي نعتبره، هو الأدب الذي يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها، والأديب الذي نكرمه، هو الأديب الذي خُصَّ برقة الحس، ودقة الفكر، وبعد النظر في تموجات الحياة وتقلباتها، وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة في نفسه من التأثير».

ولا يخامرنا أدنى شك في أن أدباء الرابطة القلمية – وكذلك أدباء الرابطة الأدبية، والعصبة الأندلسية – كلهم حافظوا – وبكل دقة متناهية – على تلك المبادئ الأدبية والسامية وأنتجوا – بمقتضاها – أدبهم الرفيع، الذي ترجم الكثير من روائعه، فبهَرَ القارئين والدارسين معا.

تطوان – عبد الله العمراني

فهرسة المخطوط العربي

في بعض البلدان المتوسطية:

خزانات الفاتيكان والوطنية الفرنسية والأسكوريال نموذجاً

للدكتور أحمد شوقي بنبين

يعتبر المخطوط جزءا مهما من تراث الأمة العربية، ووثيقة هامة من وثائق وجودها الحضاري. وإن ما خلفته الحضارة العربية الإسلامية من مخطوطات يعد أعظم ذخيرة فكرية مما خلفته أية حضارة أخرى في العالم. وقد شاء القدر أن تملك الشعوب غير العربية أكثر مما يملكه العرب من تراثهم المخطوط. وقد حظيت الدول الأوربية والمتوسطية منها على الخصوص بحصة الأسد من هذا الموروث الثقافي الذي لا يشك في أنه كان من بين الركائز الأساسية التي قامت عليها نهضتهم.

وإذا كانت الفهرسة عاملا من عوامل الحفاظ على أصول التراث المخطوط الذي خضع - كما نعلم بحكم تعاقب العصور - لألوان من التغيير وأنواع من التحريف، فإن علماء الغرب بعد تجميعه وصيانته قد دعوا إلى فهرسته لتيسير سبل الانتفاع به والاستفادة منه.

كيف بدأت فهرسة المخطوط العربي في الدول المتوسطية التي كانت من السباقين إلى تجميع هذا التراث؟ ما هي العوامل التي دعت إلى هذه العملية العلمية؟ ومن تصدى لفهرسته في مكتبات هذه الدول. هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا العرض الوجيز.

وبما أن الخزانات المحتوية على المخطوطات العربية كثيرة، وفهارسها متعددة، ارتأينا أن نقتصر على ثلاثة منها لأنها كعبة الباحثين في التراث العربي المخطوط، وقبلة المستشرقين المهتمين بفكر وثقافة الشرق، وذلك لرصيدها الغني من المخطوطات الشرقية، ما كان لعلماء أوربا أن يدركوا فكر الشرق وحضارته دون تنظيمها وفهرستها والبحث فيها باعتبارها الوعاء الواسع لهذا الفكر وهذه الحضارة.

والخزانات الثلاث التي تم الاختيار عليها والتي كانت من المؤسسات الأولى التي حظي رصيدها المخطوط بالتنظيم والفهرسة هي خزانة الفاتيكان بروما، الخزانة الوطنية الفرنسية بباريز، وخزانة الاسكوريال بمدريد.

وقبل البحث في الظروف والعوامل التي دعت إلى الاهتمام بالمخطوطات العربية وفهرستها في هذه المكتبات يجدر بنا أن نشير إلى جهود القدماء في هذا

المجال، حيث نلاحظ أن الطرق التي استخدموها في الفهرسة قد تركت بعض آثارها في الفهارس الحديثة. ومن غريب الصدفة أن يكون أقدم فهرست وضع كان في بلد من البلدان المتوسطية ويتعلق الامر بالفهرست الببليوغرافي الذي وضعه الشاعر اليوناني كاليماخوس (Callimacus) في القرن الثالث قبل الميلاد لأهم خزانة في العصر القديم خزانة الإسكندرية.(1) ويعتقد الأخصائيون أنه أول فهرست منهجي وضع في التاريخ باعتبار الطريقة العلمية التي لجأ إليها «كاليماخوس» في تقسيمه المعرفة تقسيما علميا وتصنيف الكتب حسب هذا التقسيم.(2)

أما جهود القدماء من العرب في وضع الفهارس فإن كتب التاريخ والحضارة تحدثنا بأن الفهرسة بدأت مع بداية الخزانة المنظمة في المجتمع الإسلامي. وإذا كان أقدم ما وصلنا منها يرجع إلى القرن السابع الهجري فإن خزانة بيت الحكمة كانت لها فهارس، وأن المامون العباسي كان يطلبه من حين لأخر.

وفي العصر الحديث فإن فهرسة المخطوطات العربية المحفوظة بالخزانات الأوربية لم تتم ممارستها في البداية على يد المستشرقين الذين اهتموا بدراسة وتدريس اللغة العربية، وتأليف الكتب في نحوها وصرفها لتلامذتهم في مختلف الدول العربية بل مارسها المشارقة الذين كانوا يتقنون اللغة العربية بالإضافة إلى اللغات السامية والشرقية واللغات الهندية الأوربية، وكان هؤلاء المشارقة يتكونون بالدرجة الأولى من الهوارنة اللبنانيين الذين سمح لهم اتحاد كنيستهم بالفاتيكان في أواخر القرن السادس عشر (1575م) بالنزوح إلى روما لدراسة اللاهوت، فأصبحوا من العلماء الكبار في الكنيسة الكاثوليكية، بعضهم عاد إلى لبنان وأسس فيها المدارس بمساعدة البابوية، والبعض استقر في أوربا يتعاونون مع الفاتيكان في ترجمة العديد من الكتب اللاهوتية الكاثوليكية إلى اللغة العربية، ثم توزع هذه الترجمات بين النحل الأخرى من نصارى الشرق الأوسط. ولم يقتصر نزوح المشارقة إلى رومة فقط بل رحلوا إلى فرنسا كذلك حيث بنى لهم هناك «كولبير» Colbert وزير الملك الفرنسي لويس الرابع عشر مدرسة لتعليمهم بالمجان.(3) فتخرج فيها لبنانيون وسوريون تركوا آثارهم في الثقافة العربية بهذا البلد. ولما تجمع لدى أوربا منذ القرن السابع عشر ذاك الرصيد الضخم من المخطوطات الشرقية وزخرت خزاناتها بمجموعات من الكتب من إهداء الملوك والوزراء والسفراء والقناصلة والتجار والرحالة اضطرت إلى فهرستها وتنظيمها. فولت الأمر هؤلاء المشارقة الذين كانوا أول من تصدى لفهرسة التراث العربي

---

(1) شذرات من هذا الفهرست محفوظة بخزانة المتحف البريطاني.

(2) عنوان الفهرس: قوائم جميع المؤلفات الهامة في الثقافة اليونانية وأسماء مؤلفيها.
وكان هذا الفهرس مصنفا تصنيفا دقيقا بحيث اشتمل على 120 لفافة بردية وقسمت لفائف المكتبة إلى ثمانية أقسام:
1 – المؤلفون المسرحيون ـ 2 – شعراء الملاحم والأناشيد ـ 3 – المشرعون ـ 4 – الفلاسفة ـ 5 – المؤرخون ـ 6 – الخطباء
7 – أساتذة علم الخطابة ـ 8 – مؤلفون متنوعون.
J. Gaulmier: Volney et la pédagogie de l'Arabe: BEO. 1945-46 t XI P. 11(3)

المخطوط المكنوز في هذه الخزانات. وهكذا تولى بطرس دياب الحلبي فهرسة مخطوطات الخزانة الملكية الفرنسية (الخزانة الوطنية حاليا) كما تولى بعده نفس المهمة باروت السوري الذي كان مترجما في مكتبة الملك، وبعدهما فهرس هذه المخطوطات الأب يوسف العسكري الهاروني. اشتغل هؤلاء الثلاثة بالمخطوطات العربية في فرنسا قبل أن يشتغل بها عدد من المستشرقين أمثال:

Renaudot و d'Herbelot و de Slane و Vojda و Sau-van و Guidon وسواهم. وفي إيطاليا كانت أسرة السماعنة المارونية أول من تصدى لفهرسة التراث العربي المخطوط، سواء في الفاتيكان (Vaticane) أو في غيرها من المكتبات. فكان يوسف شمعون واضع أول فهرست لمخطوطات الفاتيكان، وتبعه في هذا ابن شقيقه عواد السمعاني الذي فهرس مخطوطات كل من الفاتيكان والمكتبة الطبية(4) بمدينة فلورنسا (Florence). فاشتغل هؤلاء المشارقة بالمخطوطات العربية قبل أن يشتغل بها جويدي (Guidi) ونالينو (Nallino) وجورجيوليفي دلافيدا (Georgio levi della vida) وغيرهم. وفي إسبانيا كان ميخائيل الغزيري أول من فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بدير الاسكوريال قبل أن يهتم بها H. Derenbourg و Re-naud و Provençal وسواهم. وإذا كان العامل الديني هو الحافز في البداية إلى الاهتمام بالمخطوطات الشرقية فإن التفتح على الشرق والوقوف على الثقافات الأخرى خارج أوربا المسيحية الذي دعت إليه الحركة العقلانية في الفكر الأوربي في عصر التنوير من جهة وفرضته أهداف أوربا السياسية الاستعمارية من جهة أخرى، جعل الوقوف على المخطوطات الشرقية بما فيها العربية أمرا ضروريا لتحقيق هذه الأهداف، فليس إذن من الصدفة في شيء أن يكون صدور الفهارس الأولى للمخطوطات العربية المحفوظة بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا في القرن الثامن عشر الميلادي.

أما في القرن التاسع عشر حيث ظهر أكبر نجوم الاستشراق الذين عملت أوربا على تكوينهم في المدارس المتخصصة في اللغات الشرقية كمدرسة اللغات الشرقية الفرنسية التي أسست على عهد نابليون بونابارت فإن الاشتغال بكتب التراث العربي دعا إلى فهرستها فهرسة علمية قبل عمليتي التحقيق والنشر. إذ ذاك رأينا كبار المستشرقين يفهرسون المخطوطات العربية كما صنع دوسلان Deslane بالنسبة للمخطوطات العربية بفرنسا ودرنبورغ Der-enbourg بالنسبة للمخطوطات العربية المحفوظة بخزانة الاسكوريال. وإذا كانت مخطوطات اللغة العربية تفهرس في البداية ضمن مخطوطات اللغات الشرقية كالتركية والفارسية والسريانية وغيرها كما تفهرس إلى جانب مخطوطات عربية مكتوبة بحروف لغات أخرى كالعبرية والسريانية وهي التي تسمى بالمخطوطات الكرشونية أو مخطوطات أجنبية بحروف عربية كالخاميادو(5) في إسبانيا، فإن مخطوطاتنا العربية أصبحت تحظى منذ القرن التاسع عشر بفهارس خاصة، ويرجع ذلك في رأيي إلى سببين رئيسيين:

(4) فهرست المخطوطات الشرقية بالمكتبات الطبية بلورنسيانا Laurenziana فلورنسا Florence 1742.

(5) الخاميادو: اللغة الإسبانية المكتوبة بحروف عربية بيد آخر مسلمي إسبانيا.

أولهما: تكاثر مجموعات المخطوطات العربية من مكتشفة ومنسوخة بحيث على الرغم من ظهور الطباعة بحروف عربية في الغرب والشرق فإن نساخة المخطوطات بقيت مزدهرة حتى بداية القرن الحالي، بينما مخطوطات اللغات الشرقية أصبحت نادرة ولا يتداولها إلا المختصون.

ثانيهما: الاهتمام العلمي بمخطوطات الأمة العربية لتحقيقها والاستعانة بها للوقوف على تاريخ وحضارة الدول العربية استعدادا للاستيلاء عليها. وكان صدور هذه الفهارس بلغات الغرب كاللاتينية والإيطالية والفرنسية والإسبانية وسواها، ولم تكن عبارة عن كتب مطبوعة فقط بل نشر بعضها في مجلات استشراقية معروفة لدى المختصين.

لنعرض الآن باختصار لفهارس خزاناتنا الثلاث التي تمثل أحسن النماذج لمكتبات الدول المتوسطية.

○ المكتبة الفاتيكانية

يرقى عهد المكتبة الفاتيكانية إلى عصور البابوية الأولى، لكنها لم تدخل في طورها التاريخي إلا حين وضع لها نظامها الخاص في القرن الخامس عشر. خاصة في عهد البابا نيقولا الخامس، فأخذت تزداد وتتسع حتى أناف عدد مخطوطاتها على سبعين ألف مخطوط بين لغات شرقية وغربية. ومعظم المخطوطات الشرقية أتاها من لبنان وسوريا ومن الأديرة المسيحية الموجودة بمختلف الدول الشرقية سواء عن طريق الإهداء أو الاقتناء. ولم يبلغ القرن السابع عشر نهايته حتى تجمعت لدى مكتبة الفاتيكان عشرات الآلاف من المخطوطات إلى جانب المطبوعات(6) فنادى البابا أفليمندوس الحادي عشر على أحد الموارنة العلماء يوسف شمعون السمعاني(7) وعينه أمينا على خزانة الفاتيكان فوضع أول فهرست شامل لمخطوطاتها. وإذا نعت السمعاني فهرسته هذا «بالمكتبة الشرقية»(8) (Bibliotheca Orientalia) فإنه لم يقتصر فيه على الكتب الشرقية بل أحصى فيه كتب العرب والسريان والأقباط واليونان واليهود وغيرهم. ثم قام بعده ابن شقيقه اسطفان عواد السمعاني بوضع فهرست آخر للمخطوطات الفاتيكانية بعنوان: فهرسة المخطوطات بمكتبة الفاتكان الرسولية: Bibli-otheca Apostolicae Vaticana Codicum Manuscriptum Catalogus(9) وقد ظهر الفهرست في ثلاث مجلدات خص الجزء الأول منها بالمخطوطات الشرقية بما فيها العربية والكرشونية (أي المخطوطات العربية المكتوبة بحروف سريانية)، ومن يقرأ في هذا الفهرست يجد أنه فهرست تحليلي بمعنى أن السمعاني يشرح المخطوطات الفاتيكانية شرحا وافيا حيث يأخذ كل مخطوط بمفرده ويعطي فكرة عن محتواه ثم يعدد مواضيعه ويختم بطاقته بالتعريف بالمؤلف.

---

(6) تمتاز هذه الخزانة بمجموعتها الهامة من الطبعات الاستهلالية (Incunables).

(7) خريج مدرسة الموارنة بروما وتوفي عام 1768. ترجم للبابا عددا من كتب اللغات السامية إلى اللاتينية. كما يتقن بالإضافة إلى هذه، اللغات اليونانية والفرنسية والإيطالية.

(8) نشر الفهرست ما بين 1719 و 1728 في أربعة مجلدات.

(9) نشر بروما عام 1756 وعواد السمعاني هذا هو الذي نقل تاريخ ابن العبري إلى اللاتينية.

وبعد هذين العالمين الشرقيين(10) تولى فهرسة مخطوطات الفاتيكان ثلة من المستشرقين إيطاليين وألمان وسواهم، نذكر منهم دي هامر (de Hammer) الذي فهرس ما دخل المكتبة الفاتيكانية من المخطوطات الشرقية بعد فهرسة عواد السمعاني وذلك في بحث عنوانه:

رسالة في المخطوطات الشرقية في المكتبة الفاتيكانية(11) واهتم بها أخيرا المستشرق الإيطالي الكبير «جورجيوليفي دلا فيدا» (Georgio Leve Della Vida) الذي وضع فهرسة المخطواطات العربية الإسلامية بمكتبة الفاتيكان(12) وصف فيه جميع المخطوطات العربية الإسلامية ممهدا لها بمقدمة ضمنها الشروح الضرورية للاستفادة من الكتاب، خاتما فهرسته بكشافات عديدة، منها ما هو بأسماء المؤلفين، ومنها ما هو بعناوين الكتب والرسائل موزعة على أنواع العلوم والفنون.

هكذا توالت فهارس خزانة الفاتيكان التي كانت في بدايتها فهارس عامة تحصي مخطوطات جميع اللغات بدون استثناء، ثم أصبحت تخص المخطوطات الشرقية بما فيها اللغات السامية بمجلدات خاصة. ثم تلتها فهارس تهتم بالمخطوطات العربية بما فيها المخطوطات المسيحية، وأخيرا خصت المخطوطات العربية الخاصة بالمؤلفين المسلمين بفهارس منفردة وهو العمل الذي قام به «ليفي دلا فيدا»

○ الخزانة الوطنية الفرنسية

ترقى المكتبة الوطنية الفرنسية إلى عهد الملك فرانسو الأول (1er François) الذي أمر بنقل الخزانة الملكية من مدينة «بلوا» (Blois) إلى فانتنبلو (Fantainebleau) بضواحي باريز خلال النصف الأول من القرن السادس عشر 1544م. وحسب أول قائمة لهذه المكتبة كان عدد المخطوطات الشرقية أربعين مخطوطا لايتجاوز عدد العربية منها الستة. وفي عهد الملك لويس الرابع عشر ازداد عدد المخطوطات الشرقية بسبب انفتاح هذا الملك على الدول الشرقية وربط العلاقات الطيبة معها. ومعظم هذه المخطوطات كان من شراء البعثات التي كان يرسلها إلى الشرق أو من هدايا العلماء والسفراء والقناصلة والرحالة سواء للملك أو لوزرائه وعلى الأخص منهم ريشليو (Richalieu) ومازران (Mazarin) وكولبير (Colbert).(13)

وبعد الثورة الفرنسية ازداد رصيد الخزانة من المخطوطات التي صودرت من مكتبات الأديرة والكنائس والمعاهد الدينية. وفي القرن التاسع عشر

---

(10) لم يفهرس هذان العالمان مكتبة الفاتيكان وحدها بل وضعوا فهارس مكتبات أخرى بإيطاليا. فقد وضع يوسف السمعاني فهرستا للمخطوطات الشرقية المكنوزة في الخزانة النانية (Naniana) بالبندقية، وفهرس عواد السمعاني المخطوطات الشرقية (العربية التركية والفارسية) المحفوظة في المكتبة المديشية بمدينة فلورنسة.

(11) نشره في فهارس المكاتب الإيطالية. المجلد 46 عام 1827.

(12) مدينة الفاتيكان عام 1935 ووضع الفهرست الثاني بنفس العنوان عام 1965.

(13) كانوا يرسلون ما يسمى بالبعثات الأثرية إلى الشرق. (missions archéologiques) بحثا عن الآثار القديمة بما فيها المخطوطات، وإن عددا كبيرا من مجموعات هؤلاء الوزراء قد انتهى إلى الخزانة الوطنية حاليا.

اقتنت الخزانة أكبر عدد من المخطوطات العربية لما كان (de Sacy) «دوساسي» أمينا على قسم المخطوطات، وليس هذا غريبا إذا علمنا أن هذا الرجل كان زعيم الاستشراق الأوربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وتتلمذ عليه أكبر مستشرقي أوربا في ذلك العصر. وإذا كان قد تعاقب على أمانة قسم المخطوطات الشرقية بالمكتبة الأهلية الفرنسية عدد من أبرز مستشرقي فرنسا أمثال (de Perceval) دوبرسوفال (1835م) و (de Sacy) و (Vajda) وآخرون، ووضعوا لها اللوائح والكشافات والفهارس، فإن أول من تصدى لإحصائها وفهرستها منذ القرن السابع عشر مشارقة من سوريا ولبنان،(14) وهكذا وضع أول قائمة للمخطوطات الشرقية بطرس دياب السوري، كما اهتم بها كذلك يوسف العسكري الماروني وباروت السوري. وإذا تأخر طبع ونشر أول فهرست للمخطوطات الشرقية إلى القرن الثامن عشر فإن المعتمد كان تلكم القوائم التي سطرتها أيادي هؤلاء المشارقة.

وحتى لا أطيل عليكم فإن المخطوطات العربية كانت تفهرس ضمن المخطوطات الشرقية كما رأينا ذلك في خزانة الفاتيكان،(15) ثم أصبحت تخصص لها فهارس خاصة كما صنع «دوسلان» (de Slane) وزوتنبرغ (Zotenberg)(16) في نهاية القرن التاسع عشر، وفي هذا العصر وضع المستشرق الفرنسي «تروبو» (G. Troupeau) فهرستا من جزءين، خاصا بالمخطوطات العربية المسيحية.(17)

كما بدأ فاجدا (Vajda) المتوفي قبل سنوات فهرستا تحليليا شاملا للمخطوطات الإسلامية.(18) وتدرس الخزانة الوطنية إمكانية إصدار فهرست خاص بالمصاحف القرآنية التي تملك منها الخزانة عددا كبيرا، كما يامل المسؤولون في قسم المخطوطات الشرقية أن تخصص الكتب العربية والفلسفية والفلكية والطبية المكتوبة بحروف عبرية بفهرست خاص كما هو الشأن بالنسبة للمخطوطات العربية المسيحية والمصاحف القرآنية.

○ خزانة الاسكوريال

هذه الخزانة جزء من بناء كبير أقامه ملك إسبانيا فيليب الثاني في ضواحي «مدريد» تخليدا لذكرى انتصاره على الفرنسيين في موقعة سان كانتان (St Qentin) في أواسط القرن 16م وتنويها بالقديس لورنزو (St Lorenzo) الذي استمد عونه في هذه

(14) ليس هذا غريبا إذا علمنا أن أساتذة اللغات الشرقية في الكوليج الفرنسي(Collège de France) القرن 16 كانوا من الموازنة أمثال جبرائيل الصهيوني، إبراهام الاشبيلي، اليعمري وبطرس ديبي. وكانوا يدرسون بالخصوص اللغتين العربية والسريانية.

(15) كشاف فاجدا يتضمن مخطوطات عربية كانت ضمن المخطوطات العربية والفارسية والتركية والملايو البولينزية (Mallayo Polynisien).

(16) هو الذي وضع فهرست المخطوطات الإتيوبية (الجعزية والإمهارية).

(17) صدر عام 1972 و 1974.

(18) تواصل اليوم هذا العمل الأمينة المتخصصة «سوفان» (Yvette Sauvan) المسؤولة عن المخطوطات العربية بقسم المخطوطات بالخزانة الوطنية. وقد تقرر طبع ونشر هذا الفهرست منذ سنة 1970 بعناية المكتبة الوطنية بتعاون مع معهد الأبحاث وتاريخ النصوص (IRHT) التابع للمركز الوطني للبحث العلمي بباريز.

المعركة، لهذا كان اسمها الرسمي: «المكتبة الملكية لدير القديس لورنزو بالأسكوريال»

تضم هذه الخزانة مجموعات كبيرة من المخطوطات في مختلف اللغات السامية، وقد ضم إليها مؤسسها الملك فيليب الثاني (Philippe II) ما بقي من مخطوطات المدن الإسلامية كغرناطة وقرطبة واشبيلية وبلنسية ومرسية وغيرها. كما ضمت إليها على عهد فيليب الثالث خزانة السلطان السعدي مولاي زيدان، فبلغ عدد مخطوطاتها العربية حوالي الخمسة آلاف مخطوط.(19)

وخزانة السعديين هذه هي التي اختطفها القراصنة الإسبان ووضعوها بين يدي الملك الذي أمر بوضعها بقصر الأسكوريال، وقد أدى هذا الاختطاف إلى خلق مشكل دبلوماسي بين ست دول(20) لم يكن حله بالشيء اليسير.

وعلى الرغم من غنى هذه الخزانة وأهمية رصيدها بالنسبة لتاريخ إسبانيا فإن المسؤولين كانوا بإيعاز من الفاتيكان يخفون هذا التراث عن نظر الباحثين والمطلعين، كأنما كانوا يخشون أن يبث روح التفكير الإسلامي في تفكير إسبانيا النصرانية بعد أن بذلت كل جهد ووسيلة لقتل روح الاطلاع على الفكر الإسلامي. وقد كان الكتاب المسيحيون أنفسهم يعرضون عن هذه المصادر التي تتحدث عن تاريخ إسبانيا وحضارتها أيام الدولة الإسلامية ويقتصرون على المصادر القومية النصرانية، وإخفاء هذه المخطوطات عن نظر الباحثين هو الذي جعلها تبقى دون فهرسة مدة تزيد على قرنين من الزمان. ولما أودت الصاعقة التي سقطت على الأسكوريال بالآلاف من المخطوطات العربية اضطرت إسبانيا بعد مرور قرن من الزمان على هذا الحريق إلى فهرسة ما بقي من مخطوطات، فنادت على شرقي ماروني كما صنعت الفاتيكان وباريز من قبل، لتنظيمها وتصنيفها فكان ميخائيل الغزيري واضع أول فهرست علمي كبير للمجموعة العربية بالأسكوريال. وقد ظهر هذا الفهرست في جزءين مع مقدمة باللاتينية عن قيمة المخطوطات العربية وعنوانه: المكتبة العربية الإسبانية بالأسكوريال.(21) واعتبارا لأهمية هذا الفهرست فإنه قد تمت ترجمته إلى اللغة العربية في عهد السلطان المولى سليمان العلوي باقتراح الأديب المغربي محمد بن عبد السلام السلوي وزير السلطان المذكور. وتحتفظ الخزانة الحسنية بالرباط بالنسخة الوحيدة لهذه الترجمة.(22)

وعلى الرغم من تعاقب ثلة من كبار المستشرقين أمثال درنبورغ(23) (Derenbourg) وليفي بروفنسال (L. Provençal) ورونو (Renauld) وسواهم على إعادة فهرست الأسكوريال وإصدار القوائم في الصحف

---

(19) يعتقد عبد الله عنان أن عدد المخطوطات بلغ عشرة آلاف. انظر البحث الذي نشرناه بعنوان: خزانة مراكشية بالأسكوريال: مجلة كلية آداب الرباط: العدد 9 سنة 1982.

(20) المغرب، إسبانيا، فرنسا، البرتغال، الأقاليم المتحدة (هولندة) والدولة العثمانية.

(21) Bibliotheca arabico-hispana escuriolensis Brill Leiden 1760/1770.

(22) محفوظ تحت رقم 6972.

(23) Les manuscrits arabes de l'escruial. 1884 H. Derenbourg.

الأوربية وبلغات مختلفة فإنه قد بقي لفهرست الغزيري قيمته، هذا الفهرست الذي أثر مباشرة بعد ظهوره في مؤلفات العلماء من المستشرقين أمثال يوسف كوندي(24) ودوزي (Dozy)(25) وظل أكثر من قرن من الزمان مرجعا فريدا لهذه المجموعة العربية.

هذه فهارس خزانات بعض الدول المتوسطية اخترناها كنماذج لفهرسة المخطوط العربي في الخزانات الأوربية. وطبيعة مثل هذا الموضوع تفرض على المتطرق إليه الدخول في تفاصيل تقنية ربما همت الأخصائيين بعلوم المكتبات أكثر من غيرهم من علماء الفيلولوجيا المهتمين بنشر التراث المخطوط. لذلك ارتأينا أن نتلافاها دفعا للملل ووقوفا عند القواعد العامة والواضحة لفهرسة المخطوطات. وعلى الرغم مما تفرضه هذه العملية على المختص بها وممارسها من عناء ومشقة، فإن الفهرسة قد لعبت دورا كبيرا في الحفاظ على التراث المخطوط وصيانته، وبالتالي في الكشف عنه، ولولاها لما استطاع العلماء مهما كان لهم من إمكانات مادية ومعنوية أن يقفوا على كثير مما هو مكنوز من ملايين المخطوطات في بقاع المعمور. فهي الوسيلة الوحيدة والمثلى لتذليل الصعاب، وتيسير السبل للعلم به والاشتغال به: يقول حاجي خليفة رحمه الله:

«العلوم والكتب كثيرة، والأعمار عزيزة قصيرة، والوقوف على تفاصيلها متعسر بل متعذر، وإنما المقصود ضبط معاقدها».(26)

الرباط ـ أحمد شوقي بنبين

(24) كوندي: تاريخ دولة العرب في إسبانيا 1810.

(25) تاريخ المسلمين في إسبانيا 1861 في أربعة أجزاء.

(26) كشف الظنون: المقدمة.

مفخرة الجيوش صمودها

للشاعر عبد الواحد السليمي

مجد البلاد عتادها وجنودها ... بهما تصان رحابها وحدودها
حيوا قوات سُلّحتْ بإرادة ... ملكية، وشعارها توحيدها
الله ناصرها على أعدائها ... وممدها، ومعينها وعقيدها
والقائد الأعلى الذي تعنو له، ... وإلى العلاء يسوسها ويقودها
والبذلُ للوطن العزيز فضيلة ... نادى بها الحسن العظيم عميدها
فبالإنتساب له سمت أركانها ... وبالإصطحاب بقاؤها وخلودها
وبالإمتثال للأمر سادت وكا ... ن وما يزال يمدها ويزيدها
وعلى الدوام أب لها، وموجه ... توجيهه في الحالكات يفيدها

☆☆☆

يا جيش مغربنا العتيد تحية ... في يوم عيدك طاب لي ترديدها
ضباطك الأحرار رمز مسيرة ... خضراء أذهلت العقول حشودها
نادى بها فخر البلاد ومجدها ... ومجيدها، وعزيزها وفريدها
حسن المكارم ثاني اثنين لنهـ ... ـضتنا، فبورك جدها وحفيدها
حسنان : ذلك فوق متن جواده ... يرعى الحصون يشيدها ويعيدها
بعث الوفود إلى أوروبا من شبيـ ... ـبتنا دراكا للبناء يريدها
وأقام أول مصنع لسلاحها ... إن السلاح به تصان حدودها :
لسبطه الثاني فخار مسيرة ... خضراء يصعب حشدها وعديدها

دكت بعـزم رجـالهـا حصن العـدى وتخطت الأسلاك زهـوا صِيـدُهَـا
أعـلامهـا خفـاقـة، بيمينهـا قرءانهـا : إيمـانُهـا إقليـدهـا
تخطيـط محمـود المنـاقب، والعـوا قب، فهـو في كـل الأمـور حميـدهـا

☆☆☆

أشبـال قـواتنـا الملحـة التي سـادت فبـاتت ليس يُغْمَـزُ عـودهـا :
دانت لعـزمكمـو الجبـال وذللت كـل الصعـاب ذلـولهـا وكـؤودهـا
النصر قـوس للفخـار يشـاد في سـاح الكفـاح، وأنتمـو وُرّادُهَـا
والفتـح منقبـة تجلت فيكمـو يـا نخبـة شفـق الصبـاح بنـودهـا
حققتمـوا كـل المنى لبـلادنـا بعـزيمـة يفري الحـديد حـديـدهـا
حررتمـوا الصحراء يـا أسـد الـوغى دمتم، ودامت للبـلاد أسـودهـا
أنتم صمـدتم للبـوليـزاريـو فلم يصمـد : ومفخرة الجيـوش صمـودهـا
وجعلتمـوا استشهـادكم هـدفـا لكم إن الجيـوش شهيـدهـا صنـديـدهـا
صحراؤنـا طَهُرَتْ فـلا يمشي على غبرائهـا مطرودهـا وشريـدهـا
من جـاءهـا يسعى لعـزتهـا فـذا ك رضيعهـا، وودودهـا، ووليـدهـا
ومن استجـاب لمـا يريـد حـودهـا . فهـو البليـد، كنـودهـا، ومَريـدُهـا

☆☆☆

يـا من وهبتم للحمى أرواحَكم لكمـو زغـاريـد أمتي ونشيـدهـا
اللـه يعلي شـأنكم، ومليككم راض، ومحمـدة الجيـوش جهـودهـا
عـاش المليـك القـائـد الأعلى لقـ ـوات البـلاد مجيـدهـا وعميـدهـا
تحيـا الأميرة في حمـاه كريمـة وولي عهـد بـلادنـا ورشيـدهـا

الدار البيضاء - عبد الواحد السلمي

لمحات حول

أوضاع الأشخاص المسنّين في المجتمع الإسلامي

للأستاذ علال البوزيدي

1) كلمة استهلالية :

تتميز أوضاع الأشخاص المسنين في المجتمع الإسلامي بخصوصيات لها علاقة وطيدة بالواقع الذي يطبع حياة المجتمع ويحدد العلاقات الإنسانية العامة بين أفراده، وذلك في ضوء الشريعة الإسلامية الخالدة، التي نصت في مجال الرعاية الإجتماعية لفئة الأشخاص المسنين على ما يضمن لهم حياة الكرامة والأمن والاطمئنان. وتنقسم هذه الرعاية إلى شطرين اثنين هما:

أ - رعاية عائلية، ورعاية اجتماعية، وهذه الرعاية تعتبر في حد ذاتها كفالة منبثقة عن نظام التكافل الاجتماعي في الإسلام وقد جاءت عدة شروح وتفاسير لهذه المسألة في كتب ومؤلفات، استمدت مادتها الأساسية من الكتاب والسنة، ويمكن الإشارة إلى بعض الآيات التي جاءت بهذا الخصوص. فالكفالة والرعاية العائلية، تتجسد فيما أوجبه الله من النفقة، والمعاملة بالحسنى لفائدة الآباء والأمهات بحجة القرآن الكريم في سورة العنكبوت:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا﴾.

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾. سورة الإسراء.

وبهذه الأخلاق القرآنية نصت المذاهب الفقهية أن هذه الرعاية والكفالة يمتد واجبها لتشمل النفقة على الإخوة والأعمام والعمات والأخوال والخالات.

ب - وهناك الشطر الثاني، ويتعلق بكفالة ورعاية المسنين اجتماعيا، بحيث نصت الشريعة الإسلامية على ضمان الرعاية الإجتماعية للمسنين في إطار نظام الزكاة، وبفضل التضامن العائلي والاجتماعي، لم تكن إشكالية الشيخوخة بالخطورة والأزمة التي توجد عليها في بعض المجتمعات المادية بما فيها المتقدمة صناعيا وتكنولوجيا، وبفضل المرونة التي يتميز بها السلوك العائلي والاجتماعي في المجتمع الإسلامي، وقع التخفيض من حدة مشكلة الشيخوخة، حيث تعززت مكانة المسنين في مجال الرعاية الإجتماعية، بما تقدمه مؤسسات الأوقاف والشؤون الإسلامية

من خدمات، ذلك أن الوقف يقوم بدور مهم لفائدة الشيوخ والمسنين والعجزة، إلى جانب الحفاظ على استمرارية الرسالة المحمدية، وسلامة العقيدة الإسلامية وترسيخها في القلوب، وتثبيتها في النفوس، ودعما للجهود الهادفة إلى رعاية المسنين، إيمانا بأن الرعاية الاجتماعية لعالم الشيخوخة، ضرورة حتمية، وواجب إنساني، فقد اتفقت الآراء على إعطاء مزيد من العناية لمن بلغوا مرحلة السن الثالث مع السهر على راحتهم، وتطبيق كل التوصيات والقرارات الهادفة إلى ضمان حقوقهم، مع تشجيع خلق الجمعيات التي تعنى بالمسنين، وتظافر الجهود على أساس التنسيق بين المنظمات التي تهتم بقضايا الشيخوخة، على أن يشمل هذا التنسيق كل مجالات التعاون بين المنظمات والجمعيات الغير الحكومية العاملة في هذا الميدان، والقطاعات الحكومية المكلفة بالعمل الاجتماعي، وإدماج برامج ومشاريع العمل التي تخص فئة المسنين، ضمن المخططات التنموية.

2) دور الأسرة في رعاية الأشخاص المسنين :

﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾.
صدق الله العظيم.

يتضح من خلال الواقع الاجتماعي، أن وضعية المسن داخل الأسرة، تثير بعض التساؤلات، وأحيانا تثير الإشفاق على أحد الطرفين، أو على الطرفين معا، ذلك أن بعض الأسر لا تتوفر على إمكانيات تساعدها على القيام بواجب الرعاية المطلوبة لمن وصلوا السن الثالث أو العكس. هناك إمكانيات، ولكن هناك إهمال، وهناك عدم الشعور بالواجب، خصوصا في حالة تفكك الأسرة، أو عدم انسجام أفرادها، بل ونجد بأن هذا التقصير راجع حتى إلى مدونة الأحوال الشخصية، التي تجعل واجب النفقة على الأبوين دون أن تلزم بالإنفاق على غيرهما، علما بأن العلاقة العائلية تمتد بطبيعة الحال إلى الإخوة والأعمام والعمات والأخوال والخالات والأقارب، وتتنوع أوضاع المسنين وواقع حياتهم وظروف عيشهم، بحيث هناك من كانوا يمارسون الصناعة والتجارة والحرف الحرة، وهناك من كانوا يمارسون أعمالا في قطاعات عمومية أو شبه عمومية، حيث يشملهم نظام المعاش، فيحالون على التقاعد عندما يبلغون من العمر 60 سنة وقد يختلف تحديد سن التقاعد من بلد إلى أخر.

وعلى أي حال، فهؤلاء المحالون على التقاعد لا يعانون من مشكل الشيخوخة بالقدر الذي يعاني منها الذين لا معاش لهم، لذلك فالمساعدة التي تمنحها صناديق التقاعد لها دورها في التخفيف من أزمة الشيخوخة، سواء كان المسن رب أسرة أو يعيش داخل أسرة. في الحالتين تكون وضعيته أقل تأزما من وضعية الذي أصبح شيخا ولا معاش له، فيجد نفسه عالة على نفسه وعلى أسرته، لكونه لا يتلقى أية مساعدة مبرمجة تمكنه من مواجهة متطلبات ما تبقى من حياته، علما بأن في المرحلة المتأخرة من عمر الإنسان، تزداد حاجياته إلى التغذية المتوازنة، وإلى العلاج، وبالتالي إلى الرعاية الصحية والاجتماعية والنفسية المتكاملة، وأين هو من ذلك في أسرة تعاني ظروفا قاسية من حيث الوضع الاجتماعي والاقتصادي والبيئوي، ومن شأن الأوضاع المتردية

والظروف القاسية أن تؤثر في نفسية المسن، وتجعله يعاني من التوتر، والقلق، وارتفاع الضغط الدموي، ومما يزيد في الطين بلة، أن طرفا من فئة المسنين يصبح على هامش الحياة، فلا تقاعد، ولا تأمين صحي، ولا موارد منتظمة، ولا دخل قار مهما كان حجمه. لذلك فإن مرحلة الشيخوخة على هذا الشكل، تعتبر قاسية جدا. وهناك صور ونماذج في بعض المجتمعات تؤكد ذلك، وتقتضي إعادة التفكير بكيفية جدية في أوضاع وأحوال الشيخوخة التي تعيش في القرى النائية والأرياف وأحياء الصفيح والأكواخ والأحياء الشعبية بالمدن الكبرى. وشمولية الرعاية الاجتماعية والصحية لهذه الفئة ضرورة ملحة، إذ كل فرد لابد وأنه ساهم بقليل أو كثير في تكوين أسرة، وبناء مجتمع، وتقديم خدمة من الخدمات ذات النفع العام.

3) الأشخاص المسنون والعمل الاجتماعي :

للعمل الاجتماعي أهمية كبيرة بالنسبة لقضايا الأشخاص المسنين، لذلك فكلما تعددت مرافق ومؤسسات العمل الاجتماعي لفائدة هذه الفئة، كلما وقع التخفيف من حدة مشاكل الشيخوخة، وسهل القيام بالواجب نحوها. غير أن توسيع نطاق هذا العمل، يقتضي مساهمة الجميع بما في ذلك التنظيمات والجمعيات، التي تكونت في نشأتها من أفراد كانوا أطفالا وشبابا، ومرت السنون والأعوام فأصبحوا شيوخا في حاجة إلى مساعدتهم وتكريمهم. ولا يحقق العمل الاجتماعي النتائج المتوخاة منه، ما لم يصاحبه الوعي الاجتماعي الذي يجعل الجميع يحس بقيمة هذه المرحلة في حياة البشر، خاصة وأنه لا يوجد أحد يكره الحياة، فالإنسان يريد أن يبقى ملتصقا بأرضه إذا كان فلاحا، وبحرفته وبصناعته، وبممارسته لسلوكه الاجتماعي، ومسؤولياته العائلية والأبوية. وهذه حالة نفسية ينبغي إيلاؤها كل اعتبار، وذلك بعدم تهميش المسنين، بل ينبغي الاستفادة من تجاربهم، والاستماع إلى أقوالهم، حتى لا تطغى على حياتهم حالة التخريف التي يصاب بها أولئك الطاعنون في السن، بسبب ضعف الذاكرة، بحيث نجد أن تصرفات بعض الشيوخ المسنين غير معقلنة، بل هي عشوائية تنم عن الخلط وعدم التركيز في الكلام والنسيان وغير ذلك، مما يدخل في حالة التخريف، ومع ذلك ينبغي تصحيح ما يصدر عن المسنين، لإشعارهم بأنهم لا يزالون يحيون الحياة بصورة طبيعية حتى لا يدب إليهم اليأس، وهذه المعاملة ضرورية للشيخوخة، سواء من طرف الأسرة، أو المؤطرين لمآوي العجزة التي يتطلب أن تكون في مستوى رغبات هؤلاء المسنين، توفر لهم أسباب الراحة والتسلية في إطار الرعاية الصحية، علما بأن حالة التخريف التي أشير إليها آنفا، قد تصيب البعض من المسنين وليس الكل. وقد أكدت بعض الدراسات والأبحاث الميدانية، أنها تصيب بكيفية خاصة المسنين الأميين الذين ليسوا على مستوى من المعرفة والوعي، بينما هناك أشخاص بلغوا سن الشيخوخة، وظلوا يتمتعون إلى آخر لحظة من حياتهم بالعقل السليم، والفكر المبدع، والأمثلة كثيرة في أجدادنا السابقين الذين كانوا يواجهون سكرات الموت وهم يؤلفون روائع الكتب في العلم والأدب

والفقه والطب. كما نجد بعض الأشخاص المسنين يدركون بوعي، ما تقتضيه منهم مرحلة السن الثالث من التزام جانب الراحة، والعمل المنظم، والسلوك المتوازن، فيعبرون عن ذلك من خلال بعض مواقفهم وتصريحاتهم، يعلنون مغادرتهم لمجالات الأعمال الفنية والإبداعية أثناء حفلات تكريمهم أمام الجمهور، الذي يكون قد تابع عطاءاتهم لأن هناك بعض المسنين، لا يرضون بوضعهم الجديد، ولا يقنعون من الحياة بما مضى، وتتكون عندهم عقدة الغيرة التي تتغير أحيانا إلى الحقد عمن هم في مرحلة الشباب أو الكهولة، متجاهلين بأنهم مروا من تلك المرحلة فيما قبل، وهذه الحالة تلاحظ بكيفية محسوسة عند بعض العجائز من النساء.

4) إشكالية الأشخاص المسنين كما يراها الأدباء :

تحدث الأدب والأدباء عن مرحلة الشيخوخة، فأجادت القرائح، وأبدعت في وصف هذه المرحلة شعرا ونثرا وقصة. ولعل ذلك البيت الشعري المشهور في الأدب العربي، والذي طالما تردد على الألسنة يقول ما معناه: ليت الشباب يعود يوما، لأخبره بما صنع المشيب. ففي هذه القولة الشعرية أحسن تعليق.

ومن المقالات الرائعة في الإبداع الأدبي، ما جادت به قريحة الأديب العربي الكبير مصطفى لطفي المنفلوطي في مجموعته الأدبية النظرات تحت عنوان: الشعرة البيضاء.

مررت صباح اليوم أمام المرآة، فلمحت في رأسي شعرة بيضاء تلمع في تلك اللمة السوداء لمعان شرارة البرق في الليلة الظلماء، رأيت الشعرة البيضاء في مفرقي، فارتعت لمرآها، كأنما خيل إلي أنها سيف جره القضاء على رأسي، أو علم أبيض يحمله رسول جاء من عالم الغيب ينذرني باقتراب الأجل، أو يأس قاتل عرض دون أمل إلى أن قال: فأنت رسول الموت الذي مازلت أطلبه منذ عرفته، فلا أجد له سبيلا، ولا أعرف له رسولا.

ما الذي يحمله لك في صدره من الحقد رجل لم ينعم بشبابه، فيحزن على ذهابه، ولم يذق حلاوة الحياة فيجزع لمرارة الموت؟

واسترسل المنفلوطي في وصفه للجو الذي تتميز به الشيخوخة، إلى أن ختم مقالته في الموضوع بقوله:

أيتها الشعرة البيضاء: مرحبا بك اليوم، ومرحبا بأخواتك غدا، ومرحبا بهذا القضاء المختبىء وراءك، أو الكامن في أطوائك، ومرحبا بتلك الغرفة التي أخلو فيها بربي، وآنس بنفسي، من حيث لا أسمع، حتى ذوي المدافع، ولا أرى حتى غبار الوقائع.

أهلا لوافدة للشيب واحدة، وإن تراءت بشكل غير موعود.

ولم يكن هذا الأديب وحده، هو الذي اهتم بهذه المرحلة، بل هناك الكثير من الأدباء والعلماء تحدثوا كثيرا وبإسهاب عن الشيخوخة وظروفها المختلفة، ولم يخف أحد من هؤلاء حالته ذاتيا ووجدانيا، غير أن الفرق هو كما سبق أن قلت في كل ما قيل، تباري وتناقض والغث والسمين. هناك ما يعبر عن سذاجة وتخريف، كإفراز من إفرازات الشيخوخة، وهناك كذلك ما يعبر عن النضج وعصارة تجارب الحياة

المليئة بالاجتهاد والإبداع والعطاء الأدبي والفني والعلمي، وتبقى الشيخوخة واحدة، ولكن ظروف المسنين تختلف.

ولكن خلاصة القول، أن مرحلة الشيخوخة هي بدون منازع جسر لابد من عبوره في حياة كل إنسان مارس دوره في الحياة بكيفية طبيعية.

5) كلمة لابد منها وتكون مسك الختام:

إذا تأملنا بعمق مرحلة الشيخوخة، نجد بأن الإحساس بحقيقة الحياة وتفاعلات البشرية على البسيطة، إنما تدرك الإدراك الحقيقي في الشيخوخة، حيث يراجع فيها الإنسان صفحات ماضيه، ويتأمل من خلال هذا الماضي مواقفه الخاصة والعامة، فيكتشف في نفسه مواطن الخطأ والصواب من خلال مسلسل ذكرياته، ولكل إنسان ذكريات له أو عليه. ولذلك تعتبر مرحلة الشيخوخة عصارة ذكريات وتجارب الحياة.

وخير الكلام قول الله عز وجل: **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾** صدق الله العظيم.

ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.

سلا ـ علال البوزيدي

هذي المسيرة للتحرير مدرسة

للشاعر محمد البلغيمي

لبيك يا وطني بالشعر والنغم
لبيك.. يوم الفدى بمهجتي ودمي!

والشعب أجمعه صف يوحده
عرش تألق بالأمجاد من قدم

يزينه الحسن الثاني الذي سطعت
آياته في سماء الفكر والشيم!

قد نال في شرف العلياء منزلة
وحاز تقدير كل العرب والعجم

إذا تحدث في الأقطاب مرتجلا
فخذ من العلم ما تشاء من حكم!

وحسبه في مجال الفخر معجزة
في عالم بصنوف الهول مضطرم

بفضلها حرر الصحراء من وصب
وأنقذ الشعب من ذل ومن ألم!

مسيرة الفتح لا تخفى حقيقتها
رغما على زارعي الأحقاد والنقم

أهدافها وضحت كالشمس باهرة
وليس ينكرها في الناس غير عمي!

الله أكبر.. بالسلام قد رجعت
صحراؤنا للحمى خفاقة العلم

وأصبحت حرة في عهد منقذها
تختال في الأمن والنماء والنعم

فكيف تقبل عن توحيدها بدلا
أو ترتضي الخيس بالعهود والذمم؟

وبينها بيعة والعرش من حقب
زادت متانتها روابط الرحم؟!

ياخير ملك لنا.. وقائد في الدنى
معظم القدر في الأقطار محترم

إنا على العهد.. إن طال الزمان بنا
نبر بالعهد يا مولاي والقسم!

إذا دعينا إلى تأكيد وحدتنا
وحق ربك لم نقل سوى نعم!

نعم.. إلى الحسن المقدام نعلنها
كما نؤكدها لهيئة الأمم

خمس وعشر من الأعوام قد سلفت
وشعبنا صامد كالطود في شمم!

يواصل السير في طريق وحدته
وراء من رفع اللواء للقمم

وجيشنا ساهر يحمي معاقلنا ... وعن مراقبة الحدود لم ينم!
يا إخوة ضللوا.. من عصبة لا تني ... تبيت الغدر والعدوان في الظلم!
ألا ارجعوا.. واحتموا بظل عاهلنا ... من قبل أن تقرعوا سنا من الندم
فالملك أصدر عفوه لكم كرما ... والعفو شيمة أهل الجود ،الكرم!
هذي المسيرة للتحرير مدرسة ... تزود الجيل بالأخلاق والقيم
وسوف تبقى لنا منارة وهدى ... لنصرة الحق، أو لنهضة الهمم!
فاسلم أبا الشعب للأوطان تنصرها ... ودم لشعب بكم شاد وملتحم
وليبق رب الورى ولي عهد الحمى ... وليمنح الفوز للأنجال كلهم
والله يحفظكم للدين مفخرة ... بحق مرسله و «النون والقلم»!

فاس — محمد البلغمي

شهيد العلم

للشاعر
عبدالكريم التواتي

إلى روح فقيد العلم والأدب والشعر الحاج محمد اباحنيني

رزايا الدهر تفجأنا بدار ... وما تبقي الصغار ولا الكبار
منا اجلها حداد مشرعات ... حنايا الخلق تحصد في ابتسار
وما غير المهيمن عز شأنا ... ليكبح من غوائلها الضرار
ودنيانا - محمد - ومض برق ... وما فيها الإنسان قرار
ليالي، وإن سرت قتام ... وأيام الحنا فيها قصار
- أتيناها تراودنا الأماني ... وتغرينا مباهجها الغرار
وأحلام مجنحة المطايا ... تدغدغنا مواعدها الكبار
وما حلم الحياة سوى سراب ... وبرق خلب أورى وحار

- أتيناها - وفي شغف جموح ... خلعنا في محبتها العذار
نطارحها التحايا في انتشاء ... ونمحضها التعلق في انبهار
وخلناها مغاني وارفات ... فلاظما ينغص لا - أوار
- وفردوسا من الأحلام يغري ... وظلا يستطاب به القرار
فألقينا عصا التسيار فيها ... وخلنا أنها أهنا مزار
نعب سرابها الآلاء شهدا ... ونكرع بالكبار وبالصغار
- نشيد - هائمين بها قصورا ... يهدّدها الزمان بالانهيار
- خدعنا - يامحمد - دون مين ... فدنيانا محمد - شر دار
ونعماها كواكب أفلات ... وآمال البرايا بها بوار
أتيناها على كره، وإنا ... سنتركها على غير اختيار

– نعى النـاعي محمـد – ويلتـاه أحقـا قـد قضى وهـوى وغـار؟
أيطـوي الموت مـن هـدّ الـرزايـا تحداهـا، وصـاول في اقتـدار؟
أيطـوي الموت مـن عشـق المعـالي وكـان لها العـلامـة والمنـار؟
أيطـوي الموت مـن قـد عـاش نجما مـدى الـدنيـا يشير ويستشـار؟
(محمـد) إن قضيـت فكـل حـي سيقضي، لا منـاص ولا فـرار
هـي الـآجـال لا يعـرو مـداهـا مطـال أو يـؤجلهـا اعتـذار
وأيـام جـرت نعمـى وبـؤسـى وأعمار ليـاليهـا قصـار
ونحـن – أبـا حنينـي – في يـديها خـذاريـف تقـاذفهـا التيـار
أرانـا والمنـايـا في عـراك ودنيـانـا تشـايعهـا ضرار
تعنّينـا كـأن لها حسـابـا وثـأرا تقتضيـه بـلا انتظـار
أدنيـانـا رويـدك، قـد فتنـا بسحـرك، والفـؤاد بـك استجـار

لقـد خلنـاك – يـادنيـانـا – أُمّاً على أفـلاذ أكبـادهـا تغـار
فهمنـا فيـك حبـا واستطبنـا جـوارك، هـل حفظـت لنـا جـوار؟
هـي الـدنيـا غـريـر مـن يـراهـا حقـائق، إنها ثـوب معـار
– ومـا تـوفي في نـائبـة بعهـد ولا تـرعـى الـذمـام ولا الجوار

مقـاديـر جـرت – يـالهف نفسي ولا وزر يجير، ولا إزار
بـأيـديها الخلائق والقضـايـا ولم تفتـأ تبـاغتنـا القـرار
– وتبرم مـا تشـأ بـدءا وختما ولا نقـض لـديها ولا ابتكـار
رضينـا بـالقضـا فيـك احتسـابـا فما فيما اقتضـاه لنـا خيـار
ولكـن فقـد مثلـك، يـا (حنينـي) مصـاب رزؤه هـدّ الـديـار
– هـو نكبـة مضنيـة يـاويلتـا صبر الحليـم لهولها المضنـي استطـار
لفقـدك – يـامحمـد – دون مين بـوار لا يعـادلـه بـوار
فقـدنـا العلـم زخـارا ودفقـا مـن الـآداب مـا عـرف العثـار
– فـأفيـاء الخطـابـة في يبـاب وأوتـار البـلاغـة في انحصـار

وعيـدان المنـابـر في اكتئـاب تعـزيها الكـراسي في انكسـار
بكـت كـل المجـامـع والهات وأفيـاء المعـاهـد في احتضـار

– ودار الكتب تندب في ابتآس ... أضابيرا يهددها انـدثار
وذي الأقلام بعدك في حداد ... وقد بات الحداد لها دثار
وذا القرطاس أيتم شر يتم ... وقد نضب المداد وما أجار
وما عرف (ابن بسام) حياة ... قبيلك أو ذخائر انتشار
أنرت سبيلها وأقمت صرحا ... من الآداب مغناها نضار
وأحييتم (أبا حيان) علما ... ونقدا، والزمان بك استدار
عشقت بيانه لفظا ومعنى ... وصغت بيانه السحري حوار
فإن تبكيك فاس في وفاء ... فأندلس بكتك بها ديار
ودار العرب تبكي فقد نجم ... أضاء سماءها وكان لها نهار

ودنيا الضاد تبكي فيك ذخرا ... حمى أمجادها، ولها أجار
وذا شعري يغالب فيك حزني ... وحزني فيك ليس له انحسار
وشعري ناء، يا ويح القوافي ... لقد عقمت وأجهضها الإصار
وما الأشعار تجدي في مصاب ... ولكن تضرم البلوى أوار
وما شعري فيك ليس سوى دموعي ... تتالت والحروف لها إطار
أنضده قوافي مبكيات ... على علم هوى وثوى بدار
أنيني – أبا حنيني – مستعر ... وأحشائي به أبدا حرار
فقدت بفقدك الدامي اصطباري ... وما أبقى اختفاؤك لي اصطبار
فقد ودعت فيك أخا وفيا ... ورمزا للصفا كان الشعار

وقد ودعت يوم قضيت بقيا ... من الآمال كن لي الوجار
وودعت الشمائل طاهرات ... حكى رقراقها الذهب النضار
فإن أحزن، فلا عجب، فإني ... فقدت في شخصه خلا وجار
وفقد الخل للحوباء رزء ... وللأكباد كان لها انفطار

وإن تذرف جفوني دمع حزن ... حسيرات، فإن لها اعتذار
وإن تمسك فيوض الدمع عيني ... فأحشائي غصصن بها غزار
وما وحدي بكيت عليك لكن ... بكاك المغرب الأقصى مرار
فإن يكن الزمان عدا ظلوما ... عليك – محمد – عدوا وجار

ووورية التراب، فأنت حي ... ودجن الليل لا يخفي النهار
وأنت محمد - في الفكر ذكرى ... ترددها الحنايا في افتخار
وتتلوها المنابر في ابتهال ... وتحضنها الجوامع والديار
وعرش المجتبى الحسن المثنى ... كفاك وسامه أي افتخار
فقد أولاك إنعاما وفضلا ... وعطف العرش آلاء كبار
غدوت بفضله علما تسامى ... معارف ما يحددها نظار(1)
فإن تكن المنون عليك جارت ... فما تأتيه بعدك ليس عار
- وبعدك - ياشهيد العلم تعسا ... لدار لا يقر لها قرار
وإن تقضي محمد، تلك عقبى ... بني الدنيا، وكل في انتظار
سنشرب ما شربت وسوف نقفو ... خطاك غدا، طوالا أو قصار
وتلك حقيقة حتم لقاها ... وليس لنا في لقياها خيار
عليك أخي السلام، وأنت ذكرى ... مخلدة المآثر والحوار
قرير العين نم، ورضوان ربي ... يحف ثراك بالسحب الغزار
جنان الخلد، مثواك المرجّى ... فطب نفسا فقد طاب القرار

فاس ـ عبد الكريم التواتي

(1) النظار والنظارة: الفراسة والحذق

وضعية الفرد والجماعة في الأمة الإسلامية

للدكتور توفيق محمد شاهين - المركز الاسلامي - أتاوا - كندا

في هذا البحث :

- يحفظ الإسلام للفرد كيانه واعتباره في الأمة الإسلامية، بحيث لا تذوب شخصيته في الجماعة، ولا تطغى على وجوده، ولا يشذ هو عنها، ولا تنمو عنده كلمة «أنا» ويتعالى ويتجبر بروح الفردية الطاغية وإنما يتحرك بروح الجماعة في داخلها بحرية وإرادة واختيار، فعلاقة الفرد بالجماعة في أمة الإسلام تدور في هذا الإطار.
- وتوجيه الإسلام إيجابي، للفرد وأمته، والرئاسة فيه تكليف وأمانة، والأمر شورى، والحقوق قضاء.
- وينمي الإسلام جانب المشاعر والأحاسيس في أمته، ليكون دفعها ذاتيا ثابتا، لا من عوامل خارجية تتذبذب بما تمليه المصلحة الوقتية، أو هوى النفس.
- والفرد وجماعته في الإسلام: إيجابيون.. عاملون متعلمون، وفاهمون لما تتطلبه حياتهم من عزة وكرامة وكفاية، ورفاهية.
- وعناية الإسلام بالجانب الروحي عظيمة، لبقاء التماسك والالتحام في الأمة الإسلامية.
- وأمر المسلمين جميع بأخوة الإيمان، التي هي أرفع وأسمى من أخوة النسب.
- وتجسيد الأمة الإسلامية في صنيع النبي ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة.
- ونداء إلى المسلمين بضرورة قيام وحدة دولتهم في عصرنا الراهن.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

مركز الفرد ومكانته في الأمة الإسلامية :

يحرص الإسلام ـ كل الحرص ـ على تنشئة الإنسان على الإيمان بالله تعالى، لأن الإيمان بالله عهد يعطيه الإنسان لله سبحانه، في أن يعيش لنفسه وغيره، ويقر راضيا من قلبه بأن له حقوقا، وعليه واجبات: حقوق يبذلها من نفسه لمعاشريه وجماعته العامة، وواجبات لمن يشاركهم الحياة، في أخوة ورضاء ومحبة وعطف وإيثار.

والإنسان بطبيعته أناني، لو ترك وشأنه لود كل شيء في الوجود له وحده، ولو زاد عن حاجته وانتفاعه: فلو كان له وادٍ من مال لتمنى وديانا أخرى، ولا يملأ عينيه إلا التراب، كما ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذه من مظاهر تحكم الفردية في سلوك الإنسان وسعيه وتصرفه: إذا لم يلتزم بما يراه الإسلام مقيدا له وموجها في التصرف والسلوك لما فيه خيره وخير الإنسانية معه، حينما تسيطر عليه الأنانية وحب الذات.

وتدخل الإسلام في هذا الصدد إنما هو لسعادة الإنسان، وإبعاد القلق والخوف والحزن والبغضاء والمشاحنة.. فيما بينه وبين نفسه، وبينه وبين جماعته بالتالي، فيعيش في دائرة الإنسانية السمحة الواسعة المعطاء، ويتخلص ويتجنب دائرة الفردية الضيقة، والأنانية الطاغية وحينئذ يكون بمأمن من الزلل والانزواء.

يقول الله تعالى: ﴿**إن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا**﴾ المعارج 19ـ21.

فالإسلام يؤمن بالفرد كحقيقة موجودة وليس ترسا في آلة، ويشجع نشاطه وحريته، ولكنه لا يؤمن بالفردية وجنوحها نحو المخاطر والأنانية والطمع والخوف والحزن.

علاقة المسلم بأمته :

الجماعة الإسلامية هي الأفراد جميعا، فهي مستمدة من وجود الأفراد كحقائق قائمة موجودة لها كيانها واعتبارها، أو بتعبير آخر هي الأفراد بعينهم وأشخاصهم، بدون إلغاء لوجوده، بل بالاحتفاظ بكيانه المستقل، ووحدة قائمة بنفسها، وإن كان عضوا فيها، يعطيها وتعطيه، وينفعها وتنفعه، في دائرة الحقوق والواجبات، يتمتع بالإرادة الحرة، وحرية التملك والتصرف، ولحياته واستقلاله حرمة، ويدور في فلك جماعته في اتساق وتعاون وحرية وكرامة، تنفع ولا تضر وتصون ولا تبدد، وتجمع ولا تفرق.

ووقتئذ تصبح الجماعة الإسلامية وحدة تتفاعل مع غيرها ونفسها، وتأخذ وتعطي، لها استقلال مقيد، وحرية مقيدة، وتتمثل القيود هنا في الفواصل التي هي بين الحلال والحرام، و: «الحلال بيّن والحرام بيّن».. إذ الحلال يمثل النفع العام أو الخاص للجماعة أو الفرد، والحرام ما يمثل الضرر الفردي أو الجماعي، وواجب الولاية العامة حينئذ: أن ترد الفرد إلى دائرة النفع، وأن تحول بينه وبين الإضرار بالآخرين على نحو من شأنه أن يحبب ولا ينفر.

يقول الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تاويلا**﴾ النساء/59.

* فالعلاقة في الإسلام بين الفرد والجماعة إيجابية ومحددة، فللفرد حريته واستقلاله الذاتي كوحدة قائمة بنفسها وذاتها، ولكن صلته بغيره في مجتمعه تملي عليه مراعاة حق الآخرين معه في الوجود والحياة.

والجماعة في نظر الإسلام ليست متعالية ولا مستبدة ولا مطلقة التصرف، فواجب الجميع طاعة الله ورسوله، وفقا لما جاءت به رسالة الإسلام وحين يثار نزاع أو اختلاف، فلا استبداد ولا سلطة علميا لا تناقش للجماعة أو الحاكم.. وإنما هناك احتكام إلى رسالة الإسلام، ممثلة في قرآنها، وسنة النبي ﷺ.

توجيه الإسلام إيجابي للفرد والجماعة في الأمة الواحدة :

للإنسان إيجابية، والإسلام يوجهها فقط نحو خير الفرد والجماعة، فهو كالمنظم لها، وراسم الطريق، وكيفية الإدراك، والحث على العمل يقول تعالى: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا**﴾ الإسراء/9.

فالإسلام دافع وموجه فقط إلى مباشرة أمور الحياة، ومواجهة أحداثها، والعمل لصالح الفرد والجماعة.

ونؤكد بالتالي حرص الإسلام على الاحتفاظ بشخصية الفرد في الجماعة، فلا يفنى أحدهما في الآخر، ولا يطغى أحدهما على الآخر.

وفي إيجابية في التوجيه، والسعي في سبيل الحياة بالعمل الذي هو في نفس الوقت سعى في سبيل الله... نجد دفعه قويا وواضحا، لرفاهية الفرد والمجموع.

كان النبي ﷺ جالسا يوما مع صحابته، فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة، وقد بكر يسعى، فقال الصحابة: ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله؟ فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا هذا، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة، ويغنيها عن الناس، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله».

ويقول الرسول ﷺ: «من طلب الدنيا حلالا تعففا عن المسألة، وسعيا على عياله، وتعطفا على جاره، لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر».

فالإسلام أشعر الإنسان بقيمة العمل نتيجة للإيجابية، ووجهه بالتالي نحو الحلال، وكل عمل لا يؤذي الغير، وكذلك وجهه إلى مجال العمل في الدنيا، يقول الله سبحانه: ﴿**وجعلنا لكم فيها معايش**﴾ الحجر/21، ﴿**فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه**﴾ الملك/15، ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون**﴾ الجمعة/10.

والفكر واسع في الإسلام، والعمل ضرورة، والفكر ضريبة.

وبهذا تظهر الملامح العامة لتكافل الجماعة الإسلامية، وعزتها وسيادتها حين تتكافل في البناء والاستقرار، وتتكافل في المحافظة على البقاء، وتتكافل في الولاء والإخلاص فيه، وعدم الخداع أو الطمع أو الإيذاء بعد توطيد الصلات بين الأفراد والجماعة، وإدراك معنى حمل المسؤولية، والجد في السعي للحياة الشريفة، والإيمان بأداء الواجب أولا، قبل المطالبة بالحقوق؛ للشعور بالمسؤولية والتبعية من الفرد تجاه جماعته، ولتبادله نفس الفعل والشعور.

توحيد المشاعر لأمة الإسلامية ضمان للاستمرارية عن حب :

أيقظ الإسلام الروح المشترك بين الإنسانية كلها، لتتعارف وتترابط وتتعاون على ما فيه خيرها، حتى يتمكن معنى الشعور بحقوق الفرد والجماعة والأمة في نفوس الجميع، فيتحقق جمال الحق، ومظهر العدل ودفء الأمن، ونبل العطف والود والمحبة في المجتمع، فيسعد، ويسعد، حين يعم ذلك الحاكم والمحكوم، ويكون التوجيه السديد والرأي الرشيد، وحفظ الحقوق والحرمات بالعدل والمساواة، في حكم صالح، ونزاهة في النفوس من القلوب، قبل تدخل القانون.

ومن العجيب أن ينادي القرآن الكريم الأمة

نادى جماعة المؤمنين، بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** حوالي الثمانين مرة، وفي هذا إشعار بأن الإسلام إنما هو دين الإنسانية كلها: **﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾** الأعراف: 158.

وأرشد القرآن الكريم إلى أن الفوارق بين الناس في: الذكورة والأنوثة والشعوب والقبائل. إنما هي للتعارف والترابط. يقول سبحانه: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾** الحجرات/ 12.

إذن: من سنن الأمة الكونية والطبيعية في قوتها واستمراريتها في ميدان الحضارة تبادل الشعور بين الأفراد وحكامها، حتى يتعمق الشعور بالجماعة والأمة، والدفع الذاتي لأداء واجبها، وفي نفس الحاكم لرعاية الحقوق والحاجيات. ولا تكون الجماعة طاغية مهيمنة، ولا يكون الفرد أنانيا كما أسلفنا.

ومتى كان القائمون بالتوجيه أمثلة تقتدى، ومسلك الحاكم نزيها في جميع جوانب الحياة والأحياء. فإن الأمة تسير بالتالي على منهج طبيعي لرفاهية الحياة ورقيها، وقوة الأمة وتفوقها.

يقول الله سبحانه: **﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم﴾** الأنفال/ 23 ـ وإذا ضعف الشعور.. كثر الشر والاعتداء والخديعة واللامبالاة والاعتداء على الحقوق والحرمات. وكل سلوك غير إنساني ولا رشيد.

والإسلام أرفع في دائرة الشعور بين الفرد والجماعة المؤمنة به، لأنها التقت على الحب لله تعالى والإيمان به، ونشر رسالة الإسلام، والسير على مقتضاها، لما فيه خيري الدنيا والآخرة. ومن هنا قصد الإسلام أن يكون الفرد قويا والجماعة المسلمة قوية، حتى يسيطر عقلها على مطالبها وتعيش عزيزة مهابة كريمة على نفسها وعلى غيرها، بعيدة كل البعد عن الأنانية، والفردية، والانعزالية.

وحين تبنى الأمة عن طريق تقوية الشعور والروح العامة الخيرة بين الأفراد والمواطنين، تكون على طريق الإسهام المستقيم في عبادة الله وحده والمعاملة الحسنة فيما بينهم وأن يحبوا لغيرهم ما يحبونه لأنفسهم، وتتسامى العلاقات حتى تصل درجة الإيثار، كما يحكي الله سبحانه عن إيثار الأنصار للمهاجرين على أنفسهم والترحيب بهم، وسعة صدورهم ـ قبل دُورهم ـ لهم. قال تعالى: **﴿والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾** الحشر/ 9.

الأمة الإسلامية إيجابية عاملة ناهضة :

وحد الإسلام جماعته على هدف عظيم ونبيل، حتى يدوم الاتحاد والألف والإيلاف، مادام الهدف جليلا وساميا، وهذا الهدف هو: الإيمان بالله وحده، وإخلاص العبادة له، والالتزام بأوامره والانتهاء عما نهى عنه، ليكون الله قبلته في كل شيء.. فالسبيل إلى الله تعالى إيمان به وبرسوله، وعمل بالرسالة وجهاد في سبيلها.

فالإيمان به سبحانه وحده احترام لإنسانية الإنسان من امتهانها حين تعبد مخلوقا غيره. والعمل بشعائره وشرائعه أساس لعمران الحياة وإسهام في الحضارة الإنسانية، والتسامي عن رغبات النفس الأمارة بالسوء، والتعالي فوق إغراء المال وفتنة الدنيا، ومتى ترجمت العبادة لله سبحانه إلى سلوك بأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا لوجود الانسجام وتوافره بين اللبنات، وفيه توازن وانسجام بين صفوفه ورسالة الإسلام. فيترجم التوازن إلى إيثار لا أثرة معه، وانسجام لما أمر به ونهى عنه في الفعل والترك، ولا يتأتى ذلك إلا بمجاهدة النفس، ويقينها بأن الآخرين المشاركين معها حق في الحياة، للوجود المشترك واختفاء الأثرة والأنانية، فتصبح اللبنات مشذبة مستوية مستقيمة لا عوج فيها، فيكون الالتحام قويا وأبقى، حين تضم لبنة إلى أخرى، فتتحقق العزة والقوة والجمال.

يقول الله تعالى: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾** النساء/ 30.

ويقول تعالى: **﴿يايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾** البقرة/ 190.

ويقول سبحانه: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾** آل عمران/ 115.

للجانب الروحي أثره في بقاء الأمة الإسلامية وتماسكها :

الإيمان بالله تعالى، وتصديق رسوله ﷺ هو الذي يربط بين الجماعة الإسلامية، ويجعل ولاءهم لبعضهم البعض.. حتى تبقى جماعتها قوية وشخصيتها متميزة. فالعامل النفسي والروحي هو حجر الزاوية في حياة الإنسان وجماعته، والتلاشي والتفاني والضعف إنما هو حين يضمحل أو يتلاشى هذا العامل. والولاء في الإسلام شعور روحي قائم على التعاطف والتآلف والإخلاص فيهما، ويتبعه الحب والإيثار والبعد عما من شأنه أن يؤذي أو يسيء أو يضر أو يفسد أو ينفر.. إلخ.

يقول الله سبحانه: **﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾** آل عمران/28.

فالقرآن الكريم ينهى نهيا قاطعا عن موالاة غير المؤمنين، وأن من يفعل ذلك إنما هو ليس من عداد المسلمين المؤمنين بالله تعالى، ويقوي ذلك بتحذير المؤمنين من غضب الله ومخالفة أمره في ختام الآية الكريمة.

ومعنى هذا أن الإسلام حريص كل الحرص على بقاء تماسك الجماعة الإسلامية، لتبقى قوية، بدفع ذاتي وشعور نابع من الوجدان، لتصبح لها شخصيتها القوية، ومميزاتها الخاصة كخير أمة أخرجت للناس.

أمة الإيمان :

يقول الله تعالى: **﴿يايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾** آل عمران:102/103.

يقول ابن مسعود - رضي الله عنه - تقوى الله: أن يطاع فلا يُعْصَى وأن يُذكَر فلا يُنْسى، وأن يُشكَر فلا يُكفَر به. رواه الحاكم مرفوعا عن عبد الله، وقال صحيح على شرط الشيخين.

و **﴿حق تقاته﴾**: أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

و **﴿حبل الله﴾**: عهده تعالى وكتابه.

وأمرهم سبحانه بالجماعة، ونهاهم عن التفرقة، وقد ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم.. ويسخط لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وقوله تعالى: **﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾** إلخ. تذكير بنعمة الله عليكم بالأخوة والوحدة، بعد أن كانوا في الجاهلية أعداء، ومتفرقين متخاذلين، ملك

عليهم أمرهم فأذهلهم، قال سبحانه: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ الأنفال: 23.

ويقول الله تعالى: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون﴾ الأنبياء: 92، ويقول سبحانه: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم تُرحَمون﴾ الحُجُرات: 15 وفي الحديث الشريف: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» وفي الصحيح: «واللهُ في عون العبد مادام العبد في عون أخيه» وفي الصحيح أيضا: «إذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب، قال المَلَك: آمين ولك بمثله».

نحن معشر المسلمين: أمة ربط الله تعالى بين قلوبها، وجمعها على كلمة التقوى، ورحمنا بالإسلام الذي أكمله وارتضاه لنا دينا.

وفي هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة نرى:

أن الله تعالى يأمرنا بالاعتصام بعهد الله وكتابه، وإننا أصبحنا إخوانا بنعمته حين تآلفت قلوبنا بعد نفرة في الجاهلية، وإننا يجب أن نذكر هذه النعمة الجليلة، وأن القوة والعزة والرفاهية إنما هي حين نحقق أننا أمة واحدة.

وأن علينا لزوم الجماعة، والسمع والطاعة فيما أمر الله تعالى، ومناصحة أولي الأمر والاستماع إليهم، ورد الأمر كله إلى كتاب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وأن الأمة الإسلامية قوية في اجتماعها، تتآلف قلوبها ومشاعرها نحو طاعة الله وحده، وعمل الخير والتعاون عليه وحده.

وبالأمة الواحدة تكون العزة لله ورسوله والمؤمنين، وبالأخوة تكون المحبة والمودة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ في النار.

ولنذكر دائما: أن إلَهنا واحد، وكتابنا واحد، ورسالتنا واحدة... وقبلتنا واحدة، وكرامتنا واحدة، ويجب أن تكون أمتنا وأخوتنا امتدادا دائما لصنيع نبينا محمد بن عبد الله ﷺ حين آخى بين المسلمين في المدينة المنورة، فانطلق الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ينشر نور الله، ويحافظ على الطيبات، ويحمي الحريات، ويوجه الإنسانية الوجهة الصحيحة، ويسهم في الحياة والحضارة إضافات نافعة وبناءة، ويرسي قواعد الحق والخير والجمال، ويحطم الطواغيت والفراعين والشرور والأصنام، ويجعل السيادة للخير، والعزة لله ورسوله والمؤمنين.

تجسيد الدولة الإسلامية نظرية وتطبيقا في دولة الهجرة

المسلمون أصحاب عقيدة هي الإيمان بالله تعالى وحده، وشريعة تنظم الأمور لحياتهم ومَعَادهم، ويُحِقون الحق، ويُزْهِقون الباطل ولو كره الكافرون.

ومن أجل هذه الأهداف هاجر المسلمون الأولون من مكة المكرمة فرارا بدينهم من أذى الكفار

ابتغاء نصرة دينهم واستبقاء حياتهم للذود عنه، والعيش في سبيله، والجهاد من أجله.

ولنفس الهدف استقبلهم الأنصار في المدينة المنورة عن طيب خاطر ونعامة عين، لتكون كلمة الله هي العليا، وتكون كلمة الذين كفروا هي السفلى.

ولأول وهلة وضع النبي ﷺ الدعائم الثابتة لبناء الدولة الإسلامية، ذات الأمة الواحدة، لنصرة رسالته، وعزة المسلمين وكرامتهم، وكان الإخاء الخالص، والإيثار الكريم، والاتجاه المشترك نحو الهدف السامي لإعلاء كلمة الله تعالى:

- فربَط المسلمين بخالقهم حين بَنَى المسجد، ليكون مقر القيادة والعبادة.

- وآخى بين جماعة المسلمين، لتذوب عصبية الجاهلية، وتسقط عوامل الفرقة الظالمة بسبب الجاه والنسب، أو المال، أو اللون والجنس.

فأصبحت الأُخوة رباطا وثيقا فعالا بِدَفْع إيجابي، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا. وعلى قدر ما احتفى الأنصار بلقاء المهاجرين وأخوتهم وتخلصوا من نوازع الأنانية والشح والصِّغار.. حتى عرضوا عليهم - عن طيب خاطر - مشاركتهم أموالهم وديارهم على قدر هذا الاحتفاء وحسن اللقاء على قدر ما كان المهاجرون في سامق الذرى عفة واستغناء، وسمو نفس. فعرضوا أن يشاركوهم العمل في مزارعهم، ومتاجرهم، ليكون لهم حق في الذي يحصلون عليه من أجر كريم بعمل شريف.

وقد وعى تاريخنا: أن سعد بن الربيع عرض على عبد الرحمن بن عوف - بعد المؤاخاة - أن يشاطره ماله، وأن يطلق إحدى زوجتيه - التي تروق لابن عوف - ليتزوجها بعد انقضاء عدتها. فدعا له ابن عوف بخير، وسأله أن يدله على السوق. ليزاحم التجار بمهارته في التجارة فلم يمض إلا قليل حتى استغنى بنفسه وفاضت أمواله، حتى أصبح في وقت لاحق أغنى من بيت مال المسلمين، فأنفقه في سبيل الله عن كرم نفس وإيمان بالله ورسوله.

ولم يشأ الرسول ﷺ أن يستأثر على أمته بشيء في هذا الإخاء، فآخى أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - على أصح الروايات - فقال في حديثه: «لو كنت متخِذا من أمتي خليلا لاتخذته - يعني أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام أفضل» رواه البخاري. وأصبح بهذا الإخاء حق التوارث للمتآخين، قبل أن يكون للقرابة حتى نزل قول الله تعالى: **﴿وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾** الأنفال: 75، فكان التوارث بعد ذلك لذوي الأرحام، وليس للمتآخين.

وروى البخاري عن ابن عباس، في معنى قوله تعالى: **﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون، والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾** النساء: 33، قال: كان المهاجرون - لما قدموا المدينة - يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: **﴿ولكل جعلنا موالي﴾** نسخت ثم قال: **﴿والذين عاقدَتْ أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾** من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصي له.

ومعنى ما سبق أن الإخاء أصبح عقيدة نافذة،

وشرعة محترمة لا حبرا على ورق. ولضمان السلام والأمن، وحسن الجوار، والتآلف والتعاون البناء عقد النبي ﷺ مع غير المسلمين معاهدة سلام وعدم اعتداء؛ حتى يشيع السلام، ويختفي العدوان والاثم. فكانت معاهدة (الند للند)، لنصرة المظلوم، وحماية الجار، ورعاية الحقوق، وحماية المدينة.

ويؤكد التاريخ أن المسلمين حفظوا المعاهدة ونفذوها: روحا ولفظا. ولكن خانتها جماعة اليهود في المدينة، حين واتتهم الفرصة بالدس والوقيعة.

فقد أعزهم الله بالإسلام، وبقيت دولتهم قوية الجانب في الشكل والموضوع أكثر من ألف عام. وحين تناوبتهم الخطوب السُّود تفرقوا أيدي سَبَأ، وذهبوا شذَر مذَر، وطمع فيهم من لا يدافع عن نفسه، ونمت فيهم روح التدابر، وتناوشتهم العداوات، وأثرت فيهم الوقيعة فتحاربوا وتحزبوا، وتبعوا أعداء الله وأعدائهم، ووادوهم ووالوهم، وما والوا كتاب الله تعالى.

وليس هناك أمل في الإنقاذ إلا بالأمة الواحدة على هدي من القرآن والسنة.

نداء إلى المسلمين :

المسلمون اليوم بحاجة إلى: تكوين أمة واحدة، قوامها: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

أوتاوا ـ كندا ـ د. توفيق محمد شاهين

الملف الخاصّ عن

الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية

الصحوة الإسلامية، واقع وآفاق

التي انعقدت أشغالها بولاية الدار البيضاء

من 6 إلى 12 صفر الخير 1411

موافق 28 غشت - 3 شتنبر 1990

بسم الله الرحمن الرحيم

ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ
بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

صدق الله العظيم

إنّ واقع أمتنا الإسلامية في الظروف الراهنة، يدفعنا إلى أن نجعل في مقدمة المهام التي يجب أن تبذل من أجلها الجهود، إعطاءَ مدلولِ البعث الإسلامي صورتَه الحقيقية بترشيد الصحوة الإسلامية وتوجيهها ورعايتها، وفق ما تقتضيه مصالح الأمة، وفي إطار مقاصد الشريعة التي يتعين الاستمساك بها، والخضوع لمنابعها الصافية التي هي الكتاب والسنة النبوية الصحيحة، مهتدين بالهدي النبوي الشريف، دون مغالاة أو تفريط في شؤون ديننا، وغير منحرفين عن المحجّة البيضاء التي ليلها كنهارها، بما يلزم ذلك من الاستقامة على الطريق اللاحب الذي اختطه رسول الله صلى الله عليه وسلم، من غير تزيّد أو تزمّت ودون تنطّع أو انسياق مع الهوى والغرض.

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني

المملكة المغربية
ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن
الدار البيضاء
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

انعقاد
الجامعة الصيفية
للصحوة الإسلامية
بولاية الدار البيضاء الكبرى

من 6 إلى 12 صفر الخير 1411
(28 غشت - 3 شتنبر 1990)

انعقاد الجامعة الصّيفية للصّحوة الإسلاميّة بولاية الدّار البيضاء الكبرى

من 6 إلى 12 صفر الخير 1411هـ موافق (28 غشت - 3 شتنبر 1990م)

تحت شعار الآية الكريمة: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾. وتحت الرعاية السامية لمولانا أمير المومنين، وحامي حمى الملة والدين، جلالة الملك الحسن الثاني، المحفوظ بالسبع المثاني، أدام الله عزه وعلاه، انعقدت - على بركة الله وحسن توفيقه - بولاية الدار البيضاء الكبرى، من 6 إلى 12 صفر الخير 1411هـ موافق (28 غشت، 3 شتنبر 1990)،

صورة للجلسة الافتتاحية لأشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية

أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية التي قامت بتنظيمها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وكان موضوعها:

«الصحوة الإسلامية، واقع وآفاق»

وقد دعي للمشاركة في هذا الملتقى الإسلامي الكبير علماء ومفكرون وممثلو عدد من الجمعيات والمؤسسات الإسلامية من المملكة المغربية، ومن جل الدول العربية والإسلامية، وبعض رجالات العلم والفكر والاستشراق من دول أروبا وأمريكا، وإفريقيا.

* * *

وانطلقت الجلسة الافتتاحية للجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية ـ بعون الله ـ يوم الثلاثاء 6 صفر الخير 1411هـ موافق 28 غشت 1990م، على الساعة الحادية عشرة صباحا، والتي ترأس أعمالها السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري.

وقد حضر أشغال هذه الجلسة السيد مستشار صاحب الجلالة الأستاذ أحمد ابن سودة، والسيد مولاي أحمد العلوي وزير الدولة، وعدد من السادة الوزراء في حكومة صاحب الجلالة، وبعض السادة سفراء الدول العربية والإسلامية المعتمدين بالمملكة، وكذا والي صاحب الجلالة على ولاية الدار البيضاء ـ أنفا ـ الأستاذ أحمد مطيع، وعمال صاحب الجلالة بولاية الدار البيضاء الكبرى وعدد كبير من السادة العلماء والشيوخ من داخل المملكة وخارجها، ورجال العلم والفكر والدعوة، وجمهور من المثقفين الذين تم استدعاؤهم لتتبع أطوارها ومراحلها.

وبعد تلاوة مباركة لآيات بينات من الذكر الحكيم، تناول السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري.

ومما جاء في كلمة السيد الوزير:

«وأرى من الواجب أن أعترف بالفضل لصاحب الفكرة، الداعي إلى هذه الأيام الجامعية، وتخصيصها للتعمق في فهم الصحوة الإسلامية، ودراسة واقعها وآفاقها، وهو أمير المومنين، جلالة الملك الحسن الثاني الذي تنعقد جامعتنا تحت رعايته السامية، فجزاه الله أحسن الجزاء، وأبقاه للعلم والإسلام، وللمفاخر والمكارم، وأيد به الصحوة الإسلامية، حتى يعم نورها الآفاق، ويشمل خيرها مشارق الأرض ومغاربها بإذن الله ومنه وكرمه».

وبعد كلمة السيد الوزير، تعاقب على منصة الخطابة، عدد من الشخصيات العلمية من المغرب والخارج، فعبروا من جهتهم عن مدى ابتهاجهم بانعقاد هذه الجامعة، وامتنانهم لمبدع فكرة عقدها، ورعايتها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، وتطلعهم الطيب للنتائج الخيرة التي ستسفر عنها أشغالها، والنجاح الذي يؤملونه لأعمالها.

* * *

وتميزت أشغال هذه الجامعة، بتقديم عروض وبحوث ساهم في إعدادها نخبة من العلماء المشاركين في هذه التظاهرة الإسلامية، كما تميزت بالمناقشات والتدخلات التي أثرت الحوار، وأبانت عن مستواه العلمي والفكري، مما أعطى الانطباع السار على أهمية انعقاد هذه الجامعة، وضرورة استمرار هذا الحوار، من أجل الوصول إلى الأهداف والمرامي التي تقوي

بعض السادة الوزراء في حكومة صاحب الجلالة يتابعون أشغال الجلسة الافتتاحية للجامعة

صورة للشخصيات العلمية الحاضرة في افتتاح أشغال الجامعة
وفي مقدمتهم بعض أصحاب السعادة سفراء الدول الإسلامية المعتمدين بالمملكة

صورتان للشخصيات العلمية من داخل المملكة وخارجها المشاركة في أشغال
الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية بولاية الدار البيضاء

دعائم المجتمع الإسلامي، وتقود أهله إلى أفضل سبيل، وأقوم طريق.

وكانت موضوعات العروض المقدمة خلال أشغال هذه الجامعة كما يلي :

● **المغرب أرض المهمة الإسلامية**

للسيد وزير الدولة الأستاذ مولاي أحمد العلوي

● **حاجة الناس إلى الدعوة، وحاجة الدعاة إلى التعارف، وحاجة الدعوة إلى التنظيم**

لفضيلة الشيخ محمد المكي الناصري

رئيس المجلس العلمي الإقليمي للعدوتين

● **الصحوة الإسلامية وأثرها في تضامن العالم الإسلامي**

للأستاذ عبد الهادي بوطالب

المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالرباط

● **تعاون الولاة والدعاة من شروط دوام الصحوة واتساعها**

للأستاذ عبد الوهاب بنمنصور

مؤرخ المملكة

● **روح المنهج العلمي في الإسلام**

للدكتور عباس الجراري

● **دور الأخوة الدينية ومقتضياتها في إصلاح المجتمع**

للعلامة الأستاذ عبد السلام جبران المسفيوي

رئيس المجلس العلمي الإقليمي بمراكش

● **الصحوة الإسلامية والبناء الحضاري**

للأستاذ عبد السلام الهراس

● **نحو صحوة ملتزمة**

للأستاذ الحسين وجاج

رئيس المجلس العلمي الإقليمي بتزنيت

● **الصحوة الإسلامية واليسار العربي**

للأستاذ مصطفى بنحمزة

● **الصحوة الإسلامية بين الآمال والطموح**

للأستاذ عبد القادر العافية

● **نحو ترشيد الإسهام في الصحوة الإسلامية**

للأستاذ المصطفى صغيري.

وقد عرفت هذه الجامعة حضورا مكثفا من طرف المهتمين والمتتبعين لأشغالها طيلة أيام انعقادها، كما سجلت مشاركة طيبة للعنصر النسوي الذي تتبع باهتمام أطوارها ولحظاتها.

* * *

وكان يوم الإثنين 12 صفر الخير 1411هـ موافق 3 شتنبر 1990م، موعدا للجلسة الختامية لأشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية، التي انعقدت برئاسة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، الذي افتتحها بكلمة قيمة نقتطف منها الفقرة التالية:

«ها نحن هؤلاء، نختم أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية، وستبقى نورا في قلوبنا، وإشراقة وضاءة في فكرنا، ومرحلة ومنعطفا مهما في درب الدعوة، ومددا متجددا للصحوة، وأسلوبا نموذجيا في التعامل الإنساني بين ولاة الأمر، وبين رجال الفكر والعلم والدعوة.

لقد استمعنا إلى مجموعة العروض القيمة، وناقشناها مناقشة علمية راقية، وهذا في حد ذاته

فضيلة الأستاذ محفوظ النحناح من القطر الجزائري الشقيق يتناول الكلمة في إحدى الجلسات المخصصة لمناقشة العروض المقدمة في الجامعة.

جانب من المدعوين الذين حضروا أشغال الجامعة، ويرى في الجهة اليمنى من الصورة عدد من السيدات اللواتي ساهمن بحضورهن المستمر لتتبع مراحل أعمالها.

صورة للجلسة الختامية لأشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية

مهم، ولكن الأهم منه، هو ما أتاحته هذه الجامعة، من تواصل بشري، تعانقت فيه الأرواح، وأحست بدفء الأخوة، وحرارة الإيمان الجامع، وتعاهدت على الصفاء والوفاء والعمل البناء وإذا كان جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله ونصره، هو الذي دعا إلى هذه الجامعة، وهو الذي استضافها في رحاب كرمه، وزكاها. فإنني للتاريخ أسجل أنه هو الذي وضع نظامها، ورسم خطتها، وحدد أهدافها، وعين مكانها، وأنه ليس لنا من فضل إلا الإخلاص في تنفيذ إرادته، والسهر على أن تتم الأمور وفق تعليماته، وإنني إذ أذكر هذا، فلأنه يمثل دليلا ملموسا على عناية سيدنا المنصور بالله بالصحوة الإسلامية ورجالها، والخصوصية التي يحظى بها نشاط العلماء والدعاة عند شخصه الكريم، وهذا من فضل الله علينا في هذا البلد الأمين، واجب علينا تقديره حق قدره، وشكره، والاعتزاز به».

ثم تناوب على منصة الخطابة عدد من الشخصيات العلمية والفكرية ورجال الدعوة من داخل المملكة وخارجها، فألقوا بدورهم كلمات نوهوا فيها بأشغال الجامعة وبمنهجيتها وبمعطياتها الإيجابية على مستقبل الدعوة في مسار الصحوة الإسلامية الواعدة.

وبعد ذلك، ألقى السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، كلمة ختامية أعطى في نهايتها الكلمة لمقرر الجامعة الأستاذ

السيد المقرر العام للجامعة الأستاذ أحمد أفراز النائب العام للوزارة، يتلو برقية الشكر والامتنان المرفوعة إلى صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده باسم السادة العلماء المشاركين في أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية.

أحمد أفزاز الكاتب العام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، لتلاوة برقية الشكر والامتنان المرفوعة إلى أمير المومنين مولانا صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، من السادة العلماء المشاركين في أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية.

* * *

وقد أبى مولانا أمير المومنين، أدام الله عزه وعلاه، إلا أن يزيد في تشريف هذه الجامعة وتكريمها، باستقباله للسادة العلماء المشاركين في أشغالها، وذلك برحاب قصره العامر بالصخيرات صباح يوم الثلاثاء 13 صفر الخير 1411هـ موافق 4 شتنبر 1990م، حيث ألقى فيهم جلالته ـ حفظه الله ـ كلمة توجيهية سامية.

وقد كان لانعقاد هذه الجامعة أصداء طيبة، تركت آثار الارتياح في نفوس جميع المشاركين والمتتبعين لأشغالها، وانطباعات سارة على موضوعاتها ومنهجيتها، والمناقشات والتدخلات التي عرفتها طيلة أيام انعقادها.

ويسر مجلة دعوة الحق، أن تقدم في الصفحات الموالية من هذا العدد، ملفا خاصا عن هذه الجامعة. يتضمن ما يلي:

- نص الكلمة السامية التي ألقاها مولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده. في العلماء المشاركين في أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية بالقصر الملكي العامر بالصخيرات.
- الكلمات التي ألقيت في الجلسة الافتتاحية للجامعة.
- الكلمات التي ألقيت في الجلسة الختامية للجامعة.
- برقية الشكر والامتنان المرفوعة إلى صاحب الجلالة حفظه الله من السادة العلماء المشاركين في أشغال الجامعة.

الكلمة السامية التي ألقاها مولانا أمير المؤمنين
صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله

بمناسبة استقبال جلالته للسادة العلماء المشاركين
في الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية

برحاب القصر الملكي العامر بالصخيرات

استقبال مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده للسادة العلماء المشاركين في أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية

الكلمة السامية التي ألقاها مولانا أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله

بمناسبة استقبال جلالته للسادة العلماء المشاركين في الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية بردهاب القصر الملكي العامر بالصخيرات

استقبل مولانا أمير المومنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ـ نصره الله وايده، والذي كان محفوفا بصاحب السمو الملكي ولي العهد، الأمير الجليل سيدي محمد، وصاحب السمو الملكي، الأمير مولاي رشيد ـ زوال يوم الثلاثاء 13 صفر الخير 1411هـ موافق 4 شتنبر 1990م بالقصر الملكي بالصخيرات، السادة العلماء المغاربة والضيوف الذين وفدوا من مختلف أنحاء العالم للمشاركة في أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية التي انعقدت بولاية الدار البيضاء الكبرى.

وقد تشرفت لجنة من السادة العلماء، بتقديم تقرير عن أشغال الجامعة إلى جلالة الملك، رعاه الله.

وبعد ذلك، ألقى ـ حفظه الله ـ الكلمة الملكية السامية التالية :

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله، وآله وصحبه.

حضرات السادة والسيدات،

لم يبق لي الكثير لأقوله، بعدما استمعت وقرأت تدخلاتكم المتبوعة والمشفوعة بنقاشكم.

وقد سررت ولله الحمد، كما سر كافة المسلمين هنا ببلدكم، وخارج المغرب، بالحماس الذي تطرقتم به إلى المواضيع المختلفة والعميقة التي كانت محور لقائكم.

إن هذا العمل، له أهمية كبيرة، لا تنحصر في حجمه وحجم مواضيعه، بل تخترق الأجواء والبحار والقارات، لتوصل كلامكم ودراساتكم إلى إخوانكم في في الدين وفي الله كانوا مسلمين أم غير مسلمين.

نعم، كما أن لكل بشر حينما يدخل معمعة، وكما أن لكل داخل دهشة، فلكل جماعة كذلك دهشة، ولاسيما والإسلام، وما هو حول الإسلام، وما هو كائن في العمود الفقري للإسلام، هذه كلها مواضيع تكاد تكون مواضيع نارية، لا يمتلكها ولا يأخذ بنواصيها إلا من كان من الذين قال فيهم الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم﴾.

أريد أن أنطلق في هذه الكلمة الوجيزة جدا من آية وحديث: الآية وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ والحديث الذي يقول فيه النبي ﷺ: «تركتم على المحجة البيضاء كتاب الله وسنتي، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا ضال».

إذن، نرى من خلال هذه الآية، ومن خلال هذا الحديث، أن لا خوف على الإسلام من الله سبحانه وتعالى، بل يجب أن نخاف على الإسلام من المسلمين أنفسهم. لماذا؟ أولا: لأنه مع الأسف، في العصور التي نعيشها، أصبح هناك فرق زمني وفرق مادي بين البيت والمدرسة،

الشيء الذي لم يكن في المجتمعات القديمة، وحتى في المجتمع الذي تربيت فيه، كنا نفتح أعيننا في الصباح، ونرى أهلنا يصلون الصبح، بعد ذلك نذهب للكتاب، نحفظ دون أن نفهم، ولكن نحفظ، وبعد ذلك، نغير اللباس، ونترك قلم القصب لنأخذ القلم العصري، لنتلقى الدراسات في شتى المواضيع وبشتى اللغات. وهكذا، كان الأستاذ والمربي متفقان دون أن يتفقا. متفقان على أن الإسلام قبل كل شيء خلق وسلوك، والإسلام هو أولا «الدين المعاملة»، والإيمان هو أن تعبد الله كأنك تراه، والتقوى وهو من الخوف، أن تخاف ربك معنى أن تتساءل كل يوم عما فعلت، وأن تسائل وتحاسب ضميرك. وهناك بعض المسلمين مع الأسف الذين وإن كانوا علماء، لم يعطهم الله سبحانه وتعالى حكمة التربية. فالعلم شيء، والتربية شيء. ولا أدل على هذا من قول النبي ﷺ: «الدين يسر، ولن يشاد أحدكم هذا الدين إلا غلبه» فمن العلماء والأساتذة والموجهين الذين يريدون أن يطبقوا على أبنائهم وطلبتهم وتلامذتهم جميع المعلومات التي يعرفونها عن الصلاة، وعن أركان الصلاة، وعن الصيام، وعن أركان الصيام، وعن العبادات التي قبل كل شيء يجب أن تكون غريزة سامية فينا. تلك العبادات التي تثقل على كاهل بعض الشباب، وكلنا كنا شبابا. فمن منا منذ بلوغه لم يصل، وقطع وصلى، ثم قطع وصلى، ثم قطع إلى أن هداه الله سبحانه وتعالى أن يأتي الأركان الخمس للصلاة كل يوم. وهذا الاستقرار في العبادات، يجب أن يكون مدعوما بمرونة في التلقين، بتفهيم الطالب والتلميذ، ولاسيما أننا إما لنا أولاد وبنات يدرسون في الخارج، وإما لنا جاليات بأكملها تعمل في الخارج في دول غير إسلامية. فإذا لم يلقنوا منذ صغرهم الثوابت والرواسخ، وإذا نحن أثقلنا دماغهم بمثل: قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم. قال النحاة: هل النملة ذكر أم النملة بمعنى جنس النمل؟

هذه مسألة طيبة، وهذا دليل على أن فقهاءنا أخذوا يدرسون كل شيء، حتى وصلت بهم الدراسة أن يدرسوا ما قالته النملة.

ولكن، هل من حقنا ومن واجبنا أن نثقل كاهل وأذهان الطلبة والتلاميذ، وحتى أولئك الذين يقرأون تفسير القرآن، أو الذين يقرأون البلاغة بهذا؟

فلهذا أقول: أخاف على الإسلام من المسلمين. أما الله سبحانه وتعالى، فهو حافظ كتابه. والرسول ﷺ محصن سنته. إلا أن المسلمين مع الأسف أصبحوا غير كفاة للتربية.

فعلينا إذن حضرات السادة والسيدات، في الجامعة الصيفية، للسنة المقبلة إن شاء الله، أن

صورتان تبرزان استقبال صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده للسادة العلماء المشاركين
في أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية بالقصر الملكي العامر بالصخيرات

نهيىء المواضيع حول كيف يكون الشاب المسلم والشابة المسلمة؟

كيف يمكن للمعلم وللمربي، أن يملأ دماغ الذكر والأنثى دون اتخام؟ كيف يجعلهم قادرين على امتلاك الملكة؟ تلك الملكة التي هي غريزة، أما تريك في دماغك الضوء الأخضر، أو الضوء الأحمر، إن لم يكن الضوء الأصفر الذي يعني التشكك. وآنذاك، اسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

فخوفي كل الخوف، هو على الذين سيخلفوننا. ماهي نوعية الإسلام الذي سيعتنقونه وسيدافعون عنه وسيكتبون عنه وسيلقنونه أبناءهم وأبناء أبنائهم؟ فلي اليقين، أنكم كلكم كأساتذة وكآباء، محتارون أمام هذا السؤال.

قال النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

فإذا كان الإنسان مخلقا بأخلاق النبي ﷺ الذي قال فيه الله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾. لي اليقين، أنه بهذه المرآة المتوالية، يرى المسلم نفسه في النبي ﷺ بكل تواضع. ويرى السدة النبوية كصنيعة لله سبحانه وتعالى، خلقا وخلقا. إذا نحن سرنا تدريجيا في التربية وفي التلقين. لي اليقين أننا سنصبح مطمئنين على هذا الدين، الذي يريد البعض أن يظهره دينا محجرا ينحصر في التوحيد، وفي الفقه. والحالة هذه، أن الإسلام والحمد لله، أوسع بكثير، إلى حد أننا سمعنا أساتذة محترمين عظام يقولون: الفقه ينقل ولا يتعقل. كيف ذلك؟ إذا كان هناك شيء يقبل التطور، بل يتطلب الاجتهاد والمرونة، فهو الفقه، ونراهم يقولون: والتوحيد يتعقل ولا ينقل، وهنا يجب أن يحدد الفقيه الذي يتعاطى للدروس وللمواد الدينية، دون الحديث عن البلاغة والآداب والتاريخ والعروض وغيرها. فبالنسبة لنا ولكم، ليس هذا هو الدين الذي يجب أن نسميه الإسلام. فالإسلام دين اجتهاد، والإسلام دين رموز، فمثلا حينما نكون مرضى، أو على سفر، أو على جنابة ولا نجد الماء، فيجب علينا التيمم. والتيمم: هو مسح الوجه واليدين أي المرفقين. فهل هذا التيمم هو الذي سيغسلنا من العرق، أو مما وقع لنا من مضاجعة زوجاتنا؟ هل هو الغسل الذي سنغسل به ذاتنا من رأسها إلى رجلها؟ كلاّ. هذا مجرد رمز، إذا جاء وقت الصلاة، وحان لقاء المسلم مع ربه، ومناجاة المسلم لربه، ولم يجد ماء، فليتطهر رمزيا، حتى يستدبر ماكان عليه، ويستقبل مناجاة الله فالقرآن والدين كله رموز.

بالطبع، يجب علينا أن نتتبع شيئا ما، ونتحلى بشيء ما من الصرامة، حتى لا نترك المتلاعبين يتلاعبون، ولكن يجب علينا دائما أن نرجع إلى دافع المشرع وأسباب التشريع، سواء كانت أسبابا ظرفية فقط، أو كانت أسبابا قارة

السادة العلماء من داخل المملكة وخارجها المشاركون في أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية يتابعون باهتمام الكلمة السامية التي ألقاها فيهم صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده أثناء حفل الاستقبال الذي خصهم به جلالته بالقصر الملكي العامر بالصخيرات.

في جميع الأزمان، وفي جميع المناخات، وفي جميع صور الحياة.

وبهذه المناسبة، أريد أن أذكر لكم حضرات السادة والسيدات، موضوعا طالما اشتاقت نفسي إلى أن نطرحه بكل وضوح، وبكل أخوة، وبكل إيمان. وهو لماذا لم نعمل في هذه السنة إلى السنة المقبلة إن شاء الله في شهر غشت، على التفكير في التقريب بين السنة والشيعة؟ لماذا والحالة هذه تساكنا نحن السنيين والشيعيين ثلاثة عشر قرنا؟ ولماذا ابتداء من منتصف هذا القرن أصبح الشيعة والسنة يتطاحنان ولا يتعارفان؟ فإذا انبثق من جامعتكم الصيفية هذه حوار محكم لطيف مقنع، متسم بالتساكن والتسامح، سواء من هنا أو من هناك، لي اليقين أن كثيرا من مخاوفنا على الإسلام من الإسلام، سينمحي نهائيا.

وثانيا: سنكون بهذا قد امتثلنا لأمر الله سبحانه وتعالى في كتابه حينما يقول: ﴿ادفع

بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾.

ففكروا معي حضرات السادة والسيدات في الموضوع التربوي بكيفية عامة في تقريب الإسلام الحقيقي من المسلمين، في إعطاء فلذات أكبادنا درعا من الإيمان، ليحصنوا أنفسهم في حياتهم، هذه الحياة التي جعلت المسلم لا يعيش بالضرورة في مجتمع إسلامي، والمسلمين الذين يعيشون في مجتمعات غير إسلامية لا يثبتهم على دينهم، ولا يجعلهم مكرمين لدى المجتمع غير الإسلامي الذي يعيشون فيه، إلا سيرتهم الأخلاقية والمذهبية، تلك الأخلاق التي هي العمود الفقري، والروح الحقيقية للديانة الإسلامية التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يختم بها دياناته.

وأخيرا، عندي نصيحة، حاولوا رعاكم الله ووفقكم، وكثر من أمثالكم، أن تتفتحوا على اللغات الأجنبية، لتتمكنوا أكثر من المقارنات الفلسفية والقانونية بين الديانات. ولي اليقين أن من قرأ منكم الإنجيل والتوراة، كما وقع لي عندما كنت في المنفى، ولم أكن ألقى ما أشغل به نفسي خلال سنتين ونصف من المنفى، فقرات الإنجيل والتوراة. أولا، قراءة الإنجيل والتوراة جعلتني مسلما أكثر مما كنت عليه، ولكن قراءة الإنجيل والتوراة كذلك قربت بيني وبين إخواني في الله اليهود والنصارى. إذن عليكم أن تتعلموا لغة أجنبية، وذلك تبعا للحديث النبوي الشريف الذي لم يكن صريحا، ولكن يستفاد ذلك منه ضمنيا عندما يقول النبي ﷺ: «اطلبوا العلم ولو في الصين» بمعنى: أنه إذا ذهبتم إلى الصين، ستدرسون العلم باللغة الصينية وليس باللغة العربية. وقبل أن تصلوا الصين لتتقنوا العلم باللغة الصينية، ستمرون على الهند وعلى التبت. إذن، فليست الأجواء الفكرية ولا الجغرافية وحدها التي يجب أن تكتسح من لدن المسلم، بل التعرف على أنشطة فكرية أخرى، وعلى مناخ اجتماعي آخر، وأخيرا على لغة أو لغات أخرى.

إن مقداري الضئيل والمتواضع من العلم، لايسمح لي أبدا، بأن أزيد ولو كلمة واحدة في خطابي هذا، لأنني ربما تجاوزت حدود التواضع، وأريد أن أجازيكم الجزاء الجزيل، على ما قمتم به وعلى ما ستكتبون، حينما ترجعون إلى أوطانكم عن هذه المبادرة التي عرّفت بعضكم عن بعض، وشدت أواصر الأخوة الإسلامية بينكم.

وأملي أن نلتقي السنة المقبلة، ولدينا موضوعان اثنان : .

أولا :

مناهج التربية الإسلامية المبشرة غير المنفرة، تلك التي تطبع الصبي والصبية، منذ أن يبدآ في فهم بعض المسائل.

وثانيا :

مجالا وإشارات، لربط الحوار بين علماء السنة وعلماء الشيعة، حتى يرجع هذا الدين، دين الأخوة كما هو، وحتى نتعايش مع إخواننا الشيعة، كما تعايشنا معهم مدة ألف وثلاثمائة سنة. فالذي جعلنا نتعايش معهم ألفا وثلاثمائة سنة، سيجعلنا قادرين على أن نلتقي من جديد، وأن نخلق الصحوة العميقة الحقيقية للدين الإسلامي الحنيف.

أعاننا الله جميعا وجعلنا عند حسن ظن الجميع، وجعلكم وإيانا في مستوى المسؤوليات الدينية والروحية الملقاة على عاتقنا جميعا.

والسلام عليكم ورحمة الله.

المملكة المغربية
الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الدار البيضاء

الكلمات التي ألقيت في الجلسة الافتتاحية

للجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية

يوم الثلاثاء 6 صفر الخير 1411هـ
موافق 28 غشت 1990م

كلمة

السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

الحمد لله الذي أنزل الكتاب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق، فتمت بفضله صحوة هذه الأمة وحياتها ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون. واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾.

أصحاب السمو الملكي والسعادة والفضيلة، حضرات السيدات والسادة.

يسعدني أن أرحب بكم في هذه الجلسة المباركة السعيدة التي نفتتح بها أعمال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية.

كما يسعدني أن أعبر عن اعتزازي كواحد من أبناء هذا الوطن، وأنا أرى هذا الإقبال من طرف كبار العلماء والدعاة على المشاركة في هذه الجامعة، وأعتبره نجاحا كاملا لها، لأن الحضور في حد ذاته، وما ينتج عنه من تواصل، فيه خير كبير للأمة.

وأرى من الواجب أن أعترف بالفضل لصاحب الفكرة، الداعي إلى هذه الأيام الجامعية، وتخصيصها للتعمق في فهم الصحوة الإسلامية، ودراسة واقعها وآفاقها، وهو

أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني، الذي تنعقد جامعتنا تحت رعايته السامية. فجزاه الله أحسن الجزاء، وأبقاه للعلم والإسلام وللمفاخر والمكارم، وأيد به الصحوة الإسلامية حتى يعم نورها الآفاق، ويشمل خيرها مشارق الأرض ومغاربها بإذن الله ومنه وكرمه.

حضرات السيدات والسادة،

لقد كان الإسلام وما يزال في المغرب هو القاعدة الأساس التي يستمد منها نظام الحكم مشروعيته، لأنه نظام قائم على البيعة، ولقد كان وما يزال أول ركن من أركان هذه البيعة، هو الحفاظ لهذه الأمة على دينها.

ولذلك كان ملوك هذه الدولة ساهرين على شؤون الدين، مخلصين في دعم جهود العلماء، مستمدين سياستهم من تعاليم الإسلام، قائمين بشرع الله أحسن ما يكون القيام.

ولقد كانت البلاد تشهد من حين إلى آخر ما تشهده جميع البلدان من اشتغال بالدنيا عن الدين، أو ظهور بعض البدع والضلالات، فترى الملك يأخذ المبادرة لتصحيح المسيرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان الملوك كثيرا ما يوجهون إلى الأمة رسائل في هذا المعنى، ما تزال خزائن المخطوطات حافلة بها.

وهكذا كانت المبادرة في العمل الإسلامي في المغرب كثيرا ما تأتي من العرش.

وفي عصر الحسن الثاني، رأينا نفس المنهج، فإذا تأملتم رسالته التي وجهها إلى الأمة بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري، والتي سنوزعها عليكم باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية، سترونها وقفة من الوقفات التاريخية في الدعوة إلى صحوة إسلامية حقيقية.

وإذا تأملتم مبادرته في رعاية جامعة القرويين وإحياء الدراسة بجامعها العتيق، وإحياء الكراسي العلمية، وإنشاء دار الحديث الحسنية، وإحياء التراث الإسلامي، وتنظيم الدروس الحسنية الرمضانية واحتضانها في قصره وتحت رئاسته الفعلية طيلة شهر كامل من كل سنة، وغير ذلك من أعماله الجليلة في هذا الميدان، ستلمسون الإستمرارية في سياسة العرش العلوي، وأن هذا البلد فعلا، فيه مسيرة إسلامية أصيلة ومتجددة يقودها ملك البلاد.

وها هو اليوم يواصل مبادرات الخير ويدعو إلى جامعة صيفية للصحوة الإسلامية في الوقت الذي ترتعد فرائص بعض الناس من هذه الصحوة.

وها أنتم ترون في هذه القاعة رؤساء وأعضاء الجمعيات والجماعات الإسلامية في المغرب، يؤكدون بحضورهم أننا في المغرب مجتمعون على خدمة الإسلام في صف واحد

وفي كتيبة واحدة، لا فرق بين أجهزة الدولة وبين التنظيمات الشعبية خلف أمير المؤمنين قائد مسيرتنا الإسلامية جلالة الملك الحسن الثاني.

وإنني إذ أذكر بهذه الحقائق التاريخية، والوقائع الحاضرة، لا أفعل ذلك من باب الثناء الرخيص، أو الدعاية الحكومية، وإنما أسجل حقيقة واقعية، لأستخلص منها أن العمل الإسلامي إذا التقت فيه مبادرة الدولة بتطلعات الشعب، حقق غاياته في أمن واطمئنان، وسلام واستقرار، وثقة وإخلاص. وهذا ما نرجو تحقيقه في جميع بلاد الإسلام إن شاء الله.

إن الصحوة الإسلامية في اعتقادنا، ما هي إلا تنبه في الفكر والوجدان لدى الإنسان المسلم، متجه إلى التفاعل مع العصر تفاعلا إيجابيا يؤثر فيه ،ويحدث التغيير اللازم في سلوك الفرد والمجتمع، وفي بناء المحيط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، حتى يتم الانسجام والتناغم بين السلوك والمحيط والفكر والوجدان.

وهذا التنبه ينطلق من الوحي، ويرجع إليه في حركة دائرية تشمل الكون وتستوعبه، وتضع الإنسان في مكانه الطبيعي ضمن التركيب الكلي المنسجم، الذي أبدع الله عليه الكون بأجمعه.

والصحوة بهذا المعنى، معاناة نفسية وفكرية، يخرج بها الإنسان من دائرة الغفلة إلى دائرة الحضور، فلا يمكث غافلا عن واقعه وعن مستقبله وعن مكانه في الكون، وعن واجبه كفرد في المجتمع الإنساني مكلف بالدفاع عن مبادىء العدل والمساواة والسلم ونشر الفضيلة، بل يتمسك بحضوره كائنا حيا مؤثرا فاعلا في الزمان والمكان، وبانيا للحضارة الإنسانية المحققة لمقاصد الشريعة والمجسمة للمجتمع الجديد الذي جاء به الإسلام.

وإذا كانت هذه بعض معالم الصحوة الإسلامية فإن النزول بها إلى بعض المظاهر السطحية أو وضعها في سوق المزاد السياسي، أو الهبوط بها لتتضارب بها أهواء الشوارع، أو تركها لزعامة العوام وأشباههم، كل ذلك إهدار لقيمتها، وجهل بجلال شأنها، وعظيم أمرها.

لذلك كان من أوجب الواجبات علينا، الاهتمام بأمر هذه الصحوة الإسلامية لا بالوقوف في وجهها، ومحاربة أهلها، وتضييق الخناق عليهم، كما فعلت بعض الجهات

في بعض البلدان، فإن ذلك جهل بالدين، وبالسياسة، وبأبسط قواعد الأخلاق، وأقل مبادىء التعامل الإنساني النزيه.

وإنما يكون الاهتمام بها، باعتبارها عنصرا إيجابيا يمكن الإعتماد عليه في إصلاح المجتمع، بل وفي بنائه على أسس ربانية خالدة، تحميه من الانحلال والفساد، والعنف والإرهاب، والقهر والاستعباد، وتسمو به إلى مستوى المجتمعات الإنسانية المتحضرة.

ويكون الاهتمام بها أيضا، بدعوة العلماء إلى مثل هذه الجامعة الصيفية، التي نحن جميعا ضيوفها، ليتدارسوا أمرها بكيفية علمية وبعمق وموضوعية، وبكل ما عهد في العلماء من حكمة وتبصر، واعتدال وتفتح، وسماحة وحسن تدبر، بعيدا عن الأجواء الخطابية، وعن المهاترات السياسية، وعن الإفتتان بالجمهور ونجومية المنابر، التي أصبحت في بعض الجهات مثل نجومية السينما.

إن الصحوة الإسلامية ظاهرة صحية في المجتمع الإسلامي مَتَى التزمت بمبادىء الإسلام عقيدة وشريعة، وتمسكت بالمنهج الإسلامي كما بلغه وجسّمه سيدنا وقدوتنا ونبينا مولانا محمد ﷺ، وهي خطر على المجتمع الإسلامي، ولا تستحق أن تسمى صحوة إذا زاغت عن هذا الطريق، واتبعت الأهواء والأغراض، والقول في الدين بغير علم، وتكفير الناس، وسلوك مسالك الإرهاب، والمرور في مسارب العمل السري المظلم الخارج عن المشروعية، وغير ذلك من الأمور التي أضرت بالعمل الإسلامي أكثر مما نفعته، وجرّت عليه من الويلات والمصائب مالا يعلمه إلا الله.

فمتى تكون الصحوة الإسلامية ظاهرة صحية وعنصرا إيجابيا ؟ وكيف يتم ترشيدها وتوجيهها الوجهة الإسلامية الصحيحة وتنقيتها من الشوائب ؟ وكيف يتم تعميم خيرها وتحقيق مقاصدها النبيلة، وما هو المنهج والبرنامج والوسيلة لكل عمل إسلامي بناء في الميدان العلمي والاجتماعي والثقافي ؟ وما هو دور المؤسسات الإسلامية في ذلك؟ وهل لهذه الصحوة مستقبل؟ وهل هناك معوقات؟ وكيف يكون تعامل الصحوة مع العالم الغربي وحضارته وإيديولوجياته ... ؟ إلخ.

هذه ـ حضرات السادة ـ بعض الأسئلة التي ستحاول جامعتكم الصيفية أن تجيب عليها، ومعظمها قد اشتملت عليه المحاور التي ستدور عليها العروض والمناقشات.

وأنتم ترون من خلال ذلك، أن الدعوة إلى عقد هذه الجامعة الصيفية على هذا المستوى العلمي الرفيع، من شأنه ـ إن شاء الله ـ خدمة الصحوة الإسلامية خدمة جليلة، تعود بالخير العميم، والنفع العظيم على الإسلام والمسلمين، وعلى المجتمع الإنساني كذلك.

ونظرا إلى أهمية الموضوع، وحتى يتمكن السادة المدعون أن يوفوه حقه من التأمل والبحث، فقد قرر أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني، الداعي إلى هذه الجامعة وراعيها، تمديد أيامها، لتستغرق أسبوعا بدل ثلاثة أيام.

كما قرر حفظه الله وأطال عمره، جعلها في ضيافته، وتحمّل نفقاتها من ماله، والدعوة إليها كل عام في المغرب، ليبقى اللقاء بين العلماء موصولا، والتواصل دائما بإذن الله.

وهذه الرعاية البالغة والعناية السابغة، ليست أمرا غريبا، لا على القصر الملكي في المغرب في ماضيه وحاضره، ولا على جلالة الملك الحسن الثاني، فالقصر الملكي كان وما يزال منطلق العمل الإسلامي ،وبيت العلماء وموئلهم ومعقلهم. والحسن الثاني الملك العالم وواسطة عقد العلماء، دائما في مقدمة المسيرة، يرعى العمل الإسلامي، ويدعمه ويقوده ويحميه.

حضرات السيدات والسادة،

لقد سعينا إلى جعل هذه الجامعة الصيفية ملتقى لرجال الدعوة من جميع أنحاء العالم الإسلامي.

ووجهنا الدعوة أيضا لبعض الباحثين من العلماء المستشرقين الموضوعيين النزهاء، لتأخذ الجامعة بعدَها العالمي، ولتكون فرصة للحوار الحقيقي على المستوى الإنساني، وهيأنا مجموعة من العروض، لتكون أرضية علمية تقوم عليها الجامعة. وخصصنا جلسات في البرنامج لمناقشة العروض، يشارك فيها جميع المدعوين، ولجانا متخصصة لتعميق النظر في المسائل التي جرى حولها النقاش.

وفتحنا الباب للجمعيات والجماعات النشيطة في ميدان العمل الإسلامي في المغرب لتشارك وتستفيد من هذه الجامعة، وأشركناها في الإعداد، فجاء حضورها الفعلي

ومشاركتها الفعالة، تجربة نموذجية في الجمع بين العمل الشعبي والعمل الحكومي في هذا الميدان.

وإننا على يقين، بأن استجابة العلماء من مختلف أنحاء العالم للمشاركة في هذه الجامعة الصيفية، وما يمتاز به المشاركون فيها من مستوى علمي رفيع، ومن تجربة في ميدان الدعوة الإسلامية، سيجعلها إن شاء الله جامعة ناجحة، تؤدي إلى توفير البعد العلمي الأكاديمي لمسيرة الصحوة الإسلامية إلى جانب البعد الإيماني.

حضرات السيدات والسادة،

تعيش أمتنا الإسلامية ظروفا عصيبة، تتفتت لها الأكباد غما وحسرة بسبب أزمة الخليج، لكن الأزمات لا ينبغي أن تفسد علينا كل شيء، بل يجب مواصلة العمل الجاد المثمر في جميع الميادين، نعمل ونحمل هموم أمتنا، ونعبر عن مواقفنا بكل مسؤولية وحزم، وبكل حكمة ويقظة وتبصر.

حضرات السيدات والسادة،

أتمنى لهذه الجامعة الصيفية كامل النجاح والتوفيق، وأشكر ضيوفنا الكرام على تشريفهم لنا بالحضور، وأتمنى لهم مقاما طيبا بين إخوانهم علماء المغرب ورجال الدعوة فيه.

وأشكر جميع السادة الحاضرين الذين ازدان هذا الحفل الافتتاحي بوجودهم.

وأسأل الله العلي القدير، أن يجازي عنا بكل خير، أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني، وأن يديم علينا نعمة وجوده ويحفظه، ويقر عينه بسمو ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد الأمير مولاي رشيد، وسائر أفراد أسرته الشريفة، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة
فضيلة الأستاذ إبراهيم صالح الحسيني
(نيجيريا)
باسم علماء إفريقيا

الحمد لله رب العالمين، الملك الحق المبين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين.

أما بعد،

يشرفني أن أعطى هذه الفرصة، للوقوف أمامكم في هذا المقام، ممثلا علماء إفريقيا، الذين يربطهم بالمغرب أكثر من رباط في القديم والحديث. فقد دأب العلماء من إفريقيا

في القديم على الرحلة إلى المغرب، من أجل التزود بالعلم والمعرفة، فعلى مدى تاريخ المغرب الإسلامي الطويل، وعلى تعاقب دوله المتعددة، فإن العلاقة بينه وبين الدول الإفريقية جنوب الصحراء، لاتزداد إلا قوة واتساعا. وأما في عهد الدولة العلوية، فحدث ولا حرج، فإن احتفاء هذه الدولة بالعلماء، وحملة العلم والثقافة، وأقطاب الفكر، لاينكر، بل ولا يخلو منه زمان، فكم لأمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني من مواقف إسلامية عظيمة، فهو رائد الدعوة الإسلامية وقائدها، وراعيها وحاميها، ولقد امتاز باستيعاب أبعادها وحقائقها، دون سائر ملوك ورؤساء الدول الإسلامية. ومن أراد التحقق من هذا، يرجع إلى تلك الرسالة الجامعة التي وجهها إلى الأمة الإسلامية، في مطلع القرن الخامس عشر الهجري.

وإني إذ أوجه كلمتي هذه القصيرة إلى السادة الحضور أنتهز الفرصة لأتقدم بالشكر والعرفان ـ أصالة عن نفسي ونيابة عن إخواني العلماء في إفريقيا ـ إلى الجناب السامي، إلى جناب مولاي أمير المومنين الملك الحسن الثاني، على إصدار أوامره الرشيدة الحكيمة، بإقامة هذه الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية، فكم لجلالته وأسلافه الكرام من مواقف عظيمة وسامية في سبيل إعلاء كلمة الله، وفي سبيل خدمة الإسلام والدعوة إليه. فقد دعا إلى الكثير من تلك الندوات العظيمة، كندوة الإمام مالك، وندوة القاضي عياض، وندوة البيعة والخلافة في الإسلام، وندوة الطرق الصوفية، وغير ذلك من المواقف التي سجلها له التاريخ في صفحات من نور.

إن الحديث عن الصحوة الإسلامية من حيث التعريف اللغوي أو المنطقي، ليس من شأني في هذه الكلمة الموجزة، إذ أن ذلك مما سنستمع إليه في الأبحاث التي يعرضها المتخصصون في أبحاثهم، حول محاور هذه الجامعة، ولكن الذي يهمني، هو التأكيد على وجوب تركيز الأمة على رعاية وحماية الصحوة الإسلامية من الإحباط، والدعوات المعارضة، والاتجاهات المضادة. فإن الصحوة لم تعد الآن ملكا للعلماء وحدهم، بل أنها الآن أصبحت واقعا يعيشه ويتفاعل معه جميع الشعوب الإسلامية.

فإذا أردنا لهذه الصحوة أن تبقى ونصل عن طريقها إلى تحقيق ثمار الجهاد المرجوة، يجب أن نؤكد على انتمائنا وولائنا لديننا بصدق، وبذلك نستطيع الوفاء بواجب هذا الدين

علينا في مقاماته الثلاثة: إسلاما، وإيمانا، وإحسانا، وبذلك نتأكد من اكتشافنا لذاتية الأمة الإسلامية، والتمسك والإعلان بالهوية الإسلامية بكل شجاعة.

وتحقيق هذه الأمور كلها، يمكن في العودة إلى النص الإسلامي (قرآنا وسنة)، والتمسك به وفهمه فهما صحيحا واحترامه بالوقوف عند حدوده، والدعوة إليه. وهذا هو الضمان لقيام وحدة إسلامية شاملة، تكون أساسا لخلق قيادات إسلامية، تتميز بالأهلية والكفاءة، جديرة بالنهوض بالأمة، والوصول بها إلى مستوى القيادة في جميع الميادين.

ذلك لأن احترام النص الإسلامي، هو سر نجاح السلف الصالح على اختلاف عصورهم ومذاهبهم، فالتناقضات والفرقة التي تنتشر في العالم الإسلامي بين مختلف الفئات العاملة في مجال الدعوة والعمل الإسلامي، من أكبر العوامل التي تصيب الصحوة بالتبخر والإحباط، فالمفاهيم الإسلامية واضحة، فالإسلام والإيمان والإحسان والدين والكفر والشرك والنفاق والردة وما شابهها، هي كلمات لها مفهوم في الإسلام لغة واصطلاحا، ولا يجوز تحريفها، أو تحويرها، أو الخروج بها عن سننها، وإلا باءت جميع مجهوداتنا بالفشل.

وختاما، أتوجه بالشكر - أصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع علماء إفريقيا - لجناب صاحب الجلالة أمير المومنين مولانا الملك الحسن الثاني.

كما أتوجه بالشكر لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وعلى رأسها السيد وزير الأوقاف والإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري والسيد الكاتب العام للوزارة والسيد مدير الشؤون الإسلامية، كما أتوجه كذلك بالشكر والعرفان للشعب المغربي كله على حسن الاستقبال، وكرم الضيافة والحفاوة، التي أولاها لنا منذ أن وطئت أقدامنا تراب مغربنا الحبيب، وكذلك أتوجه بالشكر لهذه الوزارة، لما عودته لنا من الدعوات المتكررة لمثل هذه المناسبات، في الندوات واللقاءات العظيمة المختلفة.

وختاما، أستسمح الإخوة الأفارقة عذرا، إذا لم يتسع لي الوقت لاستعراض جميع المناطق التي يمثلونها، فذلك لضيق الوقت، وشكرا للجميع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة

فضيلة الشيخ محمّد المكيّ النّاصري

الأمين العام لرابطة علماء المغرب
ورئيس المجلس العلمي الاقليمي للعدوتين

باسم رابطة علماء المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم.

أصحاب المعالي وزراء صاحب الجلالة، وأصحاب السيادة رجال السلطة الكبار: سيادة الوالي، وعمال الدار البيضاء الكبرى، أصحاب الفضيلة ضيوف المغرب من رجال

إنني لسعيد كامل السعادة، بهذه الكلمة التي دعاني إليها معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، لأحيي هذا الجمع الكريم والملأ العظيم، باسم علماء المغرب.

حضرات السادة،

بعد ما تحدث معالي الوزير، وقدم أمامكم معالم هذه الجامعة الصيفية، وأهدافها الإسلامية، ووضح إلى أي حد بلغت رعاية سيد البلاد أمير المومنين الحسن الثاني لها والعطف عليها إلى حد كبير يدهش القلوب، ويشرح الصدور، أجد نفسي في غاية الانفعال والتأثر، كعالم من علماء المغرب، كان دائما يتمنى ويرجو لهذا البلد المسلم، أن يخطو خطوات إلى الأمام في ترسيخ كيانه، وتدعيم إيمانه.

فهاهي حضرات أصحاب الفضيلة العلماء، الفرصة الذهبية التي أتاحها لنا جميعا سيد البلاد، أمير المومنين الحسن الثاني، لنجتمع في هذه الجامعة الصيفية على كلمة سواء، بجانب إخواننا رجال الدعوة الإسلامية، وممثلي العلماء في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. هذه هدية كبيرة قدمها أمير المومنين لشعبه المغربي المومن، وهي أكبر منقبة تضاف إلى مناقبه التي طالما أغدقها على أصحاب الفضيلة العلماء.

لقد كان أمير المومنين الحسن الثاني، هو الرئيس المسلم الوحيد، الذي كان يشغل باله ما سيواجهه العالم الإسلامي في بداية هذا القرن، فوجه إلى العالم الإسلامي كله رسالة القرن، في أول يوم من حلول القرن الخامس عشر الهجري، رسالة وضح فيها وشرح فيها ماضي الإسلام وحاضره وما يتطلع إلى مستقبله، ووضح فيها وسائل النجاح وأسباب التراجع إن لم يأخذ المسلمون بتلك الأسباب.

ولم يكد يمر عقد، العقد الأول من هذا القرن الخامس عشر الهجري، حتى أخذ العلماء والدعاة والدعاة إلى الله، يجول في خواطرهم أنه جاء الوقت لأن يلقي العلماء والدعاة إلى الله نظرة فاحصة على مكتسبات هذا العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجري. لنراجع المكاسب، ولنراجع كذلك إذا كانت هنالك هزات أو نكسات، فمن لم

يهتم بأمر المسلمين فليس منهم. وما كاد هذا الخاطر يروج في بعض الأذهان، حتى وجدنا أمير المومنين الحسن الثاني هو الرائد الأول في نفس المعركة، هو الذي يفكر ويدبر، ويدعو إلى انتهاز هذه الفرصة، واستدعاء رجالات الدعوة الإسلامية ليتدارسو مع علماء المغرب وضعية العالم الإسلامي، وما وصلت إليه هذه الصحوة الإسلامية التي كثيرا ما تحدث عنها الناس، هنا وهناك، ما بين محبذ وما بين منتقد، وما بين مناصر وما بين معاد ومخاصم.

هاهي الفرصة تأتي ببادرة من جلالة الملك الحسن الثاني أمير المومنين، لايبحث علماء المغرب وحدهم، منعزلين عن إخوانهم من بقية العالم الإسلامي في هذا الموضوع الخطير، بل ليكونوا بجانب إخوانهم حتى تتم النظرة، وتتضح الرؤية، ويبدو وضع الصحوة الإسلامية في حاضرها، وما يمكن أن تكون عليه في مستقبلها، لتتدارس جميعا كمسلمين، كدعاة إلى الله، كعلماء ينتسبون إلى الوارثة النبوية الكريمة، هذا الموضوع الخطير الذي هو موضوع الساعة، والذي هو الشغل الشاغل لكافة المسلمين في أطراف الأرض، لأن الضمير الإسلامي من جميع جهات المعمور لا يزال مستريح، لا مطمئن الاطمئنان الكامل، بل يخشى على هذه الصحوة أن تنتكس، ويخشى على هذه النهضة أن تتراجع.

فاجتماع كهذا الاجتماع، ولقاء كهذا اللقاء، تحت رعاية أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني، وبتشجيعه، وبهذا الأسلوب الجامع، المفتوح للجميع، لشباب الدعوة ولشيوخها، لرجالات المغرب ورجالات العالم الإسلامي، هذا الجو الأخوي الصريح الحر، الذي ينتظر أن تعالج فيه هذا الموضوع، لنخرج منه بنتائج حاسمة، ولنكون على بضيرة وبينة من حاضرنا ومستقبلنا.

فجزى الله أمير المومنين الحسن الثاني كل خير، وأعاننا الله تعالى ووفقنا لأن نكون في مستوى هذه الرعاية، وفي مستوى هذه الثقة، ولنخطو خطوة إلى الأمام إن شاء الله.

وإننا لنرجو فوق ذلك مظهرا. فباسم علماء المغرب، ونيابة عنهم، أقدم الشكر من هذا المنبر، لأمير المومنين راعي هذه الجامعة، والمفكر فيها وفي إعدادها.

كما أتوجه بالشكر إلى معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، الذي لايبخل بأي جهد، ولا بأي مبادرة كلما تعلق الأمر بإبراز المشاريع الإسلامية، التي يرعاها جلالة الملك في أحسن حلة، وأبهج شكل.

وفقنا الله وإياكم، ومرحبا بضيوفنا الذي هم في بلدهم الإسلامي إخوانا في الله، لا يبتغون إلا رضى الله، والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة
فضيلة الشيخ محمّد الحافظ النحوي
(موريتانيا)
باسم علماء دول المغرب العربي

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أصحاب المعالي الوزراء، أصحاب الفضيلة العلماء،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، سلام قولا من رب رحيم، وتحية طيبة من الله مباركة، في هذا البلد المبارك، في هذا اليوم المبارك، في هذه الجامعة المباركة.

وبعد، فعلينا أن نتذكر ـ باديئ ذي بدء ـ قول المولى جل وعلا: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا**﴾. ونتذكر كذلك قول المولى جل وعلا: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله**﴾. ونتذكر قول المصطفى ﷺ: «مثل المومنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». ونتذكر قول المصطفى ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله وسنتي».

انطلاقا من هذه الآيات البينات، ومن هذه الأحاديث الراسخة في الهدي النبوي الشريف، علينا أن نستنشق روح المسيرة الإسلامية التي تجسدها بصدق ووفاء، هذه المبادرة القيمة تحت الرعاية السامية لأمير المومنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله ونصره.

إنه لا يسعني ـ باديئ ذي بدء ـ إلا أن أعبر هنا عن عظيم الشكر والامتنان، ووافر التقدير والعرفان، لهذه المبادرة العظيمة، التي جمعت علماء المسلمين في ظرفية خاصة يعيشها العالم الإسلامي، بل يعيشها العالم كله، وليس من الغريب أن تأتي هذه المبادرة ـ كما أشرتم إليها معالي الوزير ـ من صاحب الجلالة أمير المومنين، فإذا نظرنا نظرة تاريخية، نجد أن الدولة العلوية كانت ولا تزال تسعى إلى تجسيد الاهتمام بأمور الإسلام، وأمور الدعوة إلى الله عبر العصور، وعبر الحقب التاريخية، والباحث التاريخي الممعن النظر، يعرف أن هذا الاهتمام ظل قاسما مشتركا لسياسة الدولة العلوية منذ نشأتها إلى يومنا هذا، فإذا تذكرنا قول القائل في السلطان مولاي إسماعيل:

فتى يسع الدنيا كما هي صدره　　فأمسى به صدر الديانة مندحا

أو قول الشاعر الآخر في السلطان مولاي عبد الرحمان:

عمرت من عهد الشريعة ما با ض النعام بدور منه أدارس

مالت دعائمها فاستحكمت «فاستأسست» من فوق أساس

وإذا تذكرنا في هذا العهد الحديث قول الشاعر يخاطب أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني:

أنت الذي إن قلت حيرت الورى وأخذتهم بفصاحة وبيان

فإذا سلكت سلكت نهج محمد وإذا نطقت نطقت بالقرآن

يتجلى لنا جيدا، أن هذه الوتيرة، وتيرة ثابتة في السياسة الإسلامية لمن يهتمون بأمور العمل الإسلامي، في هذا البلد العريق في الحضارة الإسلامية، وفي العطاء العلمي المتواصل، وعلى ذلك لا يسعنا إلى أن نثمن هذه المبادرة القيمة، وأن نسأل الله تبارك وتعالى استمرارها، وأن نتوجه إلى المولى جل وعلا، ليكون هذا اللقاء لقاحا، ولتكون ثمرة هذا اللقاء، زيادة واضحة للعطاء العلمي والإيمان في صرح هذا البلاد، وفي صرح الأمة الإسلامية ككل.

أيها الإخوة المومنون،

إن هذه الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية، تنعقد في ظرف خاص يعيشه العالم الإسلامي ككل، وإذا تدبرنا التحديات المختلفة التي تواجهها الأمة من أعداء الإسلام، وما يقوم به هؤلاء الأعداء من مناورات ضد المد الإسلامي، وما يسعون إليه من توقيف المد الإسلامي، متجاهلين بذلك قول الحق سبحانه وتعالى: **﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾**. وتأملنا هذه التحديات المختلفة، نرى أن الأمة الإسلامية يهددها خطر عظيم، ويتجلى هذا الخطر في الفتن التي باتت تهدد العالم شرقا وغربا، وهذه الفتن تظهر بشكل أو بآخر في العالم الإسلامي وفي غير العالم الإسلامي. فظاهرة أوربا الشرقية، فتنة كبيرة، كلنا يعرف المنطلقات التي أتت منها، وما نتج عنها من فساد، والظواهر التي تسود في مناطق العالم الإسلامي، من الشمال إلى الجنوب، هي كذلك برهان واضح على ما يسعى إليه أعداء الإسلام، لحد المد الإسلامي في كافة المناطق إن

تمكنوا إلى ذلك، ولكننا على يقين أن وعد الله سبحانه وتعالى منجز حيث يقول: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئا﴾. هذا الوعد من الله تعالى، وعد صادق ومنجز، إن تمسكنا به، وإن زرعنا في قلوبنا ثقة الإيمان بالله تبارك وتعالى، والاعتماد عليه، فمناورات أعداء الإسلام أيا كان، فمصدرها سواء كان التكتل الصهيوني، أو الحملات التنصيرية أو التبشيرية أو غيرها، واضحة في الأفق، وأعداء الإسلام لا ينامون، وهم يقفون بالمرصاد لكل ما يسعى إليه المسلمون، وعلى المسلمين أن يدركوا ذلك عن وعي وإيمان وثبات، فإذا تذكرنا ما جرى في العام المنصرم، على مقربة منا، بين إفريقيا الشمالية وإفريقيا الجنوبية، وإذا تذكرنا ما كان يسود في هذا المناخ من الوئام والتعايش السلمي بين المسلمين، وإذا تدبرنا تلك الأحداث الأليمة التي جرت بين شعبين مسلمين، ودولتين جارتين شقيقتين: موريطانيا والسنيغال، نعرف أن أعداء المد الإسلامي، يسعون بكل وسيلة إلى توقيف المد الإسلامي من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال. ولا شك أن دور اتحاد المغرب العربي في هذا المضمار، ودور علماء المسلمين في هذا الاتحاد، وعلماء المسلمين في كل مكان، دور أساسي للحيلولة دون تفاقم الأزمات. ولعودة الأمور إلى مجراها السليم، دور التبادل العلمي بين المشرق والمغرب، فهذا الدور تسعى القيادة الموريطانية، ويسعى الشعب الموريطاني بكامله إلى الحفاظ على استمرارية في كل الظروف، ورغم كل التحديات، ورغم كل مناورات أعداء الإسلام والمسلمين ﴿ويأبى الله﴾ كما ذكرنا وأشرنا في هذا وفي غيره: ﴿إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

إننا كذلك لا يسعنا إلا نتذكر ونتدبر ما يجري حاليا في منطقة حساسة من مناطق العالم الإسلامي، الأزمة التي أشرتم إليها معالي الوزير أي: أزمة الخليج، ونسأل الله تبارك وتعالى مبتهلين ضارعين، أن يحقن دماء المسلمين، وأن يوفق الأمة الإسلامية قادة وشعوبا إلى التدارك، وأن ينظر إليها بعين الرعاية والعناية. وعلى كل، فلا يمكن لمشاكل المسلمين أن تحل إلا بالمسلمين لا بغيرهم، ولا ينبغي تدخل غير المسلمين في أمور المسلمين، فأمام المسلمين حكم واضح تركه تبارك وتعالى بينهم إلى يوم الدين، ألا وهو كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، فعلينا أن نعود جميعا إلى تحكيم كتاب الله وسنة

رسوله ﷺ لحل النزاعات الإسلامية، بعيدا عن الضغوط الغربية، وبعيدا عن ضغوط أعداء الإسلام، وبعيدا عن تدخلاتهم، إنهم لا يمكن أن يكونوا يوما من الأيام مناصرين للإسلام، ولا حلفاء له. فالفرق شاسع، وهو الفرق بين الحق والباطل، بين النور والظلام، وعلينا أن نعود إلى كتاب الله، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولن نستعيد أمجاد الأمة الإسلامية إلا بالعودة إلى كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ.

فعلى هذا لا يسعنا إلا أن نثمن من جديد هذه المبادرة القيمة، بتنظيم جامعة صيفية للصحوة الإسلامية، تضم عددا جليلا من علماء المسلمين من شتى الأقطار. ولا شك أن لقاء هؤلاء العلماء ونقاشاتهم وأفكارهم، ستساهم ـ بدون شك ـ في بلورة خط إسلامي لمفهوم الصحوة، والصحوة مفهومها أن تكون صحوة في المفاهيم، صحوة في القلوب، صحوة في السلوك والأخلاق، صحوة في النظر إلى العلاقات الدولية بين كافة الدول وبين الالتحام بين صفوف المسلمين على كافة المستويات.

أرجو من الله تبارك وتعالى أن تتكلل هذه الجهود بالنجاح، وعلى يقين أنها ستتكلل ـ إن شاء الله ـ بالنجاح، نظرا لما فيها من صدق نية ووفاء وإخلاص.

وأختم هذه الكلمة، بتوجيه الشكر إلى معالي وزير الأوقاف، العالم، العلامة، الدكتور عبد الكبير العلوي، لما تقوم به وزارته الموقرة ومعاونوه البررة، من جهد دائم، ومتواصل، تجلى في تنظيم الندوات المختلفة، التي حضرنا بعضها وسمعنا عنها: ندوة خطباء الإسلام، ندوة الإمام مالك، ندوة القاضي عياض، ندوة الطريقة التيجانية، إلى غير ذلك من الملتقيات التي تتيح فرصة أمام علماء الإسلام، والتي تجسد بجلاء سياسة أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله في رعاية الإسلام، والدعوة إلى الله.

والله أرجو أن يوفق قادة المسلمين إلى ما فيه الخير والرشاد. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

●

كلمة
فضيلة الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي
(سوريا)
باسم علماء الدول العربية

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

السادة معالي الوزراء، السادة أصحاب السلطة والمسؤولية في هذا البلد الإسلامي العريق، السادة العلماء والضيوف الأجلاء.

الشكر أولا لله عز وجل، الذي جمعنا في هذا المكان، على محور الإيمان بـه والعبـوديـة له، والنهوض بأكرم مسؤولية شرف الله عز وجل بها أكرم مخلوق، ثم الشكر بعـد ذلك، لجلالة الملك الحسن الثاني المعظم، أيد الله به الإسلام، وأعز الله عز وجل به المسلمين، والشكر من بعد، للسيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، وصحبـه الأبـرار المخلصين، على هذه المسيرة الراضية المتجهة إلى مرضات الله عـز وجل. ومـا شكـرنـا لجلالـة الملك وللسادة المسؤولين إلا فـرع من شكـر اللـه عـز وجل، أو لم يقل المصطفى عليـه الصـلاة والسلام في الحديث الصحيح: «لم يشكر الله من لم يشكر الناس.

أيها السادة،

لن أتكلم في شيء مما يتعلق بمعاني الصحوة أو تحليلها أو أبعادها، فذلك ما سنصغي إليه من بعد إن شاء الله، ولكني أحب أن أركز على بعض النقاط أو الخطـوط العـريضـة الهامة التي لا أرتاب في أنني أعبر بها عن مشاعر سائر الإخوة العلماء، بل عن مشاعر كل مسلم يسعى جاهدا إلى الدعوة لدين الله عز وجل، في هذا العصر، أريـد فقط أن ألفت نظري ونظر السادة المجتمعين في هـذه القـاعـة، إلى جـانبين بـارزين من أهميـة الصحـوة الإسلامية.

الأهمية الأولى: تبرز من خلال تصور كثير من الناس، أن الصحوة الإسلامية نعمـة، وأنها لا تستدعي من المسلمين إلا الاغتباط، وإلا الحديث الإيجابي عنها، وإلا الركون إلى نوع من الدعوة، نظرا إلى أن الصحوة الإسلامية قـد جـاءت فـانتشلتهم أو ستنشلهم عما قريب، مع أن الأمر ليس كذلك أيها الإخوة. إن رعاية النعمة لـدى إقبـالها، والقيـام بما يتعلق بحراستها، أخطر بكثير من ملاحقة النعمـة لـدى إدبـارهـا، إن النعمـة إذ تقبل، تحتاج إلى سهر دائب، وإلى رعاية مستمـرة، وإلى عين تتجـه ذات اليمين وذات الشمال، للنظر إلى من يريدون أن يتربصوا بهذه النعمة، وإلى المكايد التي يخططون، يخططـونها من أجل القفز والتربص بها، إن هذه الصحـوة تحتـاج إلى جهـود من نـوع معين، تحتـاج إلى رعاية لها، وسهر عليها.

تلك هي الأهمية الأولى التي أحب أن ألفت نظري وأنظار الإخوة إليها.

الأهميـة الثـانيـة أيها السـادة: أنني أرى أن من الضروري أن نتكلم عن الآفـات التي

تتربص بالصحوة الإسلامية، أكثر من أن نتكلم عن حجم هذه الصحوة بحد ذاتها. ذلك لأن أعداء هذا الدين، يقفون لهذه الصحوة على مستوى الحكام، وعلى مستوى الشعوب، إن الأعداء التقليديين لهذا الدين، لا يجابهون هذه الصحوة الإسلامية كشعوب وأفراد، بل يجابهون هذه الصحوة أولا كقادة وحكام، بكل ما معهم من طاقات معنوية ومادية، وما شعوبهم إلا عسكر من ورائهم، وما شعوبهم إلا جنود ينفذون مخططات أولئك الأعداء على درجة الحكام والقادة أولا، ثم على درجة من يتبعهم من شعوبهم ثانيا، فينبغي أن يكون حراس هذه الصحوة أيضا على المستوى ذاته، ينبغي أن يكون حراس الصحوة الإسلامية الحكام المسلمين الذين يجابهون أولئك، ثم ينبغي أن يكونوا ممثلين في الشعوب الإسلامية عامة، والذين شرفهم الله سبحانه وتعالى خاصة. واعذروني أيها الإخوة إن قلت لكم إن هذه المعادلة لم ترق إلى مستوى التناظر التام بعد، إن هنالك حركات جاهدة ومجاهدة، من أجل إنضاج هذه الصحوة الإسلامية، ومن أجل الصعود بها إلى المستوى اللائق، ولكن هذه المساعي تحتاج، تحتاج إلى أن تتوج بجهود القادة المسلمين، بجهود الحكام المسلمين، تحتاج أن تتوج بهذه أكثر مما توجت بها إلى هذا اليوم. ولئن كنا نرى أن هذه الصحوة تخب آنا وتقف آنا، ونراها تتصدع هنا، وتظهر فيها الثغرات هناك، فإن مرد ذلك في نظري إلى أن هذه الصحوة لم تتوج بهذه الرعاية التامة بعد.

ولا شك، أن علي بهذه المناسبة، أن أكرر الشكر لجلالة الملك الحسن الثاني المعظم، لأن هذه الخطوة، هي الخطوة الثانية التي أتكلم عنها، بل هي الأولى في الأهمية، ينبغي أن تتوج الجهود الشعبية التي ترعى الصحوة الإسلامية بحراسة من هذا القبيل، وينبغي أن ترقى هذه الحراسة إلى مستوى عملي جاد من التفاعل بين هذين الطرفين، أحب أن أقول لكم أيها الإخوة، إن الغرب اليوم، لا يأبه بمواقف علمية يقفها رجل مثلي، لا يقيم وزنا لمنطق يقوى أن يظهره ويبلوره إنسان قادر على المحاكمة والحوار والنقاش، وإنما يأبه الغرب ويقف، بل ترتعد فرائصه عندما يجد قائدا من القادة المسلمين، حاكما من الحكام المسلمين يوالي على نفسه، ويعاهد بصدق ربه سبحانه وتعالى أن يحصن هذه اليقظة الإسلامية، وأن يضرب جذورها لا في التربة الإسلامية فقط، بل يمد لها جذورا إلى تلك الأرض الظمأى، تلك الأراضي الأخرى المحيطة من حولنا، هذه الجهود هي التي ترعد فرائص أولئك الناس، المنطق النظري لا يفيد شيئا، القوة هي التي تتكلم اليوم.

وإنني لأذكر موقفا لابد أن أستشهد به في هذا المقام، معاون وزير الخارجية الأمريكي «مورفي» زار سوريا أخيرا قبل عدة سنوات، والتقى مع رئيس جمهورية البلد العربي السوري، وقال له فيما قال: «ألا ترون أن المسلمين الأصوليين قد عادوا يكثرون في بلادكم». قال له السيد الرئيس: إننا لا نخشى من المسلمين الأصوليين، بل إننا بحاجة إليهم، ذلك من أصول الإسلام: القرآن والسنة، فمن تمسك فعلا بأصول الإسلام القرآن والسنة، فلابد أننا بحاجة ماسة إلى التعاون معه، ثم قال: أصدقك القول يامستر مورفي، أنني أصبحت أعتقد أن مشاكل الشرق الأوسط عامة، ومشكلاتنا في هذا البلد خاصة، لا يمكن أن تحل إلا من خلال الإسلام الأصولي. قلت له والكلام للسيد الرئيس، كيف جابه هذا الكلام؟ وكيف استقبل هذا الحديث الذي أظن أنه حديث مفاجئ بالنسبة له؟ فقال: «لقد خيل إلي أن صاعقة وقعت عليه، ولم أعد أعرف له لونا يثبت على وجهه».

هذا هو محل الشاهد فيما أقول، لو أن إنسانا مثلي وقف يكافح عن الحق، ويجادل عن الإسلام أمام «مورفي» وأمام رئيس «مورفي» لما غير كلامي من موقفه قط، ولما سرى من هذا الكلام أي شعور بمخافة أو رهبة إلى كلامه قط، لكن عندما يسمع كلاما من هذا القبيل، من إنسان يمسك بزمام حكم، ويشعر أنه جاد فيما يقول، يتخذ لذلك حسابا عظيما جدا.

هذه هي النقطة الثانية التي تبرز لنا أهمية رعاية الصحوة الإسلامية.

ومرة ثالثة وأخيرة أقول: بعد الشكر لله سبحانه وتعالى الذي تصب جميع فروع الشكر في جذع الثناء عليه، بعد ذلك مرة أخرى، أشكر لجلالة الملك المعظم، أمير المومنين، هذه المبادرة، وأسأل الله عز وجل، أن يجعل منها شعارا جادا، تطبيقا لتفاعل مبارك جاد، يقوم بين الشعوب الإسلامية التي تسعى من أجل إنضاج هذه الصحوة الإسلامية، وبين قادة هذه الشعوب الذين لا يمكن أن يستطيعوا الوصول إلى غاية مباركة لهم، إلا إذا كانوا بقيادة قادتهم وحكامهم على هذا الطريق الذي يرضي الله سبحانه وتعالى.

أقول قولي هذا ،وأستغفر الله لي ولكم، وأشكركم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة
فضيلة الشيخ الدكتور أحمد ديدات
(جنوب افريقيا)
باسم المجموعة الإسلامية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر﴾.

السيد الرئيس، إخواني، أصحاب السماحة العلماء:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم،

إني جد ممنون لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني على إتاحة هذه الفرصة، للمشاركة معكم، وللبحث في بعض الأفكار المتعلقة بالصحوة الإسلامية، هذه الصحوة التي انطلقت من قبل منذ 14 ألف سنة من الصحراء، ونستدل بذلك بسورة المدثر: ﴿**يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر**﴾.

هذا يبين لنا كيف أعد الله سبحانه وتعالى نبيه عن طريق جبريل عليه السلام، أن ينهض ليبلغ الناس وليبث رسالته في الإنسانية، وقام بواجبه خير قيام. هذه الرسالة التي تعدت كل الحدود، كما أنه من شمال إفريقيا، قام أمير مسلم، وركب جواده ووصل إلى المحيط الأطلسي، وحين وضع فرسه قوائمه في الماء قال الأمير موجها الكلام لله سبحانه وتعالى: «والله لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر من يعبد غير الله لوصلته بجوادي هذا»، بل وأن المسلمين عبروا مضيق جبل طارق، ورسوا سفنهم، وليس لهم في تلك الفترة إلا الصبر والصدق، وكانت العزيمة، ونهضت الهمم ودخلوا إسبانيا فاتحين، ولبثوا فيها ثمانمائة سنة، ولكن بعد هذا التاريخ كله أخرجوا، بل وحتى آخر مسلم يعبد الله، فحين لا يقوم المسلم بواجبه فهذا مصيره، فقد أنذرنا الله سبحانه وتعالى حين قال: ﴿**كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين**﴾.

هكذا كانوا يتربصون بالمسلمين، وينتظرون ثمان قرون لإخراجهم من الأرض لفسادهم، وقد تمكنوا من ذلك، فالمسلم حين لا يقوم بواجبه يأتي الله بقوم آخرين لا يشبهونهم في شيء وانتظروا ثمانية قرون ﴿**حتى يأتي الله بأمره**﴾ إنهم لم يقوموا بواجبهم الديني، فاغتصبت منهم الشعوب الأخرى أرضهم، أخذ الإسبان الأندلس، كما نهب الفرنسيون والإنجليز أرضنا، هذا أمر الله ﴿**وإن تتولوا قوما يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم**﴾ ولكن الحمد لله، بعد أربعين سنة خرج الفرنسيون من هذا البلد، وأخذ التاريخ الصحيح مجراه، وأخذ يعيد نفسه، وأستطيع أن أرى العلاقة أنها هذا

الإنجاز الهام لمسجد على مشارف البحر، قد تكون النقطة التي وضع فيها الفارس المسلم قوائم فرسه لفتح إسبانيا، قد تكون النقطة هي الدار البيضاء، لِمَ لا. إلا أن هذه المرة ليس هناك مجال للقذائف ولا للبندقيات، بل للفكر الثاقب. ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله**﴾ نعم أن يظهره على كل الأديان البوذية. المسيحية واليهودية، هكذا تؤكد هذه الآية، أنه ستكون الصحوة رغما عنا، إلا أن الله سبحانه وتعالى، أعطانا فرصة، أعطانا المعرفة بهذا الدين لنتعامل، أن نغير أفكار الآخرين لا بالبنادق بل بالمسجد. إذن، إنه يجلب السياح، إذن فهم يزورون المساجد في تونس، ويزورون المسجد الإسلامي بواشنطون، يأتون إلى أبوابنا، إن الله سبحانه وتعالى يقودهم إلينا، إنك لا تبحث عنهم، ولكنهم يأتون إلينا، إنهم ينبهرون بكل شيء في المسجد، بالمصابيح الآتية من إسبانيا، والشعب الآتي من الدانمارك، إلخ. انظر إذن إلى هذا المزيج.

ماذا نعمل إذن نحن في جنوب إفريقيا في أرض الايارتايد، لقد بنينا عددا كبيرا من المساجد رغم قلة عددها بمالنا الخاص، وبنينا مدارس، ونحن فخورون بأننا نملك أكبر مسجد في الجنوب في المدينة التي أنتمي إليها، مما يجلب الزوار حين نرحب بهم على شرط أن يزيلوا أحذيتهم عند دخولهم إليه، إن في إزالة الحذاء أمر، حيث يتساءل: لماذا نزيل الحذاء؟ ومن طبيعة الإنسان أن يسأل لماذا؟ إذن الجواب هو أن الأرض سيطأها كما فعل الرسل من قبل لدخول الأرض المقدسة، هذا ما يشير إليه نص في التوراة، لهذا نحن المسلمين، نزيل أحذيتنا لدخول المسجد، هذا هو الجواب، لأن جل الزوار يهود أو مسيحيون، هكذا سيفهمون إذن، أن إزالة الحذاء يرجع إلى أن موسى وهارون قد نحلا أيديهما ورؤوسهما، وكذلك تهييء النفس للصلاة هو أيضا نظافة، هذا ما نجيب به على تساؤلاتهم، أما السجود فنجد كذلك موسى وهارون وعيسى يسجدون إلى الله (ثم يتلو نصا من التوراة).

لهذا الغرض، أقترح على وزارة الأوقاف المغربية أن ترسل لي تسعة شبان، على أن يكونوا ثلاثي اللغة، وأن يكون النقل والإقامة على حسابي الخاص، وألح على ثلاثي اللغة، فلكم ثنائي اللغة، ستضاف فقط اللغة الإنجليزية ليتلقوا تدريبا، وحين يعودون إن شاء الله، يتم إرسالهم إلى فرنسا للتعامل مع غير المسلمين، وإضاءة طريقهم، ونكون بذلك قد طبقنا شريعة الله.

وأعود لأشكر السيد وزير الأوقاف على كل ما قدم لنا، وأشكر أمير المؤمنين على استضافته لنا أبقاه الله ذخرا للإسلام، وأطال عمره لخدمة هذا الدين، وأن يتيح لنا مثل هذه اللقاءات، وهذه المرة إن شاء الله، نكون قد جندنا جنودا لفتح الغرب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كلمة

الأستاذ ميكل كروز هرناندیس

(اسبانيا)

باسم الأساتذة المستشرقين

معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، أصحاب المعالي، السادة العلماء، سيداتي سادتي.

باسم المجموعة التي أنتمي إليها، سوف أقدم في بداية الأمر، تحياتي إلى صاحب الجلالة، ملك المغرب، كما أقدم تشكراتي لوزير الأوقاف والشؤون الإسلامية ومساعديه،

(*) تناول الأستاذ كلمته في الجلسة الختامية للجامعة باللغة الفرنسية

على استدعائهم لنا لحضور هذا الاجتماع بين العلماء، كما نعبر لكم عن ارتياحنا لوجودنا بينكم.

وبعد حمد الله تعالى، سأدلي ببعض الأفكار حول موضوع هذه الندوة، وأعتذر عن التدخل باللغة الفرنسية، والتي لا أجيدها.

في بداية الأمر ـ كما تعلمون أحسن مني ـ يعتبر الإسلام منبع الخلاص لكل البشر، وهو أيضا ماء عذب ينعش التقدم الثقافي للإنسانية.

من وجهة نظر الثقافة والفكر، كان للإسلام دور في قيادة العالم خلال العصور الوسطى.

وللتحدث عن موضوع أعرفه جيدا، ألا وهو «الفكر» أقول : إن الإسلام كان بمثابة الطريق الذي أدى إلى تطور العلوم والمعارف الشرقية واليونانية، وذلك بفضل ما حمله من أفكار جديدة.

وهكذا نجد في المشرق والمغرب، عباقرة كالرازي وابن الهيثم والبيروني وابن حزم وغيرهم.

في العلوم : نجد الفارابي، ابن سينا، ابن باجة، ابن رشد.

في الفلسفة : نجد إمام الحرمين القسطلاني، ابن تيمية.

في النصوص : نجد البسطامي، ابن عربي، المرسي.

فالعالم الإسلامي والعالم الغربي مدينان بما حققناه من تقدم لهؤلاء المفكرين.

وأعتقد أن العالم الغربي، يرى أن كل هذا مجرد تاريخ، لأن العالم المعاصر لا يهتم إلا بالتقدم التقني. وابتداء من القرن التاسع، بدأ التفكير في التخلي عن كل ما ليس له صلة بالجانب الروحي للإسلام، لكن الإسلام، كما تعلمون، ليس له نفس بنية المسيحية، والفكر العقلاني الغربي لا يمكن نقله إلى العالم الإسلامي، لهذا السبب، فإن العالم الأوروبي والأمريكي لا يفهمان تماما المجهودات التي نقوم بها نحن المستشرقين، ومع ذلك فإن هذا، يعتبر عنصر قوة وعنصر حياة، ودليلا على قيمة النهضة الإسلامية الحاضرة.

ونحن المستشرقين، نعتبر الإسلام واقعا شاملا وحيا، لا يمكن تقسيمه إلى عدة أقسام، كأن نفرق بين جوانب الدين والثقافة والسياسة، كما أنه لا يمكن التحدث عن فلسفة منتهية لابن رشد، أو علم اجتماع لابن خلدون.

ولما كتبت كتاب «تاريخ الفكر الإسلامي»، قمت بمجهود كبير لدراسة الإسلام منذ نشأته إلى يومنا هذا، لأن الإسلام في اعتقادي حقيقة شاملة تتطرق لأفكار وقيم دائمة.

وهذا الملتقى، أكبر دليل على ذلك، لكن هناك أيضا حقائق ثقافية وروحية لم يجهلها الإسلام. ومهمة المستشرقين لا تقتصر على دراسة تاريخ الإسلام فقط، ولكن تمتد لدراسة الإسلام في الماضي والحاضر، أي دراسته ككل، بوصفه منهلا للإنسان، ومنبعا للعقل ومرفأ للأمان للعالم.

ولهذا السبب، نحن مبتهجون لوجودنا هنا، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

المملكة المغربية
الدار البيضاء
جامعة الضيفية للصحوة الإسلامية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الكلمات التي ألقيت في الجلسة الختامية

للجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية

يوم الإثنين 12 صفر الخير 1411هـ
موافق 3 سبتمبر 1990م

كلمة

السيّد وزير الأوقاف والشؤون الإسلاميّة بالمملكة المغربيّة الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

اسمحوا لي أيها السادة الكرام، بكلمة في هذه المناسبة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد خير الأنام، وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

السيد والي صاحب الجلالة، السادة عمال صاحب الجلالة، أصحاب الفضيلة، السيدات والسادة.

ها نحن هؤلاء، نختم أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية، وستبقى نورا في قلوبنا، وإشراقة وضاءة في فكرنا، ومرحلة ومنعطفا مهما في درب الدعوة، ومددا متجددا للصحوة، وأسلوبا نموذجيا في التعامل الإنساني بين ولاة الأمر، وبين رجال الفكر والعلم والدعوة، لقد استمعنا إلى مجموعة العروض القيمة وناقشناها مناقشة علمية راقية، وهذا في حد ذاته مهم، ولكن الأهم منه، هو ما أتاحته هذه الجامعة، من تواصل بشري، تعانقت فيه الأرواح، وأحست بدفء الأخوة، وحرارة الإيمان الجامع، وتعاهدت على الصفاء والوفاء والعمل البناء.

وإذا كان جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله ونصره، هو الذي دعا إلى هذه الجامعة، وهو الذي استضافها في رحاب كرمه، وزكاها، فإنني للتاريخ أسجل أنه هو الذي وضع نظامها، ورسم خطتها، وحدّد أهدافها، وعيّن مكانها، وأنه ليس لنا من فضل إلا الإخلاص في تنفيذ إرادته والسهر على أن تتم الأمور وفق تعليماته.

وإنني إذ أذكر هذا، فلأنه يمثل دليلا ملموسا، على عناية سيدنا المنصور بالله بالصحوة الإسلامية ورجالها، والخصوصية التي يحظى بها نشاط العلماء والدعاة عند شخصه الكريم. وهذا من فضل الله علينا في هذا البلد الأمين، واجب علينا تقديره حق قدره، وشكره والاعتزاز به.

ولقد رأى العلماء أدلة أخرى كثيرة، وتأكدوا أنها شنشة يعرفها من يعرف، كما قال الشاعر؛ ولقد كنتم في مستوى هذا التكريم، فلم يخل عرض أو مناقشة من التنويه بهذا الموقف الملكي الكريم، والإشادة بهذه البادرة المباركة الطيبة، وبيان نفعها وجدواها في خدمة الصحوة ورجالها، كما كنتم في المستوى المشرف مرة أخرى، عندما قررتم أن ترفعوا خلاصة أعمالكم، وثمرة أشغالكم، في شكل تقرير إلى جلالة الملك حفظه الله، ليطلع عليه قبل غيره، تأدبا مع مقامه، ومعرفة لحقه.

حضرات السيدات والسادة،

في رحاب هذه الجامعة الصيفية الإسلامية، تم حوار بناء، بين العلماء وبين الدعاة،

واقتنعوا بضرورة التعاون والتكامل فيما بينهم، وأنه لا غنى لأي طرف منهم عن الآخر، وفتح الشباب قلبه وتحدث ببراءته وصراحته، عن فهمه للصحوة الإسلامية ورأيه في واقعها وآفاقها، وتحليله للأوضاع العامة التي تعيشها بلادنا والبلاد الإسلامية قاطبة، وتحدث شيوخنا وأساتذتنا بحكمتهم وخبرتهم، وواسع علمهم، وقبلوا من كلام أبنائهم الشباب وردوا، ووجهوا وأرشدوا وسددوا، وكان المهم عندنا أن نرى هذا اللقاء يتحقق بين الشباب والشيوخ، أو بين جمعيات الشباب الإسلامي، وبين من كانوا يسمونهم قبل اليوم بالعلماء الرسميين. وقد تبين والحمد لله، أن الجميع يشكلون كتيبة واحدة، لا غنى للصحوة الإسلامية عن أي واحد من أفرادها، وأن هذا الرسمي وغير الرسمي ما هي إلا فتنة، غرضها تشتيت الشمل وتفريق الصفوف، وليست في صالح الصحوة الإسلامية أبدا، واستمعنا إلى إخواننا وأصدقائنا من المستشرقين، المسلمين منهم والمسيحيين، فتعرفنا على فكر وأسلوب، وطريقة في تحليل الأمور وفهمها، وعلى منهاج مثمر، واستمعوا إلينا، وتعرفوا علينا الواقع أثناء الحوار ساخنا وباردا، وكونوا فكرة ستظهر ولاشك في كتاباتهم ودراساتهم، وكان المهم عندنا أن يتم هذا اللقاء بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، وبين الفكر الإسلامي والفكر المسيحي، سعيا إلى شمولية الرؤية، وإيمانا بعالمية الصحوة، وسعدنا بحضور عدد من إخوتنا العلماء، من مختلف العالم الإسلامي، وهم مدارس واتجاهات، منهم من تجاوزت خبرته في ميدان الدعوة نصف قرن من الزمن، ومنهم من ذاق مرارة السجن والتعذيب بسبب إيمانه ودعوته فقط، ومنهم من يعيش محكوما عليه بالغربة خارج وطنه، لأنه يريد الخير لوطنه، وتحدثوا جميعا، واستفدنا من علمهم وخبرتهم، وسرنا وبعث الاعتزاز في نفوسنا نحن المغاربة، أن لمسنا ما يكنونه من حب وتقدير، واحترام وتوقير لأمير المومنين الملك الحسن الثاني، وسمعنا من بينهم، من يذكر أن له تاريخا مع جلالة الملك المغفور له محمد الخامس، ويدعو له بالرحمة والرضوان، وكانت المرأة المسلمة حاضرة في هذه الجامعة، وأدلت برأيها وشاركت إخوانها في المناقشة، وأحست بأن رجل الصحوة الإسلامية كريم يحفظ لها حرمتها، ويرعى كرامتها، ويسمع رأيها، ويتيح لها الفرصة لممارسة حقها كاملا طبق الشريعة السمحة وآدابها، وكان بعض الناس، لا يصدقون أن هذه الجامعة ستكون فرصة لحوار حقيقي صريح وبناء، ولا يصدقون أن بإمكانهم الإدلاء بآرائهم بكل حرية، لقد عاشوا وهم معذورون ردحا من

الزمن صامتين، يتوهمون أن أفكارهم ممنوعة، وأنها لا تقال إلا في السر، فلما حضروا إلى هذه الجامعة، قرروا أن يتكلموا جهادا في سبيل الله واحتساب، ا ومهدوا لكلامهم بأنهم سيكونون صرحاء، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ثم تكلموا وعلامات الانفعال الشديد بادية على بعضهم، فلم يسقط سقف القاعة، ولم تزلزل الأرض من تحتنا، لقد اكتشفوا أننا ونحن في المسؤولية، نقول أكثر مما يقولون، ونقبل من الناس أكثر مما يقبلون، وأن الحوار فعلا صريح وحقيقي ولا شبهة فيه، وهنا أؤكد، أن هذا السلوك الذي سلكناه مبدأ راسخ في سياسة دولتنا، فنحن لا نضيق بكلمة الحق، ولا نرفض الرأي المعارض، ومجال حرية الرأي واسع خارج هذه القاعدة كما كان داخلها، إنما نريد من الداعية أن يتكلم عن علم لاعن جهل، وعن إخلاص لا عن غرض، وأن يلتزم الحكمة، ويجتنب الفتنة، ويكون إيجابيا في كلامه، وفي سلوكه، منسجما مع سماحة الإسلام ويسره ولطفه ورحمته، واضعا نصب عينيه ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أرشد إليه في أسلوب الدعوة ومنهاجها، ولا خير فينا بعد ذلك، إذا لم نستمع إليه، لقد سعينا من خلال الحوار الذي أجريناه مع العاملين في حقل الدعوة الإسلامية أفرادا وجماعات، والذي تكلل بهذه الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية، أن تنتقل إلى مرحلة التعاون التام المخلص بين الدعاة وولاة الأمر، وبين الدعاة والعلماء، وبين شباب الدعوة وشيوخها وبين العمل الشعبي والعمل الحكومي، لنضرب مثلا فريدا ونقدم نموذجا جديدا، على خصوصية المغرب، ويرى الناس الصحوة الإسلامية في المغرب مسيرة خضراء أخرى بقيادة جلالة الملك أمير المومنين، هادفة إلى تحرير الإنسان، وتكريس الوحدة الوطنية، ولقد تحقق ما سعينا إليه بفضل الله تعالى، وبفضل عامل أساسي وجوهري هو جامع الحب لجلالة الملك، وما يكنه الجميع له من ولاء وإخلاص. كيف لا، وهو سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي استمعنا منذ قليل إلى أخينا الكريم من فرنسا يذكرنا بحبه وحب آله، فالدعاة جميعا رجالا ونساء صف واحد موحد، خلف عاهلنا المفدى أطال الله بقاءه وأدام حفظه وعزه وتوفيقه.

حضرات السيدات والسادة،

أشكركم على مشاركتكم أولا، وعلى مداومتكم وصبركم واهتمامكم الكبير، وأشكر إخواننا الضيوف الذين شرفونا بحضورهم، وأسعدونا بلقائهم، والحق يقال أننا استفدنا

كثيرا، وهذه الفائدة جعلتنا مقتنعين بأن من يصمون آذانهم عن سماع صوت الصحوة الإسلامية، وعن سماع صوت الدعاة إلى الله، يسيئون إلى أنفسهم وإلى أوطانهم.

اسمحوا لي حضرات السادة الكرام، أن أشكر باسمكم جميع من أعان وساعد في نجاح هذه الجامعة الصيفية المباركة، أشكر أجهزة الإعلام الوطنية، من إذاعة وتلفزة على التغطية الشاملة الكاملة لأشغال هذه الجامعة وجلساتها، وأشكر الصحف الوطنية التي اهتمت بجامعتنا وفي مقدمتها، جريدة الصحراء، التي يشرف عليها أخي الكبير وزير الدولة مولاي أحمد العلوي. كما أشكر وزارة الداخلية، وولاية الدار البيضاء الكبرى، ووالي صاحب الجلالة، وعمال صاحب الجلالة على عنايتهم البالغة.

كما أشكر وزارة الدولة في الشؤون الخارجية والتعاون، وسفراء صاحب الجلالة الذين يسروا الاتصال بضيوفنا الكرام، وأشكر سكان ولاية الدار البيضاء الكبرى، وممثليهم على ما لقيه المشاركون في الجامعة من إكرام وترحاب، وأشكر طاقم الترجمة التي أسهمت في تيسير الحوار إلى حد كبير.

كما أشكر أطر وموظفي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وعلى رأسهم الكاتب العام للوزارة المقرر العام للجامعة فضيلة الأستاذ السيد أحمد أفزاز، أشكرهم جميعا على ما بذلوا من جهد متواصل بالليل والنهار في خدمتكم، ونعتذر للسادة العلماء والدعاة عن كل تقصير أو قصور، ونرجو أن يعاملونا بالفضل لا بالعدل.

وأتوجه إلى الله العلي القدير أن يتولى عنا جميعا شكر وجزاء الداعي إلى هذه الجامعة الصيفية ومضيفها أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني، وأن يديم عليه نعمة الصحة والعافية، وأن ينصره وينصر من والاه، ويهزم من عداه، وأن يحقق على يده وحدة المسلمين وعزهم، ويحفظه في ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد الأمير الرشيد مولاي رشيد، وسائر أفراد أسرته الشريفة، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة

فضيلة الشيخ محمد المكي الناصري

الأمين العام لرابطة علماء المغرب ورئيس المجلس العلمي الإقليمي للعدوتين

باسم علماء المغرب.

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدي الرئيس معالي الوزير المحترم، سيادة والي ولاية الدار البيضاء الكبرى، أصحاب الفضيلة العلماء والإخوان الأعزاء الدعاة إلى الله من شباب وكهول وشيوخ.

أحييكم جميعا بتحية الإسلام، وأحمد الله وأشكره على أن هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لقد قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، وقد شاءت رعاية أمير المؤمنين الحسن الثاني الذي كان أول رئيس مسلم، اهتم بحاضر المسلمين ومستقبلهم في مطلع هذا القرن منذ عشر سنوات، كان من بروزه بهذا الدين أنه فكر في عقد هذا اللقاء بين حملة الدعوة الإسلامية، ليراجعوا حسابهم مع ما حصلوا عليه من مكاسب، وما أصيبوا به من هزات خلال العقد الأول من هذا القرن، وذلك حتى نقبل على العقد الثاني من هذا القرن على بينة وبصيرة من مكاسبنا ومن نكساتنا، وحتى نضع للعقد الثاني من هذا القرن، مخططا إسلاميا تجتمع عليه الكلمة من كافة العلماء والدعاة إلى الله، يلتقون فيه على كلمة سواء، ونحمد الله على أن ما كنا نتوقعه من هذه الجامعة الصيفية قد فاقه ما وقع فيها من نجاح وتوفيق وذلك بفضل التنظيم الدقيق الذي قامت به وزارة الأوقاف، بتوجيه من فضيلة وزيرها الموفق، بعزم وحزم، وتخطيط محكم، وما قامت به وزارة الأوقاف من تنظيم ورعاية وحسن توجيه وتسيير، مما خلق جوا طيبا أخويا يتحدث فيه الجميع بمنتهى الصراحة وبمنتهى اللياقة، ودون تكلف ولا حجاب، الكل يقدم ما عنده، شاعرا بأنه بين إخوة في الله، لا تحصى عليه الأنفاس، ولا يضايق في شعور ولا إحساس.

هذه الجامعة الصيفية أعتقد ويعتقد معي كافة إخواني علماء المملكة ـ كما يتجلى ذلك في أحاديثهم وتعاليقهم في الكواليس ـ على أنها أدت غرضها، وحققت هدفها، ذلك أن أول هدف تحقق عن هذه الجامعة، هو أول لقاء بدون حجاب بين حملة العلم الشريف من العلماء، وبين المنتصبين للدعوة، المتطوعين بها من شباب وكهول وشيوخ ومن نساء ورجال.

هذا اللقاء، رفع الحجاب وفتح الباب، استفاد منه المنتصبون للدعوة علما جما وحكمة بالغة، واستفاد منه العلماء معرفة بما يجول في خواطر أمة وضميرها الديني المتعطش إلى المزيد من الرعاية والتشجيع والعناية الكاملة، حتى ترضى عن نفسها وحتى تشعر أنها في رعاية الله ورسوله، مومنة مسلمة بكامل الإيمان وكامل الإسلام. هذا اللقاء، رفع الحجاب بين طائفة كبيرة من المواطنين المغاربة علماء ودعاة ثم هذا اللقاء جمع بين حملة الدعوة وقادتها في بقية بلدان العالم الإسلامي. وبيننا هنا دعاة كبار لهم مركزهم في الدعوة ولهم حضور بارز في العالم الإسلامي من دعاة الإسلام في الجزائر الشقيقة وتونس الشقيقة

ومصر الشقيقة وسوريا الشقيقة وكل البلدان الإسلامية من المشرق والمغرب، اجتمع نخبة من حملة الدعوة في هذا اللقاء ليتدارسوا حقائقها ومشاكلها وليتبادلوا الرأي في مستقبلها ومصيرها.

واتسعت هذه الدائرة لتشمل إخواننا المسلمين من خارج المشرق من أوربا وغيرها من البلدان فتحدث فيها إخوان لنا في الله من فرنسا، من إسبانيا، من الاتحاد السوفياتي إلى آخره وبذلك كملت الصورة، صورة الإسلام، الدين الذي هو دين عالمي والذي ترتبط به الإنسانية في جميع القارات والذي استطاع أن يملأ القلوب وينير البصائر ويقدم رسالته النافعة الشافية للأدواء لجميع أبناء البشر، هؤلاء الإخوان المسلمون من خارج المشرق والمغرب من أوربا وغيرها أيضا تحدثوا إلى إخوانهم بمنتهى الصفاء وكما يقال والشفافية دون حجاب وبذلك عرفنا زاوية أخرى من زوايا الشعور الإسلامي والفكر الإسلامي مما يزيدنا إيمانا بديننا وثقة برسالتنا وأملا في إخواننا، واتسعت هذه الدائرة أكثر من ذلك بحضور طائفة من المستشرقين الذين ليسوا على دين الإسلام ولكنهم اطلعوا على أسرار الإسلام وحكمه فجلبتهم هيبته وجماله وجلاله فأقبلوا على دراسته ومعرفته والتعريف به وذلك إشارة إلى أن هذه الصحوة لاتحمل عداء لأي أحد من البشر، إنها رحمة وخير وهدى، إن طابعها ليس طابع عداء ولا انتقام ولا مواجهة بالسوء، فليس في الإسلام سر ولا عند المسلمين أسرار مثل أسرار حكماء صهيون التي يدبرونها في الخفاء. هذه الصحوة، صحوة إسلامية، الهدف منها خير، ونتيجتها خير للمسلمين ولكافة البشر.
﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

وقد سعدت هذه الجامعة الصيفية بما تحدث به هؤلاء المستشرقون الذين نقدر علمهم، ونقدر إنصافهم، ونأمل منهم الخير الكثير، للمزيد من التعريف بهذا الدين وبهذه الرسالة، حتى يقوى صف المؤمنين بالإسلام، ويقل الجاهلون به وبرسالته.

في هذه الجامعة إذن تبادلنا الآراء. علماء من المشرق والمغرب، دعاة من أتباع الدعوة، وقادة من قادات الدعوة مسلمون من البلاد الإسلامية المعروفة في العالم الإسلامي، مسلمون من بقية الأقطار، مستشرقون لهم إطلالة على الحضارة الإسلامية وعلى الثقافة الإسلامية، هذا التكوين للجامعة حقيقة هو تكوين فريد من نوعه. ولا أكتمكم ومعالي

الوزير أكثر مني معرفة لأنه وزير صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني، لا أكتمكم أن هذا التخطيط هو تخطيط أمير المؤمنين الحسن الثاني المعتز بإسلامه وعروبته، والمعتز بسماحته وتسامحه، والمتفتح على العالم والحضارات كلها دون عقدة ولا شعور بالنقص، بل مع الاستعداد الكامل، والقلب المفتوح، والصدر المنشرح لجميع البشر ولكافة الإنسانية، وتلك هي رسالة الإسلام. ألم يقل نبينا صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا رحمة مهداة»، أهداها الحق سبحانه وتعالى إلى كافة البشر.

لقد طرحت في هذه الجامعة الصيفية كل المشاكل التي كانت تشغل بال المسلمين، تشغل بالنا نحن العلماء وبال الدعاة كافة، المعتنين بالشؤون الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها. ومن حسن حظ هذه الجامعة أنها طرحت هذا الموضوع لا في نطاق مغربي محلي ولكن في نطاق إسلامي، لأن الصحوة ليست ملكا للمغاربة وحدهم، ولكنها ملك كافة المسلمين فنحن نتعطش إلى معرفة آراء الآخرين، نستمع إليها بشغف وبغبطة، ونتلقى توجيهاتها بتقدير واحترام، إذ بتبادل هذه الآراء تتحقق النتيجة، وينجلي الأمر، وتتضح معالم الصحوة الإسلامية، التي هي هدفنا جميعا نحن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

إذن، حضرات السادة، سيدي الوزير.

أهنئكم من صميم القلب باسم علماء المملكة، الذين تمثلهم رابطة علماء المغرب، التي تعتز بتمثيلهم وتتشرف بالانتماء إليهم، وأجدد لكم منتهى الإعجاب والتقدير للبراعة التي عالجتم بها هذا الموضوع، وللتسيير الحكيم الذي سيرتم به جلسات هذه الجامعة الصيفية، وللأسلوب الفريد الجامع بين دقة التخطيط وحسن العرض والتقديم الذي قدمتم به مشروع أمير المؤمنين الحسن الثاني من إنشاء جامعة صيفية للصحوة الإسلامية. إنني مقتنع كبقية العلماء وكبقية المشاركين في هذه الندوة من رجال الدعوة في المشرق والمغرب وفي أوربا، مقتنع بأنك يامعالي الوزير فتحت لنا الشهية فلن نكتفي بهذه الدورة بل نحن ننتظر دورات ودورات، سنوات وسنوات متواصلة لدراسة كل القضايا التي عرضت كعناوين وكمقترحات وكمطالب في هذه الجامعة الصيفية، هذه الجامعة الصيفية، لن تكون لها عطلة صيفية بل ستستمر إن شاء الله تحت ظل ورعاية سيد البلاد أمير

المؤمنين الحسن الثاني الذي منذ جلس على العرش في أوائل الستينات بمجرد ما جلس علي عرش المملكة، نادى وقال: هذه السنة، سنة البعث الإسلامي. في الستينات - كان قولا ثم أتبعه بالفعل. رأى أن كبار الشيوخ ماضون يوما بعد يوم في الشيخوخة، ويخشى عليهم من الذهاب دون أن يتركوا ذرية صالحة، فأمر بتأسيس دار الحديث الحسنية لتدارك الثروة العلمية الباقية مع كبار الشيوخ، ولتكوين ولتخريج خلق صالح لهم. فكانت دار الحديث الحسنية، وكان من علمائها ورجالها الشيخ الرحالي الفاروق، والأستاذ محمد علال الفاسي، والأستاذ العابد الفاسي، والأستاذ جواد الصقلي، والأستاذ.. الأستاذ ثلة من العلماء مضوا إلى ربهم، وانتقلوا إلى رحمة الله، ولولا أن الحسن الثاني تدارك هذا الكنز حتى لا يضيع، لكنا اليوم في صحراء من الثقافة الإسلامية لا نملك علماولا ثقافة إسلامية واليوم، نحن نجد نخبة من علماء ومثقفين، حملوا لواء الثقافة الإسلامية، يؤطرونها في مختلف الكليات والجامعات، وليسوا بمعزل عن الآخرين، لهم نفس الحقوق ونفس المزايا، يحملون نفس الدرجات: الدبلوم والدكتوراة والعالمية إلخ.. أريد أن أقول: إن تصور البعث الإسلامي في خيال وقلب الحسن الثاني أمر شغل باله منذ بداية حكمه، لأنه ورثه عن والده محمد الخامس رحمة الله عليه.

وفي أول القرن، صدرت تلك الرسالة التي هاهي بين أيديكم، والتي وجهها إلى الأمة الإسلامية جمعاء في شرقها وغربها، ولم تلبث بعض السنوات على ذلك حتى أسس في جميع كليات الآداب شعبة الدراسة الإسلامية، تعزيزا للدراسات الإسلامية، فما من كلية آداب اليوم في المغرب، وجامعاتنا اليوم تفوق الإثني عشر جامعة، في كل كلية آداب، شعبة الدراسات الإسلامية، مزدهرة وعليها إقبال، ويؤطرها خريجو دار الحديث الحسنية وخريجو القرويين.

وهكذا أيها السادة، العمل الإسلامي ماض في سبيله، موفق بإذن الله إلى تحقيق أهدافه في ظل أمير المومنين الأمير الحسن الثاني، وبتسيير ورعاية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية التي يشرف عليها عالم متميز من علمائنا الشباب الذين يحملون همّ الإسلام والذين يحملون كذلك نظرة عن مستقبل الدعوة الإسلامية والرسالة الإسلامية.

فهنيئا لنا بهذا الجمع الكريم، ونسأل الله تعالى أن يديم رعاية أمير المؤمنين لهذه النهضة ولهذه الصحوة، وألا نفترق إلا على أمل اللقاء في وقت قريب إن شاء الله، وأعدكم بأن المجالس العلمية التي تشرف على مختلف الأقاليم في المملكة ورابطة علماء المغرب، ستأخذ من أيديكم كل همومكم وكل مقترحاتكم، لتعنى بالعمل في دائرتها ونشرها وتعميقها، وتسخير كافة المواهب من أجلها إن شاء الله.

والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة

فضيلة الشيخ محمّد رشيد الغنّوشي

(تونس)

باسم علماء المغرب العربي

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

سيدي الوزير رئيس الجلسة، السادة العلماء، أيها الدعاة الكرام.

باسمي وإخواني الدعاة في المغرب العربي، أحييكم وأهنئكم على اجتماعكم هذا، شاكرا المملكة المغربية ملكا وحكومة، على توفير هذه الفرصة الجيدة للحوار حول قضايا الإسلام، حول صحوة الإسلام، في زمن، في وقت تشتد فيه الهجمة الغربية الصليبية على أمتنا بكل الوسائل، ويشتد التأزم داخل المجتمعات الإسلامية، يشتد التفرق والانتقام، فتأتي هذه الدعوة المباركة، تنفتح هذه الجامعة الصيفية، تنفتح جامعة الإسلام مرة أخرى تنشر في الأمة روح الوحدة مجددا، تنشر في الأمة روح الأمل، وتحيي فيها عوامل المقاومة، وليس ذلك بجديد على هذه المنطقة التي وقفت قرونا طويلة ترد على أمة الإسلام كيد الصليب، وليس غريبا على الإسلام أنه أمل الأمة، وأنه رجاؤها وأنه النور في ليل ظلماتها.

أيها السادة الكرام، أيها العلماء الأفاضل،

إن هذه المنطقة - منطقة المغرب الإسلامي أو المغرب العربي من أمتنا تاريخها في نصرة الإسلام وفي نشره وفي الذود عنه تاريخ طويل، وإن عوامل الوحدة في هذه المنطقة عميقة متجذرة، لدرجة أن الشعور الشعبي في هذه المنطقة لا يكاد حتى اليوم يقبل معاني لهذه الحدود القائمة. لقد ورثنا إرثا استعماريا هو جملة من الجوازات والبطاقات والهويات التي فرقت ما كان موحدا على الصعيد القانوني والسياسي، أما على صعيد الشعور الشعبي وعلى الصعيد الفكري فهذه المنطقة لا تزال موحدة لا تعرف بكل هذه البنيات التي هي ميراث لعهد لا تزال هذه المنطقة بمختلف مستوياتها الثقافية والسياسية والدعوة تعالج ذلك الإرث وتتجاوزه، وإن هذه الجامعة الصيفية نعتبرها لبنة ومؤسسة من مؤسسات وحدة هذه المنطقة ونعتبر أن من أسباب التعثرات التي لا تزال قائمة في طريق إرساء وحدة فعلية حقيقية لهذه المنطقة أن الإسلام لم يوضع كل رصيده في هذه الوحدة، نأمل من هذه الجامعة الصيفية أن تحرر رصيد الإسلام المعتقل، أن تحرر رصيد الإسلام وطاقاته المكبوتة من أجل تحقيق هذه الوحدة، وتحويلها إلى وحدة حقيقية. الجامعة الصيفية مؤسسة نريدها أن تكون مؤسسة من مؤسسات وحدة هذه المنطقة ضمن وحدة أرض العروبة والإسلام.

وإذا كان لي ما أقترحه في هذا الصدد تنمية لهذه المؤسسة أن يكون ملتقاها القادم، أن تكون دورتها القادمة، أن يكون موضوعها الدعوة الإسلامية في المغرب العربي ووحدة

المنطقة، ماذا يمكن أن تقدم دعوة الإسلام في هذه المنطقة من مقومات، من زاد يجد ويحقق هذه الوحدة التي لا تزال تتعثر، على حين أن العدوة الأخرى من المتوسط التي تقابلنا، تتنامى فيها وبسرعة هائلة عوامل التوحد على حين أننا لا نرى في هذه العدوة على هذا الجانب من المتوسط، لا نرى مسار الوحدة يتقدم بنفس السرعة وبنفس الجدية.

أيها السادة أيها الدعاة والعلماء.

إن مصالحة هامة جدا في هذه المنطقة نحسب أن الجامعة الصيفية لبنة أساسية من لبناتها، مصالحة بين الدعاة وبين الولاة، حتى ينظر الجميع على أنهم أبناء لأمة واحدة وأنهم كل في موقعه يحملون أمانة الإسلام وأمانة التقدم في هذه المنطقة، لقد استهلكت طاقات كثيرة في تصادم بين الدعاة وبين الولاة نأمل أن منطقتنا المغربية هذه لا تصيبها العدوى التي أصابت بلاد المشرق، والتي أخذت نهضتها وأسلمتها للمشروع الصهيوني طعما سائغا. إن كثيرا من الدعاة قد أمضوا في السجون من الوقت أكثر مما أمضوا في مباشرة الدعوة في الواقع، نأمل أن منطقتنا المغربية هذه تنجو من هذا التأمل، تنجو من هذه التهرئة لطاقات الإسلام وطاقات المنطقة، إن مصالحة أيضا على مستوى آخر بين العلماء والدعاة، وهذا محور من هذه المحاور لهذه الجامعة الصيفية، ونحن نشهد ربما من الاجتماعات القليلة التي نشهد فيها مثل هذا الجمع بين العلماء وبين الدعاة. إن مصالحة على هذا الصعيد مطلوبة وبإلحاح من أجل تجديد الفكر الإسلامي، من أجل تحرير الفكر الإسلامي من كثير من الأوهام، ومن أجل إجراء التفاعل بينه وبين هموم الجماهير.

إن العلم الذي نشأ بعيدا عن الدعوة كان علما مجردا، وإن الدعوة التي نشأت غير راسخة الجذور في العلم، ولم تتلمذ على العلماء، معرضة للضلال، آن الأوان إذن لمصالحة عميقة بين العلماء وبين الدعاة على نحو تعود معه مؤسسة الحضارة الإسلامية إلى أسلوب إنتاجها المعروف، إن مصالحة أخرى أيضا بشرت بها الجامعة الصيفية هذه المباركة، مصالحة بين الدعاة وبين المثقفين ممن وقعوا نتيجة ظروف كثيرة، وقعوا في أسر الغرب. إن جزءا كبيرا من أبنائنا، من مثقفينا وعلمائنا، واقعون اليوم في أسر الأعداء، وإن الدعوة الإسلامية بدعاتها وعلمائها مطلوب منها أن تنجز هذه المهمة، لاستعادة هؤلاء الأسرى، تحرير هؤلاء الأسرى، وإن مباركة الدعوة الإسلامية اليوم أن نرى عملية التحرير، تحرير

أسرانا الواقعين في صفوف الأعداء، نرى أن هذه العملية تنجز يوما بعد يوم، فما ينبغي أن نيأس من يساري ولا من علماني ولا من منحرف، ما ينبغي أن نيأس، أولئك أبناء الإسلام الواقعون في الأسر، ومهمة الدعوة الإسلامية ومهمة هذه الجامعة، أن تقوم بعملية الاسترداد. إن مصالحة أخيرا، مطلوب القيام بها بين دعاة الإسلام، بين فكر الإسلام بين علماء الإسلام، وبين هموم الجماهير على نحو يزول معه ما سماه سيد قطب رحمه الله الفصام النكد بين الإسلام وبين الحياة، بين الإسلام وبين السياسة، وإننا لنحمد الله سبحانه، أن مناطق المغرب العربي كلها ليس فيها دستور واحد يمكن اعتباره دستورا علمانيا، فدساتير الدول كلها دساتير إسلامية، والبنود الأولى تؤكد على أن المشروعية العليا للإسلام، وهذا يقتضي بالضرورة أن كل قانون وأن كل وضع وأن كل سلوك يخالف الإسلام، فهو لا دستوري ولا مشروع ومطلوب تجاوزه. في مثل مغربنا هذا الذي تأسس على أساس الإسلام.

ولقد سرني ما ذكره لي منذ قليل مؤرخ المملكة السيد عبد الوهاب بمنصور أن منهاجه في تأريخ المملكة لا ينطلق من اعتبار أن هذه الهويات السياسية هي الأصل، وإنما يعتبر أن المنطقة كلها هي أصل واحد، ولذلك ألف كتابا حول القبائل المغاربية لم يذكر فيها قبائل المغرب، وإنما ذكر فيها قبائل من السلوم إلى المحيط. وعندما تحدث عن أعلام المغرب العربي تحدث عن أعلام المنطقة كلها، وعندما أرخ لهذه المنطقة بدأ التاريخ من الفتح الإسلامي، هذه المنطقة لم تعرف تاريخا حضاريا، تاريخا مشعا، إلا يوم أن تباركت وتشرفت بنور الإسلام بقيادة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذه المنطقة أسسها الإسلام، الإسلام فيها مؤسِّسٌ، ولم يقدم مجرد إضافة مطلوب جهد كبير لتجاوز هذه الفواصل. إذن بين الإسلام وبين السياسة لا مشروعية لأية أطروحة في المنطقة تكف لسان العالم عن تناول مشكلات الحياة. فهذه كنيسة لا أصل لها في ديننا طالما أن دساتير المنطقة كلها تؤكد على أن هذه البلاد، على أن هذه الدول، دول إسلامية، مطلوب إذن إجراء تفاعل حقيقي بين الإسلام وبين هموم الناس في المعاش، فلا تبقى الدعوة الإسلامية دعوة نظرية، مما أكد كثير من العلماء، وإنما تتناول مشاكل التعليم، ومشاكل السكن، ومشاكل البطالة، ومشاكل التضخم، ومشاكل الغزو الفكري لأمتنا، ومشاكل التلوث الأخلاقي، ومشاكل التخلق. باختصار، هذه لا إله إلا الله الذي أرست المغرب

العربي في الأخير. مصالحة مطلوبة بين الدعاة أنفسهم، الخلاف في الأمة قديم، ولا أمل في صب الأمة كلها في قالب واحد، التعددية إذن سنة من سنن الخلق، سنة من سنن الاجتماع البشري، ولا أمل في تحويل الجميع إلى جماعة واحدة، وإلى حزب واحد. وإن التعددية في بلادي، في المملكة قديمة والحمد لله، فالدعوة الإسلامية إذن تنشأ في محيط عرف التعددية، فكل محاولة لصب الناس في تصور للإسلام واحد، أو في جماعة واحدة، كل محاولة تظهر تؤكد على أن هنالك جماعة تنطق باسم الإسلام. والحمد لله، ليس في الإسلام كنيسة تنطق باسم الإسلام، كل محاولة تقول نشأ للدعوة الإسلامية، تعتبر نفسها بريد عن الجميع، وأنها هي التي وحدها ستنجز المشروع الإسلامي، أخشى أن تبعد الناس عن المشروع الإسلامي أكثر مما تقربهم إليه.

مطلوب أيها السادة، أيها العلماء، مطلوب تفاعل أكبر بين الإسلام وبين هموم الإنسانية كلها، فدعوة الإسلام دعوة إنسانية، والمغرب العربي مما يهيئه لأن يحمل هذه الدعوة، أنه منفتح على العالم، وأنه يقع في قلب المتوسط، فلابد من إعداد للدعاة متين، يستوعب ثقافة العصر، ويستوعب قيمه ولا يقدم نفسه قطيعا لا للغرب ولا للشرق، وإنما يقدم نفسه امتدادا لخير ما أنجزت الإنسانية، فتلك دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

كلمة

فضيلة الدكتور مصطفى مشهور

(مصر)

باسم علماء الدول العربية

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾.

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا رسول الله وعلى آله وصحبه، ومن

وبعد، أيها الإخوة والأخوات،

تحية من عند الله مباركة طيبة، وسلام عليكم جميعا ورحمة الله وبركاته.

كلمتي ستحتوي شكرا وتقديرا، وأملا وتوصية ودعاء. أما الشكر فللملك البلاد جلالة الملك الحسن الثاني أكرمه الله وأعز به الإسلام أن أتاح هذه الفرصة، وهذه المبادرة الطيبة، ولمعالي السيد الوزير جزاه الله خيرا، على ما بذل من جهد وصبر وتحمل في إنجاح هذه الندوة الطيبة، وكل من عاونوا في إنجاحه،ا والتقدير أيضا والشكر لأبناء هذا الوطن الحبيب الشقيق، الذي أزوره لأول مرة، ولمست فيه العاطفة الجياشة، ولين الجانب، والشعور بالأخوة الإسلامية الحق.

هذا هو الشكر، أما التقدير فينبع مما لمسناه جميعا من خلال العروض والمداخلات من فائدة جليلة، كلنا يشعر بهذه الفائدة، ربما قبل أن تتم الندوة، لا نقدر النتائج والفائدة الموجودة منها، ولكن أما وبعد أن أنهيناها، لقد لمسنا فعلا الثمرة الطيبة، والحصيلة المباركة، التي نرجو لها التمام بأن نقطها على واقعنا الإسلامي ولا تكون مجرد كلمات سمعت وطبعت ووزعت.

لقد كانت فرصة طيبة للشعور بوحدة المسلمين رغم اختلاف الجنسيات وتباعد الأماكن، لاشك أن هذا جامعة إسلامية نرى فيها إخوة لنا في الإسلام من أنحاء وشتى في العالم، وكل منا يشعر نحو أخيه وكأنه رآه من زمن، الأرواح تتآلف، والقلوب تتعانق بأخوة الإسلام، تلك النعمة الكبرى ﴿فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾. ثم نلمس أيضا تقارب المفاهيم والاهتمامات والتصورات وترتيب الأولويات في قضايا الإسلام والمسلمين أمام هذه التحديات الشرسة التي تتعرض لها الأمة الإسلامية، لاشك أن هذه الندوة ساعدت كثيرا في توحيد المفاهيم، وإزالة الشبهات والغموض، وتوحيد الجهود والاهتمامات لمواجهة الأعداء الذين لا يألون جهدا في محاولة القضاء على هذه الدعوة الإسلامية، وخاصة بعد أن لمسوا هذه الصحوة الإسلامية في وسط الشباب المسلم، عُدّةِ المستقبل في جميع البلاد والأقطار.

ونقدر ما لمسناه في هذا البلد الحبيب من علماء أفاضل، أفاضوا علينا من علمهم، ولمسنا فيهم الإخلاص والصدق، وحب الخير للإسلام والمسلمين.

هذا عن التقدير، أما عن الأمل، فالأمل أن تتكرر مثل هذه الندوات كما طلب الإخوة، لتتناول كل القضايا التي طرحت والتي تفرض نفسها على الساحة الإسلامية

بعد هذه التراكمات التي تراكمت على الأمة الإسلامية عبر القرون، من جهل وفرقة وضياع وذلة ومهانة، نريد أن نتخلص من هذه الغشائية التي حدثنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، نريد الفرد المسلم من أبناء هذه الصحوة، المعدّ عقيديا وعباديا وأخلاقيا وثقافيا، يواجه ويكون لبنة متينة لبناء صرح الأمة الإسلامية، ليعود لها مكانتها كخير أمة أخرجت للناس، وسيادتها كأمة وسط، وعزتها. **﴿ولله العزة ولرسوله وللمومنين، ولكن المنافقين لا يعلمون﴾**.

إن المستقبل للإسلام، إن منحنى الدعوة الإسلامية بعد أن كان في انحدار منذ قرون، نلمس اليوم والحمد لله أنه تحول من الانحدار إلى صعود، وإن كان صعودا بطيئا لطبيعة المرحلة، وهي الأساس في البناء، وكذلك منحنى الحضارات المادية الآن في انحدار، دليل صعود منحنانا. هذه الصحوة، وهذا الاهتمام، وهذا الوعي الإسلامي الذي تجدد في جسد هذه الأمة، وبدأ يحييها بعد هذا الكون.

وأما دليل انحدار منحناهم، فهذا الانهيار الأخلاقي، وخاصة في الشباب الذي هو عدة مستقبلهم. والأخلاق أساس الأمم، فإذا انهارت الأخلاق، انهار ما عداها من قيم. فليملإ الأمل قلوبنا جميعا، إن المستقبل للإسلام بإذن الله تعالى، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله. **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا﴾**.

والأمل أيضا أن نعيش الإسلام حركة لا علما ودعوة فقط، حركة بناءة تقيم هذا الصرح العظيم، تعين الدولة والخلافة من جديد، تقدم الدولة الإسلامية كأقوى قوة في العالم إن شاء الله، تتصدى لكل قوى الباطل، من شيوعية وقد انهارت، أو صليبية أو صهيونية أو غيرها، نريد أن نتحرك بالدعوة ولا نكون في مجال الدعوة والعلم فقط.

هذا عن الأمل، أما عن التوصية فَأُوصِي الإخوة جميعا أن ينتهزوا الفرصة قبل تفرقنا، أن يأخذوا عناوين بعضهم البعض، ويحسنوا الصلة فيما بينهم فيما بعد ذلك بوسائل الاتصال المختلفة، سواء تليفونات أو تلكس أو غيرها، لأننا لا نريد أن تنقطع هذه الصلة بانقضاء هذه الندوة، الأمة الإسلامية في حاجة إلى تضافر الجهود، وإلى الوحدة وإلى التعاون. هذا الإنتاج الفكري الذي قدم في هذه الندوة، نريد له أن يقع واقعا عمليا في كل بلادنا، كل منكم أخذ نسخة من هذه العروض المختلفة وهذه التدخلات، نرجو أن تنقلوها إلى أبناء وطنكم ليستفيدوا منها.

هذا الإنتاج الفكري الطيب، نريد له أن يتعمم أو يعم كل أقطارنا الإسلامية، لتتوحد الجهود، وتتوحد الاهتمامات لتحقيق النصر إن شاء الله.

أما عن الدعاء، فأسأل الله تعالى أن يعزنا بالإسلام، وأن يعز الإسلام بنا، وأن يفتح لهذا الدين قلوب الناس، وأن يجعلنا من جنده الصادقين، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله، وأن يجمعنا في الفردوس الأعلى مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة
فضيلة الشيخ الدكتور أحمد ديدات
(جنوب افريقيا)
باسم المجموعة الإسلامية

حين تنظر إلى القارة الإفريقية، إلى أقصى الجنوب، ترى أن هناك توجد دولة جنوب إفريقيا. هذه الدولة التي لا يتعدى عدد مسلميها نصف مليون مسلم. أي أقل من 2٪ من مجموع السكان. فمن هناك من رحم تلك الأرض، باسم مسلمي جنوب إفريقيا،

خريطة خاصة بنا، بعيدا عن البوذية واليهودية والنصرانية. فعدد أصحاب هذه الديانات يفوقوننا عددا، ومع ذلك فإننا نعرف كيف نتعايش معهم. وكيف نتعامل معهم ولهذا نقول: إن هذه تجربة فريدة، ونريد أن تشاركونا هذه التجربة، وأن تأخذوا من هذه التجربة، التي ساعدتنا على أن نخلق لأنفسنا إطارا مستقلا، رغم أننا أقل من 2٪ من عدد السكان.

لن أدخل في التفاصيل، فعامل لا يسمح بذلك، ولكن أريد أن أبلغكم أنكم في شمال إفريقيا، تملكون فرصة ذهبية فريدة لنشر الإسلام وتعاليمه في العالم الغير المسلم.

إن أمير المؤمنين الملك الحسن الثاني، قام بإنجازها، وهو مشروع تشييد مسجد مشرف على البحر. وهذه المعلمة التاريخية الإسلامية ستجلب السياح الغير المسلمين، فهذه إذن فرصة فريدة لتلقين السائح تعاليمنا ولكن إن لم يكن هناك تدريب عن كيفية امتلاك السائح وتعليمه، فإن هذه الجهود ستذهب سدى.

علمنا أن قادتنا قد أتت إلى فاس. أقول: إن قادات الشعوب (الإسباني ـ الإنجليزي والفرنسي). قد حظي هؤلاء بعناية زيارة المآثر التاريخية، وتراثنا الإسلامي، من منهم لن يتحدث بإعجاب عن كل هذه المساجد عن المحراب عن الصومعة، عن كل شيء؟ لهذا أقول: إن هناك فرصا ذهبية لنشر الإسلام في العالم الغربي. وانطلاقا من شمال إفريقيا، ونريد أن نشارككم هذه الفرصة وهذه الظروف الملائمة.

ولهذا الغرض أعيد ما عرضته من قبل، لأني أشعر أن رسالتي لم تُبَلَّغْ كما أريد، أريد أن أكلف 9 شبان، أي شبان، المهم أن يكونوا ثلاثي اللغة العربية، الفرنسية، والإنجليزية، أن أشارك هؤلاء ظروفي في نشر الإسلام، من لندن إلى جنوب إفريقيا، أريد أن يتعلموا انطلاقا من تجربة معنية، كيفية التعامل مع الغير المسلم، وكيفية إقناعه بهذه التعاليم الطاهرة، إنها طريقة سهلة، وأريد أن أشارككم فيها.

وفقنا الله للعمل الخير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والسلام.

تعقيب

السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري على الكلمة التي ألقاها فضيلة الشيخ الدكتور أحمد ديدات

شكرا لفضيلة الأستاذ أحمد ديدات، وقد اقترح أن نرسل إليه تسعة أشخاص ليعلمهم طريقة في الدعوة بناء على التجربة الطويلة، وأنا أقترح عليه أن ندعوه إلى المغرب شهرا في المعهد العالي لتكوين الأطر الدينية بالدار البيضاء، ونقدم له أبناء منا، ممن يتقنون الفرنسية والإنجليزية والعربية، ويعلم لنا عددا أكبر قد يصل إلى مائة، فهل هو موافق؟

أشكر الأستاذ الجليل على هذا الاقتراح، النابع من إيمان عميق، ومن أخوة إسلامية راسخة، وسنعمل إن شاء الله على تلبيته، وتكون تجربةرائدة بإذن الله.

●

كلمة
فضيلة الأستاذ عبد العزيز سي
(السنغال)
باسم المجموعة الإفريقية

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله على مبارك الابتداء وميمون الانتهاء، وأصلي وأسلّم على سيدنا محمد النبي المصطفى الأمين، وعلى آله وأصحابه المجاهدين المؤمنين، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم

معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية ورئيس الجلسة، أصحاب الفضيلة العلماء الأجلاء، أصحاب السماحة الشيوخ الموقرين، إخواني أخواتي.

فبالأصالة عن شخصي المتواضع، والنيابة عن زملائي الأفارقة، أستسمح حضرتكم باستهلال كلمتي بأداء واجب الشكر العميق، والعرفان الكامل، لمعالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، على نزاهة إشرافه ومنهجيته الموضوعية، وعلى هذه الفرصة السعيدة لحضور هذا اللقاء الكريم، وأعبر عن امتناننا البالغ للمملكة المغربية العربية الشقيقة، شعبا وحكومة، وعلى رأسها أمير المؤمنين، جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله وأيده وأطال بقاءه، وأدام بركاته لصالح الشعوب الإسلامية، وأؤكد تقديرنا البالغ للحفاوة وحسن الاستقبال وكرم الضيافة، الذي يغمرنا في هذا البلد العظيم.

أيها الإخوة الأعزاء،

إنه لمن حسن الطالع الميمون، أن يحضر إلى أرض المغرب المسلم، أرض التحرير والتعمير، هذا التجمع الإسلامي الحاشد من العلماء والمفكرين، يمثلون مختلف الهيئات والجمعيات الإسلامية، من أجل المشاركة في أعمال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية المباركة، التي تشكل عمودا يضاف إلى تلك الأعمدة التي تدعم العلاقات العلمية والثقافية، وتوطد عرى الأخوة والصداقة بين الشعوب الإسلامية وأفرادها في كل مكان، وتثمر لهم فوائد جمة، دانية عليهم ظلالها، وذُلّلتْ قطوفها تذليلا.

أيها الإخوة الأعزاء،

لقد سمعنا بأذن صاغية، وقلوب واعية، إلى خطاب وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، الذي افتتح به ندوتنا الإسلامية العظيمة، هذا الخطاب الجامع الشامل، الغني بالأفكار البناءة القيمة، وتوجيهات إيجابية حكيمة، وقدرناها حق التقدير. ولقد صممنا العزم على نشرها في مجتمعاتنا الإسلامية، ليستفيد منها كل مسلم غيور على الدين.

ومن الأهمية بمكان، أن يعتبر المشاركون في الندوة العقد الأخير من تسعينات القرن العشرين، فترة تمهيدية لانطلاقة عملاقة جديدة في العمل الإسلامي خلال مطلع القرن الحادي والعشرين.

أيها الإخوة الأعزاء،

إن العمل الإسلامي في القرن الجديد، لابد أن تسبقه دراسة دقيقة معمقة، ووضع استراتيجية واعية مستحكمة، لمواجهة وتصدي هجمات أعدائنا من اليهودية، والنصرانية الصليبية والتبشيرية المسيحية، والتيارات الفكرية الهدامة، والفرق الدينية المنحرفة عن تعاليم الإسلام. ولقد حان الأوان أن يفيق المسلمون من سباتهم العميق، وأن يقوموا بمسؤولياتهم، ولا داعي للخوف والتردد، فلديهم إيمان بالله، وأموال طائلة، ووفرة في العدد، فعليهم أن يوحدوا صفوفهم وكلماتهم، وأن ينسقوا جهودهم، وأن يشركوا الشباب المسلم إشراكا حقيقيا في الصحوة، وفي العمل والتخطيط، لأنهم رجاء الأمة الإسلامية، وأملنا الوحيد في النهوض بأعبائها مستقبلا. فالأمة، كل أمة، تشعر بحاجة دائمة في أيام جهادها وكفاحها إلى إعداد أجيال شابة، تكون مستعدة لحمل أعباء الأمور، والعمل من أجل إسعاد الشعب. ذلك أن بناء الأجيال الصالحة، وإعدادها خلقيا وعلميا وثقافيا وروحيا في أي مجتمع، هو أساس قوته وانتصاره، وتقدمه ونهضته.

إن الشباب كان العنصر السائد في جمهرة الصحابة السابقين الأولين، ساندوا الرسول ﷺ والدعوة الإسلامية في مرحلتها الأولى. لنذكر منهم سيدنا علياً كرم الله وجهه كمثال يقتدي به شبابنا المسلم في الإيمان والإخلاص، والصدق والأمانة، والطهر والعفة، والتقى والورع، والشجاعة والتضحية، والعلم والمعرفة، والحكمة والزهد في متع الحياة الدنيا، وفي ديمقراطية الحق، وفي إيثار المصلحة العامة على المصلحة الفردية، وفي الشعور بالمسؤولية وتحمل الأعباء، والثبات أمام الشدائد والأزمات، إلى غير ذلك من الصفات والأخلاق النبيلة، والمباديء السامية.

وقد انعكست هذه التربية الإسلامية الرفيعة لسيدنا علي كرم الله وجهه، على المعايير والمقاييس التي وضعها لاختيار القادة والمسؤولين. وقد كتب إلى واليه بمصر الأشرم النجعي رسالة يحدد له فيها قواعد اختيار القادة والمسؤولين فقال له: «انظر في أمور عمالك الذين تستعملهم، فليكن استعمالك إياهم اختبارا، ولا يكون محاباة ولا إيثارا، فإن الأثرة بالأعمال والمحاباة بها خيانة لله، وإدخال الضرر على الناس، ولا تصلح أمور الناس ولا أمور الولاة إلا بصلاح من يستعينون به، ويختارونه لكفاية ما غاب عنها، فاصطف لولاية أعمالك أهل الورع والعفة والسياسة، وثق بذوي التجربة والعقول والحياة من أهل

البيوتات الصالحة، وأهل الدين والورع، فإنهم أكرم أخلاقا، وأشد لأنفسهم صونا وإصلاحا، وأقل في المطامع إسرافا، وأحسن في عواقب الأمور نظرا من غيرهم، بعد أن تستبعد أهل التكبر والتجبر والنخوة، ومن يحب الإطراء والثناء، ويطلب شرف الدنيا، ولا شرف إلا بالتقوى. «نهاية الاقتباس».

وشبان اليوم، يقعون تحت تأثير مذاهب إيديولوجية خطرة، تزعزع عقيدتهم وإيمانهم بالله، وتبلبل صفاء أفكارهم وعقولهم، إلى جانب فرق الدين المرتدة عن النهج الإسلامي القديم. وكذلك الآراء المناقضة للإسلام، والمشككة في قيمه باسم الفكر المفتوح. وكل هذه الفرق وتلك المذاهب، ضالة مضلة، تستهدف خلع الشباب المسلم المعاصر من الإيمان بالله، وتحطيم القيم الدينية والأخلاقية، والقرآن الكريم يحذرنا منها بقوله: **﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا﴾**.

فالشباب في كل زمان ومكان، هو دائما الصيد الثمين الذي ترصده وتهدف إليه جميع الأنشطة العالمية، وعلى الأخص، تلك التي أسلفنا الحديث عنها.

ومن أجل ذلك، يجب على علماء المسلمين والدعاة وولاة الأمور، العمل بجدية وصرامة، على حماية الشباب المسلم المعاصر من التبعية، من التيارات الفكرية الهدامة وأفكارها المسمومة، بتوجيهه وتربيته تربية دينية سامية، طبقا للقيم والمعايير الخلقية التي وضعها الإسلام، وطبقتها المدرسة النبوية، التي تخرج منها الجيل الأول من الشباب المسلم، أمثال سيدنا علي كرم الله وجهه.

كذلك يجب على المجتمع الإسلامي، القيام على قدم وساق، بسد أبواب الفراغ أمام الشباب المسلم، بمراقبة تصرفاته في جميع الأزمنة، درءاً للمفاسد التي كثيرا ما تكون ناتجة من الأوامر الثلاثة التي جمعها الشاعر في هذا البيت:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

وكذلك يجب إعداد المسلمين وتهيئتهم، حتى يكونوا على استعداد تام للجهاد في سبيل الله، بالأنفس والأموال، أسوة برسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليه، ومن نافلة الكلام، القول بأن الجهاد في سبيل الله ليس مقصورا على الجهاد بحد السيف، ولكن أيضا، هناك الجهاد الثقافي والعلمي والإعلامي، والجهاد الذي اضطلعت وزارة

الأوقاف والشؤون الإسلامية في المملكة المغربية الشريفة وبذلت فيه كل جهد مادي ومعنوي، بتوجيهات حكيمة من صاحب الجلالة أمير المؤمنين مولانا الحسن الثاني، ونحن نثمن هذه الجهود المشكورة في خدمة الإسلام والمسلمين، ونرى أن النضال الإسلامي، الذي رسمه صاحب الجلالة على هذه الاستراتيجية الواعية، وهذه الجهود الدائمة، لابد أن يبلغ مداه المأمول، فيعكس جوهره وأثره على وحدة صفوف المسلمين على المستوى العالمي، فيظهر الآثار البعيدة المدى من استمرار مسيرة الدعوة الإسلامية، وانتعاش العقيدة الروحية، وانبعاث الإيمان وعودة الأمة الإسلامية إلى سابق عزتها وأمجادها، في ظل وحدتها، فتنبعث نهضة إسلامية عالمية جديرة، تتمكن فيها الأمة المسلمة، من أداء الوصايا العامة، التي أناطها الله بالمسلمين، من قيادة ركب الإيمان.

وأخيرا، وليس آخرا، نشكر معالي الوزير على نزاهة إشرافه ومنهجيته الموضوعية، ونسأل الله سبحانه وتعالى، أن يكتب له التوفيق في جميع أعماله، ويكلل مساعيه وجهوده لخدمة الإسلام بكامل النجاح والازدهار، وهو ولي التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة
الأستاذ روتي علي رضا
(فرنسا)
باسم مجموعة العلماء الغربيين المشاركين في الجامعة

بسم الله الرحمن الرحيم.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الصلاة والسلام على رسول الله، سيد العرب والعجم، المبعوث للناس كافة، نشهد

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾.

الحمد لله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

أيها السادة، أيها الإخوة الأحبة.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

قبل أن أغادر بلادكم، أردت باسمي، وباسم والدي يعقوب، أن أعبر عن شكرنا الجزيل لاستقبالكم الحار، وجهودكم المخلصة لصالح المسلمين والمسلمات، وفقكم الله فيما يحبه ويرضاه، وأيدكم على الصراط المستقيم.

أما في موضوع الجلسات الماضية، فلست بعالم حتى أضيف شيئا، ولكن بكل تواضع أقول : إن الصحوة لا تكون مثمرة إلا بإيمان كامل راسخ، ولا يكمل الإيمان إلا بمحبة المصطفى ﷺ إنه قال مقسما بالله عز وجل : (والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه).

فعلينا أن نحبه حبا شديدا تاما صادقا، وهو حبيب الله المختار، الصادق الأمين، وبمحبته نسعد في الدارين إن شاء الله، فإنه القدوة الوثقى، القدوة الحسنة، وبامتثاله تكون دعاة مثاليين ذوي حكمة ورشاد، إنه قال مبشرا محبيه: (المرء مع من أحب). فكم من أمل نجد في هذا القول، أو كم من راحة القلب وقوة وعزيمة.

هنيئا لكم، هنيئا لكم يامعشر العرب، إن الله بعث فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياته ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، فكيف لا تحبونه حبا شديدا، وتكملوا إيمانكم.

طوبي لكم يامعشر الشرفاء وأفراد العائلة الملكية النبلاء، لكم الفضل بكونكم من صلب الحبيب المصطفى ﷺ، فكيف لا تستبقوننا في محبته، وتتخلقون بأخلاقه السامية، فإنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق، علينا أن نكون مثاليين، علينا أن نكون محمديين، علينا أن نكون أنصار الله ورسوله، أنصار سنته، فإنه من أحيا سنته بعدما أميتت، أحيا الله قلبه إن شاء الله يوم تموت القلوب.

يا حسرة على من أجّل صحوته حتى الوفاة فيقول الرسول ﷺ : (الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا. فيا فرحتاه، يا فرحة من صحا قبل موته واستقام، وعاش حياة سعيدة ميسورة فيقول الشاعر :

ولـــذلـك أمـك يـــا ابـن آدم بـــاكيـــا والنـــاس حـــولـك يضحكـــون سرورا
فـــاحفـظ لنفســك أن تكـــون إذا بكـــوا في يـــوم مـــوتـك ضـــاحكـــا مسرورا

مسرورا بلقاء الله، ولقاء الرسول عند الحوض.

إخواني الكرام،

الحمد لله، إنني درست العربية حتى أطلع على الكتب الفقهية والسيرة النبوية، وتعلمت قليلا، وتمتعت بقراءتي، ولكني أفكر في هؤلاء المسلمين الذين لا يحسنون لغة القرآن في أطراف دار الإسلام، يؤمنون بوحدانية الله، ويؤمنون برسالة محمد ﷺ، ولكن لا يعرفونه جيدا، كيف كان خلقه، ومعاملاته مع أصحابه وأزواجه ومع الأطفال؟ فإن سنة المصطفى كنز نكشف كل يوم جوهرها، فلا بد أن ندرسها ونتمسك بها، والالتزام بالسنة ليس بصعب إن كانت المحبة تدفعنا، بل نجد فيها حلاوة، وسرورا وتيسيرا للأمور كلها، وما أحوجنا نحن في الغرب إلى معرفة الحبيب ﷺ وآله وأصحابه الأبرار.

يا إخواني العرب، حببوا إلينا جدكم، حببوا إلينا فخركم، حدثوا عنه ولا حرج، فلا نشبع من كلامكم ويزداد شوقنا. لا ينبغض الإسلام أبدا، بل يبغض هذه الصورة المزيفة السلبية التي تعرض أمام أعينه، وفي الوقت الذي توجد في الغرب الكنائس فارغة تهجر، رأينا هنا في بلاد مجاور جامعا في غاية الجمال وذي مسافة مدهشة، ونأمل أن يكون الإيمان في الأمة أعلى مستوى، ونتصور هذا المكان مليئا بالعباد يقرأون القرآن، ويذكرون الله، ويتعلمون الإسلام، وتنزل عليهم السكينة، وتحفهم الملائكة، وتطمئن القلوب، وهذا لا بد أن يلفت انتباه الغربيين، ويجذب إن شاء الله أنفسهم إلى دين الله الحنيف، وإلى محبة الإسلام، ومحبة رسول الله ﷺ وأصحابه والمسلمين كافة، وهكذا ينتشر السلام.

وأقول في الختام قول الرسول ﷺ (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوأدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم).

فسلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي تنفرج به الكرب، وتقضى به الحوائج، وتنال به الرغائب، وحسن الخواتم، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

تعقيب

السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري على الكلمة التي ألقاها الأستاذ روتي علي رضا

شكرا لأخينا الأستاذ روتي علي رضا، الذي كانت كلماته في الحقيقة تعبر عن إيمان عميق، وكانت صادرة من القلب، ووجدت مكانها في القلوب، بل أبكت العيون.

فجزاه الله أحسن الجزاء، وحفظه داعيا للإسلام، وعاملا من أجل نشر محبة رسول الله ﷺ وهو مسلم صالح مصلح في فرنسا، يبذل جهوده، ويقف حياته من أجل نصرة دين الله عز وجل.

فجزاه الله أحسن الجزاء.

●

كلمة ختامية

للسيّد وزير الأوقاف والشؤون الإسلاميّة الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

حضرات الإخوة الأفاضل،

كما سبق أن ذكرنا، فإن أشغال هذه الجامعة، انكبت عليها صفوة من العلماء المشاركين فيها، وهيأت تقريرا رفع إلى جلالة الملك حفظه الله، لأننا لا نريد أن تشتغل أعمال الجامعة، لا من هذه الجهة ولا من هذه. نريد أن يعبر العلماء بكل ما رأيناه في الندوة من صراحة، ومن موضوعية، ومن صدق، ومن نصيحة لله ولرسوله وللمومنين، فليعبروا عن ذلك لجلالة الملك حفظه الله بوصفه أمير المومنين، وبوصفه من قادة المسلمين. وهذا نعتقد أن فيه خيرا كثيرا للإسلام ولبلادنا، ولجميع المسلمين.

والآن نتلو برقية باسمكم جميعا، مرفوعة إلى جنابه الشريف، يتلو نصها السيد المقرر العام للجامعة الأستاذ أحمد أفزاز.

●

برقية الشكر والامتنان

المرفوعة إلى

مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني
نصره الله وأيده

من السادة العلماء المشاركين في الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية

برقية الشكر والامتنان
المرفوعة إلى
مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني
نصره الله وأيده
من السادة العلماء المشاركين في الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية

باسم الله الرحمان الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

مولاي أمير المومنين، جلالة الملك الحسن الثاني دام له العز والنصر والتمكين.

سلام الله عليكم، ورحمة منه وبركاته وبعد.

فبمناسبة اختتام أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية، التي انعقدت بمدينة الدار البيضاء، من سادس صفر الخير إلى ثاني عشر منه، تحت الرعاية السامية لجلالتكم، وبعناية كاملة من مقامكم العالي بالله، يتشرف وزيركم في الأوقاف والشؤون الإسلامية، باسمه ونيابة عن جميع العلماء والدعاة ورجال الفكر الإسلامي، المشاركين في هذه الجامعة، برفع أصدق آيات الشكر وأخلص عبارات الامتنان، على هذه المبادرة الملكية الكريمة، والفرحة الثمينة، التي أتاحها لهم جلالتكم لتحقيق حوار فكري نزيه وموضوعي بين العلماء ورجال الدعوة وعلماء الاستشراق في جو نقي، تهيمن عليه الحرية ويطبعه الإخلاص، وإنهم يامولاي، ليعتبرونها مناسبة سانحة، وأياما مشرقة، جمعت صفوة من علماء الإسلام، والدعاة إلى الله من ذوي الاهتمام بالفكر الإسلامي من مختلف البلاد، ومكنتهم من تدارس موضوع حيوي هام، وأمر جدير بالبحث والاهتمام، وتبادل

وجهات النظر، والمحاورة في موضوع الصحوة الإسلامية، وأفقها الحالي، وآفاقها المستقبلية، والأسلوب الذي ينبغي أن تسير عليه، لتصحيح المفاهيم، وبلوغ الأهداف المنشودة، من الصلاح والإصلاح للفرد والمجتمع. وفق المنهج الإسلامي الحكيم، الذي رسمه القرآن والسنة، واتخذته الجامعة شعارا لها، وهو قول الله عز وجل:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

ولا غرو يامولاي، أن تكونوا سباقين إلى هذه المبادرة والمكرمة، كما هو دأبكم وشأنكم في جميع المكارم، وأن تتيحوا هذه الفرصة للعلماء والدعاة، وأن ترعوا هذه الجامعة، ويحتضنها بلدكم الكريم، تحت الرعاية السامية لجلالتكم، فما هي بأول مكرمتكم وبركاتكم آل البيت. فأنتم أمير المومنين، والملك المومن الملهم، والعالم الصالح المصلح، الرائد المجاهد الغيور، المتشبث بدينه، المعتز بأصالته، المتمسك بشريعة الإسلام، ومبادئه القومية، وأخلاقه الفاضلة، وأنتم واسطة عقد الدولة العلوية الشريفة، التي هي فرع من الدوحة النبوية، وآل بيتها الطيبين الطاهرين، وأنتم الذين ما فتئتم تقومون بأعمال إسلامية جليلة، ومنجزات دينية عظيمة، لصالح بلدكم المسلم، والحفاظ على عقيدته وهويته الإسلامية، وتدعون إلى كل ما من شأنه أن يعود بالمسلمين إلى التمسك بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، والاعتصام بحبله المتين ويزيدهم تماسكا وقوة وصفاء، ووحدة وكرامة ومناعة، ويعيد لهم الحقوق المسلوبة، وفي مقدمتها إنقاذ المسجد الأقصى والقدس الشريف، ويحقق لهم دوام النصر والعزة التي وعد الله بها أمة الإسلام، عندما قال سبحانه: ﴿ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز﴾.

وما الرسالة الملكية، التي وجهتموها إلى الأمة الإسلامية، بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري، والتي ضمنتموها من النصائح والتوجيهات، المنبثقة من ديننا الإسلامي الحنيف، والقائمة على شريعته الحكيمة، وأصوله الثابتة الراسخة، إلا قبس من نور الإيمان، الذي يشرق به قلبكم النابض، ويستنير به فكركم الثاقب، ويملأ مشاعركم النبيلة، ويعبر عن وعيكم الكامل، بما ينبغي أن يكون عليه المسلمون، في توجههم إلى الله، وفي أخلاقهم وسلوكهم، وتعاملهم مع الناس في مجالات الحياة، فكنتم بذلك سباقين إلى الدعوة للصحوة الإسلامية إيمانا منكم، ويقينا بأنه لن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وإن المشاركين يامولاي في هذه الجامعة من علماء ودعاة،

أفراداً وجماعات، إذ يعربون عن شكرهم، وبالغ امتنانهم لجلالتكم، فإنهم يعتبرون أنفسهم جنودا مجندين، ملتفين وراء جلالتكم، للتمسك بالدين ومقدساته، والحفاظ لهذا الوطن على مقوماته ووحدته، والعمل بتوجيهاتكم النيرة، وآرائكم السديدة، للعمل على كل ما يحفظ لأمتنا كرامتها وأخوتها الدينية. ويتوجهون إلى الله تعالى بخالص الدعاء في السر والعلن، أن يرعاكم ويكلأكم بعينه التي لا تنام، ويديم نصركم وعزكم، ويسدد خطاكم، ويحقق مسعاكم فيما تخططون له لخدمة الإسلام والمسلمين، وما تتمنونه لهم من قوة ومناعة ورفاهية وازدهار، وأن يجعلكم الركيزة والأساس فيما يصبون إليه من وحدة شاملة تجمع شملهم، وتبدد خلافاتهم صادقة وكلغة عامرة، هي الهدف المنشود والبغية المطلوبة، التي من أجلها تعملون رفقة إخوانكم وأشقائكم قادة الدول الإسلامية في كل بلاد المسلمين.

حقق الله سعيكم جميعا، ويسر لكم ما تودون رؤيته، وتبتغون الوصول إليه. وأبقاكم وأشقاءكم ذخرا وملاذا للبلاد والعباد، وقادة موفقين لهذه الصحوة الإسلامية المباركة، التي تجمع شمل المسلمين، وتلم شعثهم، وأقر عينكم بسمو ولي عهدكم المحبوب الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد الأمير مولاي رشيد، وكافة أفراد أسرتكم الكريمة. إنه سميع مجيب، وبالإجابة جدير. والسلام على أمير المومنين، ورحمة الله وبركاته.

خديم جلالتكم

وزيركم في الأوقاف والشؤون الإسلامية

عبد الكبير العلوي المدغري

فهرس العدد

■ افتتاحية العدد :

مغرب الإيمان، والعمل البنّاء
دعوة الحق 7

● الكلمة السامية لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله
في الجلسة الختامية لاجتماع لجنة القدس في دورتها الثالثة عشرة
بالقصر الملكي العامر بالرباط 12

● البيان الختامي والتوصيات الصادرة عن اجتماع لجنة القدس
في دورتها الثالثة عشرة بالرباط 15

■ أبحاث ودراسات وقصائد:

○ توثيق حديث:
«السلطان ظل الله في الأرض»
لفضيلة الأستاذ محمد الأزرق من كبار علماء القرويين 21

○ الرباط عاصمة معمارية
للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله 26

○ حقوق الإنسان:
انطلاقاً من قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»
للأستاذ أحمد الكتاني 46

الإمام ابن عبد البر في بعض مواقفه وآرائه(1)
للأستاذ عبد القادر العافية 52

○ الاجتهاد، مظهر الأصالة والمعاصرة في الفكر الإسلامي
للدكتور يوسف الكتاني 60

○ أسلوب الدعوة ومعوقاتها
للأستاذ علي أيت علي 72
○ قصيدة المديح في العصر المريني
للدكتور عبد الجواد السقاط 80
○ صحراءنا الغراء يا زين الحمى
للشاعر أحمد الجمالي 100
○ الترجمة في خدمة التنمية الفكرية
للدكتور عبد الله العمراني 102
○ فهرسة المخطوط العربي في بعض البلدان المتوسطية: خزانات الفاتيكان والوطنية الفرنسية، والأسكوريال، نموذجا
للدكتور أحمد شوقي بنبين 109
○ مفخرة الجيوش صمودها
للشاعر عبد الواحد السلمي 117
○ لمحات حول : أوضاع الأشخاص المسنين في المجتمع الإسلامي
للأستاذ علال البوزيدي 119
○ هذي المسيرة للتحرير مدرسة
للشاعر محمد البلغمي 124
○ شهيد العلم
(إلى روح فقيد العلم والأدب والشعر الحاج مَحمد أبّا حنيني)
للشاعر عبد الكريم التواتي 126
○ وضعية الفرد والجماعة في الأمة الإسلامية
للدكتور توفيق محمد شاهين 130

■ الملف الخاص عن:

الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية

الصحوة الإسلامية، واقع وآفاق

التي انعقدت أشغالها بولاية الدار البيضاء الكبرى

من 6 إلى 12 صفر الخير 1411هـ موافق (28 غشت ـ 3 شتنبر 1990م)

● انعقاد الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية 144
● الكلمة السامية التي ألقاها مولانا أمير المومنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله بمناسبة استقبال جلالته للسادة العلماء المشاركين في أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية بالقصر الملكي العامر بالصخيرات 154

● الكلمات التي ألقيت في الجلسة الافتتاحية للجامعة:

○ كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري 164

○ كلمة فضيلة الأستاذ إبراهيم صالح الحسيني (نيجيريا)
باسم علماء افريقيا 171

○ كلمة فضيلة الشيخ محمد المكي الناصري
الأمين العام لرابطة علماء المغرب ورئيس المجلس العلمي الإقليمي للعدوتين
باسم رابطة علماء المغرب 174

○ كلمة فضيلة الشيخ محمد الحافظ النحوي (موريتانيا)
باسم علماء دول المغرب العربي 178

○ كلمة فضيلة الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي (سوريا)
باسم علماء الدول العربية 183

○ كلمة فضيلة الشيخ الدكتور أحمد ديدات (جنوب افريقيا)
باسم المجموعة الإسلامية 187

○ كلمة الأستاذ ميكل كروز هرنانديس (اسبانيا)
باسم الأساتذة المستشرقين 191

● الكلمات التي ألقيت في الجلسة الختامية للجامعة:

○ كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري 196

○ كلمة فضيلة الشيخ محمد المكي الناصري
الأمين العام لرابطة علماء المغرب ورئيس المجلس العلمي الإقليمي للعدوتين
باسم علماء المغرب 201

○ كلمة فضيلة الشيخ محمد رشيد الغنوشي (تونس)
باسم علماء المغرب العربي 207

○ كلمة فضيلة الدكتور مصطفى مشهور (مصر)
باسم علماء الدول العربية 212

○ كلمة فضيلة الشيخ الدكتور أحمد ديدات (جنوب افريقيا)
باسم المجموعة الإسلامية 216

○ تعقيب السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
على الكلمة التي ألقاها فضيلة الدكتور أحمد ديدات 218

○ كلمة فضيلة الأستاذ عبد العزيز سي (السنغال)
باسم المجموعة الإفريقية 219

○ كلمة الأستاذ روتي علي رضا (فرنسا)
باسم مجموعة العلماء الغربيين المشاركين في الجامعة 224
○ تعقيب السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
على الكلمة التي ألقاها الأستاذ روتي علي رضا 227
○ كلمة ختامية للسيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري 228
● برقية الشكر والامتنان
المرفوعة إلى مولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده
من السادة العلماء المشاركين في الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية 230

●

مطبعة فضاله . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 3/1981

دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الرباط - المملكة المغربية

أسسها
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه

سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العالم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 55
à Rabat

ضريح جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه في مدينة رباط الفتح عاصمة المملكة المغربية